262

Agatha Christie

أجاثا كريستي

Ahmed Mady

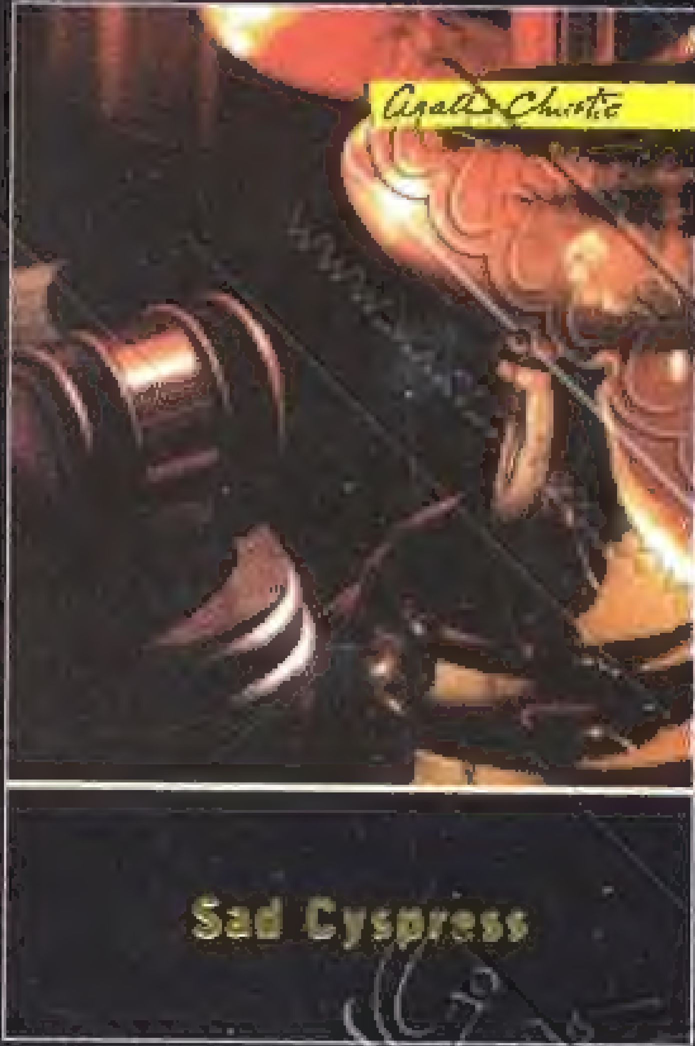




شجرة السرو الحزينة

أجاثا كريستي Agatha Christie

شجرة السرو الحزينة



وقفت إلينور كارليل في حزن وهي تواجه الاتهام بقتل ماري جيرارد، غريمتها في الحب. كانت الأدلة ضدها دامغة: فإلينور وحدها كان لديها الدافع والفرصة والوسائل التي يمكنها بها وضع السم للقتيلة.

ومع ذلك، وبداخل قاعة المحكمة التي امتلأت بمشاعر العداء، كان هناك رجل واحد فقط يؤمن بأن إلينور بريئة: إن هيركيول بوارو كان هو الحائل الوحيد الذي يفصل بين إلينور وبين حبل المشنقة.

«ها هو بوارو يقوم بحل قضية أخرى غامضة».

صحيفة الديلى ميل



Thurs.
19/7/2012
Riyadh
KSA

6 281072 056599
282204242

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

كتابنا القادم

إعجاز القرآن

والبلاغة النبوية

مصطفى صادق الرافعي



دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

شجرة السرو الحزينة

أجاثا كريستي

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

Sad Cypress



شجرة السرو الحزينة

تُعرف أجاثا كريستي في كل أنحاء العالم باسم " ملكة الغموض " ، ولقد حققت مبيعات كتبها ما يربو على مليار نسخة باللغة الإنجليزية إضافة إلى مليار نسخة أخرى ترجمت إلى مائة لغة أجنبية ، وهي تعد أكثر كاتبة نشرت لها كتب على مر العصور على مستوى كل اللغات ، ولم يفُقها في المبيعات إلا كتب شكسبير ، وقد قامت بتأليف ثمانين كتابا ، ما بين روايات ومجموعات من القصص القصيرة في الجريمة ، كما قامت بتأليف تسع عشرة مسرحية ، وست روايات تحت اسم ماري ويستماكوت .

ولقد كتبت أجاثا كريستي روايتها الأولى " السر الغامض في ستايلز " قرب نهاية الحرب العالمية الأولى ، والتي كانت تعمل خلالها في الجيش كممرضة . وقد قامت في هذه الرواية بابتكار شخصية هيركيول بوارو ، ذلك المحقق البلجيكي ضئيل الجسم الذي صار أشهر محقق في روايات الجرائم بعد شيرلوك هولمز ـ وقد نشرت الرواية أخيرًا بواسطة دار نشر Bodley Head في عام ١٩٢٠ .

وفي عام ١٩٢٦ ، وبعد أن اعتادت تأليف رواية واحدة كل عام ، قامت أجاثا كريستي بتأليف روايتها

العظيمة " من الذى قتل السيد روجر أكرويد ؟ " ، تلك الرواية التى كانت أول رواية تنشرها لها دار النشر " Collins " والتى أسست علاقة ربطت بين الكاتب والناشر دامت لخمسين عامًا ونتج عنها ما يزيد على سبعين رواية ، كما كانت رواية " من الذى قتل السيد روجر أكرويد ؟ " هى أولى رواياتها التى يتم تمثيلها مسرحيًا - تحت عنوان " Alibi " - واستمر عرضها بنجاح على مسرح " ويست إند " فى " لندن " لمدة طويلة . وقد تم افتتاح مسرحية ــ " مصيدة الفئران " ــ أشهر مسرحياتها على الإطلاق فى عام ١٩٥٢ وهى المسرحية المعروفة بكونها صاحبة أطول فترة عرض فى التاريخ .

وقد منحت أجاثا كريستى لقب " فارسة صاحبة مقام رفيع " فى عام ١٩٧١ ، وتوفيت فى عام ١٩٧٦ . ومنذ ذلك الحين ظهرت عدة مؤلفات لها منها تلك الرواية التى حققت أعلى المبيعات " Sleeping Murder " وظهرت لاحقًا فى نفس عام وفاتها . بعد ذلك نُشِرَت السيرة الذاتية لها ، ثم مجموعة القصص القصيرة " Miss Marple's Final Cases " و " Problem at Pollensa Bay " و " While the Light Lasts " وفى عام ١٩٩٨ تم تحويل أول مسرحية لها وهى " Black Coffee " إلى رواية بواسطة مؤلف آخر هو " تشارلز أوزبورن " .

إلى بيترو وبيجى ميلوت

أيها الموت تعالَ .... تعالَ
وتحت ظلال السنديان الحزين دعنى ألقِ برأسى
وأنت أيها النفس اذهب .....اذهب
فقد ذبحتنى جميلة قاسية القلب شديدة البأس .
وكفنى القطنى الأبيض ، محشو فى خشب النعش البارد
من يا ترى قد أعده ؛
ونصيبى من الموت ما أرى من خل وفى ؛
قد جاء يحمل عنى بعضه .

وليام شكسبير

مقدمة

" *إلينور كاثرين كارليل ، إنك تقفين أمام المحكمة متهمة بقتل مارى جيرارد فى نهار السابع والعشرين من يوليو الماضى ، فهل أنت مذنبة أم غير مذنبة ؟* .

وقفت إلينور كارليل معتدلة القامة ، ورفعت رأسها فى شموخ ، وقد ظهرت عظام وجهها حادة ودقيقة ، كانت عيناها مشرقتين بزرقة ماء البحر ، وقد أسدلت خصلات شعرها الأسود فوق كتفيها ، أما حاجباها فكانا عبارة عن خطين رفيعين يمران فوق جبهتها العريضة .

ساد الصمت فى أرجاء قاعة المحكمة ـ وقد جلس الحضور وكأن على رؤوسهم الطير .

شعر السيد إدوارد بالمر ـ محامى المتهمة ـ بإحساس من اليأس يجتاحه .

ثم قال فى نفسه :

" يا إلهى ، سوف تعترف بأنها مذنبة ... لقد انهارت أعصابها .... " .

فتحت إلينور كارليل شفتيها ، وقالت :

" غير مذنبة " .

ألقى محامى الدفاع بجسده فوق المقعد مرة أخرى ، ثم مسح جبهته بمنديله ، وهو يتنفس الصعداء .

وقف السيد صامويل آتنبورى ـ المدعى العام ـ على قدميه ، ثم شرع فى تلخيص القضية للمحكمة .

" سيدى القاضى ، السادة المحلفون ، فى يوم السابع والعشرين من يوليو الماضى ، وفى تمام الثالثة والنصف عصراً ، توفيت مارى جيرارد فى منزل هانتربيرى ، بمدينة مادينسفورد ... " .

تدفقت الكلمات من فمه ، وانطلق صوته جهورياً محبباً إلى الآذان ، حتى إنه قد جعل إلينور تسرح فى أفكارها ، ومن حكيه البسيط والمختصر ، نفذت إلى عقلها الواعى بضع عبارات متناثرة .

" .... إنها قضية بسيطة وواضحة ومباشرة للغاية ... " .

" ... إن واجب المحكمة .... إثبات الدافع وفرصة ارتكاب الجريمة .... " .

" .... لا أحد ـ على قدر علمنا ـ كان لديه دافع لقتل تلك الفتاة المسكينة ـ مارى جيرارد ـ سوى المتهمة ، لقد كانت مارى جيرارد شابة ذات طباع ساحرة ، وقد أحبها كل من عرفوها ، وليس لديها ـ على حسب علمى ـ عدو واحد فى هذا العالم ... " .

ثم سرحت إلينور فى أفكارها : *مارى ، مارى جيرارد ! كم تبدو تلك الأحداث بعيدة جدًا الآن ! وكأنها لم تكن يوماً واقعاً حقيقياً ...*

وعاد صوت المدعى العام مجددا : " ويجب أن يتوجه انتباهكم إلى الحقائق التالية :

١ . ما هى الفرص والطرق التى أتيحت للمتهمة لكى تقوم بدس السم للقتيلة ؟

٢ . ما هى الدوافع التى لديها لارتكاب الجريمة ؟

" وسوف يكون من واجبى أن أقدم لكم شهوداً يمكن لشهاداتهم أن تساعدكم على الوصول إلى رأى قاطع ونهائى فى هذين الأمرين ... " .

" أما بالنسبة لدس السم للقتيلة مارى جيرارد ، فسوف أثبت لكم أنه *لا أحد كان لديه الفرصة* للقيام بذلك سوى المتهمة ... " .

شعرت إلينور وكأنها حبيسة داخل ضباب كثيف ، وقد انسابت إلى أذنيها ـ عبر الضباب ـ كلمات متقطعة .

" ....شطائر ... " .

" ....عجينة السمك .... " .

" ..... منزل شاغر .... " .

اخترقت الكلمات ذلك الحاجز الضبابى الكثيف من أفكار إلينور ـ وكأنها سكاكين حادة تخترق حجاباً رقيقاً من قماش ناعم .

ومن بين كل تلك الوجوه التى جلست فى صفوف متتالية داخل قاعة المحكمة ، كان هناك وجه محدد لرجل ذى شارب أسود كث وعينين تنطقان بذكاء حاد . كان وجه هيركيول بوارو ، وقد أمال رأسه قليلاً إلى اليسار ، وكانت عيناه ـ الغارقتان فى تفكير عميق ـ تراقبان إلينور بدقة .

أخذت إلينور تفكر : إنه يحاول أن يكتشف *لماذا ارتكبت* الجريمة ... إنه يحاول أن يخترق أفكارى ليعلم بماذا كنت أفكر حينها وكيف كنت أشعر ... كيف شعرت حينها .... ؟ بقليل من الغشاوة ـ شعور بسيط بالصدمة ... ثم رأيت وجه رودى ـ وجهه المحبب إلى قلبى ، بأنفه الطويل ، وفمه الرقيق ... رودى ! دائماً رودى ـ دائما وأبداً ومنذ وعت عيناها تلك الحياة ... منذ أيام الطفولة فى هانتربيرى واللعب بين أشجار التوت والجرى إلى مزرعة الأرانب والسباحة فى الجدول . رودى ـ رودى ـ رودى ....

ثم ظهرت وجوه أخرى ! الممرضة أوبريان ، وقد فغرت فمها قليلا ، واندفع وجهها الصبوح ذو النمش إلى الأمام . الممرضة هوبكنز ، وقد بدت معتدة بذاتها ـ وقد أطل الحقد من عينيها . ثم وجه بيتر لورد ـ بيتر لورد ،

ذو الوجه العطوف والحساس - والمريح للغاية ! لكن وهى تنظر إليه الآن - ماذا ترى - *ضياع* ؟ نعم ، ضياع ! لعله يتذكر - ويفكر فى كل هذه الأحداث بخوف شديد ! بينما هى نفسها ، بطلة هذا العرض ، لا تهتم بأى شيء على الإطلاق !

لقد كانت هناك ، فى قاعة المحكمة ، تقف هادئة وباردة المشاعر فوق المنصة ، متهمة بجريمة قتل .

شيء ما قد تحرك بداخلها ؛ وقد بدأ الضباب الذى أحاط بعقلها فى الانقشاع - وصار مجرد دخان ، إنها فى *المحكمة ... الناس ....*

كان الناس يميلون إلى الأمام ، وقد انفرجت شفاههم قليلاً ، واتسعت أعينهم كثيرا ، وهم يحدقون إليها - إلى إلينور - وقد ظهر على وجوههم استمتاع شديد وبشع - وقد أصغت آذانهم ، فى تلذذ قاس وبطيء ، لما يقوله ذلك الرجل ذو الأنف المعقوف عنها .

" إن حقائق هذه القضية سهلة جدا فى تتبعها وليس هناك أى شك بخصوصها . وسوف أعرض أمامكم تلك الحقائق بشكل مبسط وسريع ، منذ البداية .... " .

أخذت إلينور تفكر :

" البداية .... متى كانت البداية ؟ نعم ، فى ذلك اليوم الذى وصل فيه ذلك الخطاب البشع مجهول الهوية ! لقد كانت *تلك* اللحظة هى بداية الأمر ... " .

الجزء ١

الفصل ١

خطاب من مجهول !

وقفت إلينور كارليل تتطلع إلى الخطاب الذى أمسكت به في راحة يدها ، لم تكن قد تسلمت يومًا خطاباً من مجهول ، وشعرت للمرة الأولى كم أن شيئاً كهذا قد يسبب للمرء إحساساً مزعجاً ، كان الخطاب مكتوباً بأسلوب سيئ ، وهجاء غير سليم ، وعلى ورق قرنفلى من النوع الرخيص .

كان هذا هو فحوى الخطاب :

لقد أرسلت هذا الخطاب من أجل تحذيرك .

أنا لن أذكر أسماء ، لكن هناك شخصًا يتودد إلى عمتك كثيرا ، وإذا لم تتصرفى بسرعة وحرص ، فسوف تحرمين من ثروة عمتك تمامًا . إن الفتيات الشابات يمتلكن مهارة شديدة فى فن التملق ، وكذلك فإن العجائز لديهن ضعف طبيعى تجاه تودد وإطراء

الفتيات الصغيرات لهن . ما أريد قوله هو أن عليك المجيء لكى ترى بنفسك ما يحدث فى منزل عمتك ، حيث إنه ليس من العدل أن تتعرضى . أنت وذلك الشاب النبيل . إلى الحرمان مما هو حق أصيل لكما . لكن تلك الفتاة بارعة للغاية فيما تفعله ، وعمتك العجوز قد يتوفاها الله فى أية لحظة .

وتقبلى خالص امنياتى .

كانت إلينور لا تزال تحدق إلى الخطاب ، وقد انعقد حاجباها فى انزعاج واضح ، عندما فتح الباب ، ودلفت الخادمة إلى الحجرة قائلة : " لقد وصل السيد رودى ويلمان " ، ثم دخل رودى إلى الحجرة .

كعادتها عند رؤية رودى ، كانت إلينور واعية لذلك الدوار البسيط الذى يصيبها ، وتلك النوبة المفاجئة من المتعة ، وشعور غريب يخبرها أنها مضطرة للتصرف بأسلوب عملى خال من العاطفة ؛ لأنها كانت تدرك بمنتهى الوضوح أن رودى ــ رغم حبه لها ــ لا يشعر تجاهها بنفس الإحساس القوى الذى تشعر به تجاهه . كانت النظرة الأولى إليه دائما ما تفعل شيئا بكيانها ، وكأنها تدير قلبها رأسا على عقب إلى درجة تكاد تؤلمها . كم هو غريب أن شاباً ـ شاباً عادياً بكل ما تحمله الكلمة من معان ـ يستطيع أن يفعل ذلك بفتاة ، إلى درجة تجعل مجرد النظر إليه كفيل بأن يجعل الأرض تدور من حولها ، ويكون سماع صوته كافياً لكى يجعلها ترغب

ـ ولو قليلاً ـ في البكاء .... إن الحب يجب أن يكون شعوراً ممتعاً ، وليس شيئا قد يؤلم القلب من شدته .

كان هناك شيء واضح : يجب على الفتاة أن تكون حريصة للغاية فى أن تتصرف ببساطة وتلقائية تجاه تلك المشاعر ، فالرجال لا يحبون التفانى وشدة الهيام ـ على الأقل لم يكن رودى يحب ذلك .

قالت إلينور بخفة :

" مرحبا رودى " .

أجاب رودى :

" مرحبا عزيزتى ، تبدين فى شدة الانزعاج ، هل جاءتك فاتورة مستحقة الدفع ؟ " .

هزت إلينور رأسها نفيًا .

قال رودى : " لقد ظننت أنها ربما تكون فاتورة ، فنحن الآن فى منتصف الصيف ـ كما تعلمين ـ وهذا هو موعد استحقاق الفواتير المتأخرة ، حيث يتهافت على المرء الدائنون وتجدين فواتير المحال وكأنها تتساقط من السماء على رأس المرء ! " .

قالت إلينور :

" إنه شيء أبشع من هذا ، إنه خطاب من مجهول " .

ارتفع حاجبا رودى فى استغراب واضح ، وقد تغيرت ملامح وجهه الرقيقة وعلاها الجمود ، ثم قال فى حدة وامتعاض :

" حقاً ! " .

قالت إلينور مجددا :

" إنه شيء بشع ... " .

ثم تحركت خطوة تجاه مكتبها .

وأردفت : " أعتقد أنه من الأفضل أن أقوم بتمزيقه " .

كان باستطاعتها أن تفعل ذلك - بل كادت تفعله - وذاك أن رودى وخطاباً من مجهول ليسا بالأمرين اللذين تحب أن تواجههما معاً ، كان بإمكانها أن تلقى بالخطاب بعيداً متناسية أمره ، وما كان رودى ليمنعها من أن تفعل ذلك ، وذلك أن رقته كانت أكثر تحكمًا فى طبيعته من فضوله .

لكن إلينور - ومن وحى دافع خفى بداخلها - لم تتخلص من الخطاب ، ثم قالت :

" ربما يكون من الأفضل أن تقرأه أولاً ، ثم نقوم بحرقه بعد ذلك . إنه يتعلق بالعمة لورا " .

ارتفع حاجبا رودى فى دهشة .

" العمة لورا ؟ " .

ثم تناول الخطاب وقرأه ، وظهر العبوس على وجهه للحظة ، ثم أعاده إليها .

ثم قال : " لابد من حرقه بالتأكيد ! كم يوجد أناس غرباء فى هذا العالم ! " .

قالت إلينور : " أعتقد أنه أحد الخدم ، ألا تتفق معى ؟ " .

تـردد رودى قلـيلاً ، ثـم قـال : " أعتقـد ذلـك ، وإن كنت أتساءل من يكون ـ أقـصد مـن يكـون ذلـك الـشخص الذى يتحدث عنه مرسل الخطاب ؟ " .

قالت إلينور بتمعن :

" لابد أنها مارى جيرارد ـ حسبما أعتقد " .

انعقد حاجبا رودى وكأنـه يبـذل مجهـوداً كـبيراً لكـى يتذكر شيئاً ما .

" مارى جيرارد ؟ ومن تكون ؟ " .

" إنها ابنة الحارس الذى يقيم فى الكـوخ . لابـد أنـك تتذكرها عندما كانت طفلة ؟ لقد كانـت العمـة لـورا دائمـا متعلقـة بتلـك الفتـاة ، وكانـت تهـتم بمـصلحتها كـثيرا ، حتى إنها قد دفعت مصروفات مدرستها وكذلك مـصروفات إضـافية نظـير تلقيهـا دروس بيـانو ولغـة فرنـسية وأشـياء أخرى " .

قال رودى :

" أوه ، نعم ، لقد تذكرتها الآن : فتاة نحيلة للغاية ، ذات شعر أشقر أشعث " .

أومأت إلينور برأسها .

" نعم ، لكنك لعلك لم ترها منذ إجازات الصيف التـى كنا نقضيها هناك عندما كان أبى وأمى يعيشان بالخـارج . إنك بالطبع لم تعد تزور هانتربيرى كثيرا ـ مثلما أفعل أنا ـ وكذلك فإن مارى جيرارد كانت تتلقى تعليمهـا فـى ألمانيـا

مؤخرا ، ولكننا اعتدنا أن نشاكسها ونلعب معها عندما كنا أطفالاً صغارًا " .

تساءل رودى : " وكيف يبدو شكلها الآن ؟ " .

قالت إلينور :

" لقد أصبحت فتاة جميلة الملامح وتتميز بأخلاق حميدة ، وكنتيجة لذلك التعليم الراقى الذى تلقته ، فإنك لن تشك أبداً أنها ابنة الحارس جيرارد " .

" لقد أصبحت مثل فتيات المجتمع الراقى ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، أعتقد ذلك ، وكنتيجة لهذا الأمر ، فإنها لا تستريح كثيراً فى العيش بكوخ أبيها ، كما أن والدتها قد توفيت منذ عدة سنوات والعلاقة بينها وبين أبيها سيئة للغاية ، فهو دائماً ما يسخر من تعليمها الراقى و " أساليبها الراقية " على حد قوله " .

قال رودى بانزعاج :

" إن الناس لا يتصورون مقدار الأذى الذى يلحقونه بشخص ما عن طريق " التعليم " الذى يفرضونه عليه ! وإصرار الأغنياء على دفع الفقراء لنيل قسط من التعليم الراقى هو نوع من القسوة - وليس الرحمة كما يظنون ! " .

قالت إلينور :

" أعتقد أنها تمضى وقتاً كبيراً فى منزل العمة لـورا ... فهى تقرأ للعمة لورا منذ إصابتها بالسكتة الدماغيـة وعـدم تمكنها من القراءة بنفسها " .

قال رودى :

" ولماذا لا تقرأ لها الممرضة ؟ " .

قالت إلينور ـ بابتسامة :

" إن لدى الممرضة أوبريان نبرة صـوت أكثـر حـدة مـن سـكين المطـبخ ! لا عجـب أن العمــة لـورا تفـضل قـراءة مارى " .

أخـذ رودى يقطـع الحجـرة جيئـة وذهابـا لدقيقـة أو اثنتين ، ثم قال :

" أتعلمين يا إلينـور ، أعتقـد أنـه مـن الأفـضل لـك أن تذهبى إلى منزل العمة لورا " .

قالت إلينور ـ وهى ترتجف ارتجافة بسيطة :

" بسبب هذا الخطاب ... ؟ " .

" كـلا ، كـلا ـ علـى الإطـلاق . آوه ، اللعنـة ، لابـد للمرء أن يكـون صـريحاً ، نعـم ـ بـسبب هـذا الخطـاب ! فـرغم أن هـذا الخطـاب لا يعـدو أن يكـون مجـرد وسـيلة حقيرة ، إلا أنه ربمـا كـان هنـاك بعـض الحقيقـة وراءه ، أقصد أننا نعلم أن العمة لورى فى شدة المرض و ... " .

" وماذا يا رودى ؟ " .

نظر إليها بابتسامة ساحرة ،ثـم قـال ـ معترفـاً بـضعف النفس البشرية :

" والمـال لـه أهميتـه ـــ مـن أجلـك ومـن أجلـى ـــ يـا إلينور " .

أقرت إلينور بالأمر بسرعة :

" نعم ، إنه مهم لكلينا " .

قال رودى بجدية :

" أنا لا أتصرف بـدافع مـن الجـشع ، لكـن علـى كـل حال ، فإن العمة لورا طالما قالت مرة بعد أخرى إننا ـ أنـا وأنت ـ عائلتها الوحيدة ، فأنت ابنة شـقيقها ، وأنـا ابـن شقيق زوجها ، ولقد أفهمتنا دائما أنه حيال وفاتها ، فإن كل ثروتهـا سـوف تـذهب إلى أحـدنا ـ أو علـى الأرجـح ـ كلينا ، وثروتها ـ كما تعلمين ـ كبيرة للغاية يا إلينور " .

قالت إلينور بتأمل : " نعم ، لابد أنها كذلك " .

" والاحتفاظ بضيعة هانتربيرى ليس بالأمر الذى يمكـن التفريط فيه " ، توقف رودى قليلاً ثم أردف : " لقد كـان عمى هنرى رجلاً ميسور الحال عندما تزوج عمتـك لـورا ، لكنها كانت شديدة الثراء ، حيث إنها ـ هى ووالدك ـ قـد ورثا ثروة كبيرة ، لكن والدك ـ لـشدة الأسـف ـ قـد أضـاع معظم ثروته فى مضاربات البورصة " .

تنهدت إلينور بحسرة وقالت :

" لم يكن والـدى المـسكين يمتلـك عقليـة تجاريـة بـأى حال من الأحوال ، ولقد كان يقلق لكل صغيرة وكبيرة فـى أيامه الأخيرة " .

" نعم ، لقد كانت عمتك لورا أكثر تعقلاً فى النواحى المالية ، فقد تزوجت عمى هنرى ثم ابتاعا ضيعة هانتربيرى ، ولقد أخبرتنى من قبل أنها كانت دائمًا محظوظة للغاية فى استثماراتها ، وأنها لم تعان قط من الناحية المالية " .

" لقد ترك لها العم هنرى كل ما يملك عندما توفى ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ رودى موافقاً وقال :

" نعم ، لقد كان أمراً محزنا أن يتوفى بعد زواجهما بوقت قليل ، ولقد أظهرت العمة لورا إخلاصاً شديداً حين رفضت أن تتزوج من بعده ، موجهة كل رعايتها وحبها تجاهنا ، حتى إنها كانت تعاملنى كما لو كنت ابن أخيها وليس ابن شقيق زوجها ، ولقد اعتادت أن تنقذنى من كل ورطة كنت أزج بنفسى بها ؛ ومن حسن الحظ أننى لم أكن أورط نفسى فى الكثير من المشاكل ! " .

قالت إلينور بامتنان : " لقد كانت كريمة للغاية معى أنا الأخرى " .

أومأ رودى موافقاً .

وقال : " أعلم أن العمة لورا امرأة صعبة المراس ، لكننا كما تعلمين ـ وربما دون أن نقصد ـ نعيش حياة مرفهة للغاية على الرغم من مواردنا المحدودة ! " .

قالت إلينور فى أسى :

" أعتقد أن الأمر كذلك بالفعل .... لقد صارت كل الأشياء مكلفة - مثل الملابس وأدوات الزينة ، وأشياء سخيفة مثل الذهاب إلى السينما والحفلات الراقصة ، وحتى أسطوانات الموسيقى ! " .

قال رودى :

" عزيزتى ، إنك إحدى فتيات المجتمع الراقى ، ألا تتفقين معى ؟ فأنت لا تستطيعين العمل والكدح مثل بقية فتيات العائلات الفقيرة والمتوسطة ! " .

قالت إلينور :

" أتظن أن على أن أجد وظيفة يا رودى ؟ " .

هز رودى رأسه نفياً .

وقال : " إننى أحبك كما أنت : رقيقة ومتحفظة ومثيرة للدهشة ، ولسوف أكره أن أراك تكدحين فى عمل شاق ، وكل ما أقوله هو أنه لولا العمة لورا ، لكنت الآن تعملين فى وظيفة حقيرة " .

ثم أكمل رودى يقول :

" الأمر نفسه ينطبق علىّ . لدى وظيفة - بشكل ما . أعلم أن العمل فى شركة لويس آند هاوم ليس بالوظيفة العظيمة ، لكنه يناسبنى - وعلى الأقل يمكننى من الاحتفاظ باحترامى لذاتى عن طريق العمل فى وظيفة ثابتة ؛ لكننى - وانتبهى لكلامى هذا - لست قلقا حيال المستقبل بسبب الثروة التى أنتظرها - من العمة لورا " .

قالت إلينور :

" إننا نتحدث مثل أشخاص طفيليين ! " .

" هراء ! إننا نتحدث لأننا ـ منذ الصغر ـ قد عرفنا أننا سوف نرث بعض المال فى يوم ما ـ هذا هو كل فى الأمر ، ومن الطبيعى أن تؤثر تلك الحقيقة على سلوكنا " .

قالت إلينور بتأمل :

" إن العمة لورا لم تخبرنا يوما بالطريقة التى سوف توزع بها ثروتها ، أليس كذلك ؟ " .

قال رودى :

" هذا لا يهم كثيرا ! الاحتمال الأكبر هو أنها سوف تقسم الثروة بيننا ؛ ولكن إن لم يحدث ذلك ـ وإذا تركت كل أو معظم الثروة لك ، باعتبارك قريبتها الشرعية ـ فإننى سوف أشاركك الثروة باعتبار أننا سوف نتزوج ـ أما إذا ارتأت العمة لورا أن تترك معظم الثروة لى أنا ، باعتبارى الرجل الوحيد الباقى من عائلة ويلمان ، فهذا أيضا لن يغير من الأمر شيئا ؛ لأنك سوف تتزوجين بى " .

ثم ابتسم لها بحب وقال :

" من حسن الحظ أن كلينا يحب الآخر ، أنت تحبيننى يا إلينور ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم " .

قالتها ببرود ـ تقريبا بلا روح .

قال رودى مقلدا أسلوبها فى سخرية : " نعم ! كم أنت رائعة يا إلينور ، بكل سماتك - من تحفظ ، وكبرياء ، *وتعالٍ غير مصطنع* . إننى أعتقد أن تلك السمات هى ما جعلنى أحبك فى المقام الأول " .

التقطت إلينور أنفاسها وقالت : " أحقاً هذا ؟ " .

تجهم وجه رودى ثم قال : " نعم ، إن بعض النساء شديدات - أوه ، لا أدرى - شديدات التملك ، شديدات التعلق والتفانى ولا يستطعن التحكم فى إظهار مشاعرهن ، وأنا أكره تلك النوعية من النساء ، أما معك فأنا لا أعرف ما يجول بخاطرك ، ولا أحس بالثقة مطلقاً ، فإنك قد تستديرين فى أية لحظة بطريقتك الباردة والمستقلة وتقولين إنك قد غيرت رأيك بشأنى - هكذا ، بمنتهى الهدوء ، ودون أن يطرف لك جفن ! إنك مخلوق مثير للدهشة يا إلينور - بل أنت أشبه بتحفة فنية فى *غاية الكمال* ! " .

ثم أكمل :

" أتعلمين ، أظن أن زواجنا سيكون زواجاً ناجحاً للغاية .... فكلانا يحب الآخر - لكن ليس بدرجة أكبر من اللازم ، وكذلك فإننا أصدقاء مقربون ، ولدينا ذوق مشترك فى كثير من الأشياء ، إلى جانب أن كلا منا يعرف خصال الآخر جيدًا ، ولدينا كل المميزات التى تجلبها القرابة العائلية دون أن نعانى من عيوب قرابة الدم ، إن مشاعرى تجاهك لن تتبدل أبداً ولن يعترينى

الملل من وجودى بقربك ، فأنت شخصية ذات طبيعة متجددة للغاية ، أما أنت ، فربما تملين منى ، إذ إننى شخص عادى لا يميزنى شيء ... " .

هزت إلينور رأسها وقالت :

" لا يمكن أن أملّ منك يا رودى ـ محال " .

" حبيبة قلبى ! " .

قبّل رودى يديها .

قال :

" أظن أن العمة لورا لديها فكرة جيدة عن علاقتنا ، على الرغم من أننا لم نذهب إلى هناك منذ أن اتفقنا على الزواج ، وأعتقد أن ذلك يعطينا مبرراً جيداً للذهاب إلى هانتربيرى ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم . لقد كنت أفكر منذ أيام أننا ... " .

أكمل رودى العبارة نيابة عنها :

" أننا لم نعد نذهب إلى هناك كثيرا كما ينبغى أن نفعل . لقد فكرت فى ذلك أيضا . فعندما أصيبت العمة لورا بالسكتة ، كنا نذهب إلى منزلها تقريبًا مرة كل أسبوعين ، أما الآن فقد مضى شهران لم نذهب إلى هناك " .

قالت إلينور :

" كنا لنذهب على الفور لو أنها طلبت منا الحضور " .

" نعم ، بالطبع ، ونحن نعرف أنها تحب الممرضة أوبريان ، وأنها تلقى الرعاية الكاملة ، لكن ربما كنا مقصرين قليلاً رغم كل هذا ، وأنا هنا لا أتحدث من وجهة نظر مادية ـ لكن من ناحية رعاية حق القرابة والعلاقات الإنسانية " .

أومأت إلينور موافقة وقالت :

" أعرف ذلك " .

" إذن ، فذلك الخطاب الحقير قد أفادنا قليلاً ، على أى حال ! أظن أن علينا أن نذهب إلى هناك من أجل حماية مصالحنا ومن أجل الاطمئنان على عمتنا العزيزة " .

أشعل رودى أحد أعواد الثقاب ثم أضرم النار فى الخطاب الذى أخذه من يد إلينور .

وقال : " أتساءل من الذى كتب ذلك الخطاب ـ ليس لأن ذلك يمثل أية أهمية ... لكن من الجيد أن نعلم أن أحدهم " فى جانبنا " كما اعتدنا أن نقول عندما كنا صغاراً ، وربما يكون ذلك الشخص قد فعل بنا الخير أيضاً ، أتذكرين جيم بارتنجتون ؟ لقد ذهبت والدته لتعيش فى شواطئ الريفيرا ، وكان بصحبتها طبيب إيطالى شاب ، ثم أصبحت مولعة به فى أيامها الأخيرة مما جعلها تترك له كل مليم تمتلكه ، ولقد حاول جيم وإخوته الطعن فى صحة الوصية ، لكن دون جدوى " .

قالت إلينور :

" إن العمة لورا تحب ذلك الطبيب الشاب الذى تولى أمر العيادة المحلية بعد وفاة الدكتور رانسوم ـ لكن ليس لذلك الحد الذى تتحدث عنه ! على أى حال ، لقد تحدث الخطاب عن فتاة ، ولابد أنها مارى جيرارد " .

قال رودى :

" سوف نذهب ونرى بأنفسنا ... " .

٢

اندفعت الممرضة أوبريان خارج حجرة نوم السيدة لورا ويلمان ثم توجهت إلى داخل الحمام ، وقالت :

" سوف أضع غلاية الماء ، أظن أنك قد تفضلين تناول قدح من الشاى قبل أن تذهبى يا عزيزتى ".

قالت الممرضة هوبكنز بارتياح :

" حسناً يا عزيزتى ، إننى دائماً على استعداد لتناول الشاى ، ودائما ما أقول إنه لا يوجد ما هو أفضل من قدح من الشاى الساخن المعد جيداً ! " .

قالت الممرضة أوبريان وهى تملأ غلاية الماء وتشعل الموقد :

" لدى كل شىء هنا فى تلك الخزانة ـ الشاى ، الإبريق ، الأقداح ، والسكر ـ وكذلك فإن إيدنا تحضر لى لبناً طازجاً مرتين يوميا ، ولا توجد حاجة للانتظار إلى

الأبد من أجل تناول قدح من الشاى ، فذلك الموقد الرائع يغلى الماء فى ثوان معدودة " .

كانت الممرضة أوبريان امرأة طويلة ، حمراء الشعر ، فى الثلاثين من العمر ، تمتلك أسناناً بيضاء لامعة بالإضافة إلى وجه منمش ، وابتسامة جذّابة ، ولقد كان مرحها وحيويتها هما السبب وراء ذلك الحب الذى يكنه لها مرضاها ، أما الممرضة هوبكنز ـ الممرضة الرسمية بالمقاطعة ـ والتى كانت تحضر فى صبيحة كل يوم لكى تساعد فى إعداد الفراش والحمام للسيدة العجوز ثقيلة الوزن ، فكانت امرأة فى خريف العمر ، تشبه ربات البيوت ، مع تميزها بنشاط حاد وأسلوب قدير فى تولى مهام عملها .

قالت الممرضة هوبكنز موافقة :

" كل الأمور تتم بشكل جيد فى هذا المنزل " .

أومأت المرأة الأخرى مؤيدة .

وقالت : " نعم ، بعضها يتم بطريقة عتيقة الطراز ، فلا توجد تدفئة مركزية ، لكن يوجد الكثير من المدافئ والخادمات كلهن فتيات مطيعات للغاية ، وتتولى السيدة بيشوب ـ رئيسة الخادمات ـ رعايته جيداً ".

قالت الممرضة هوبكنز :

" أنا لا أطيق صبراً فى التعامل مع فتيات هذه الأيام ـ فأنا لا أعلم ماذا يردن فى هذه الحياة ، وكذلك فإنهن لا يحسن أعمال المنزل اليومية " .

قالت المرضة أوبريان : " إن مارى جيرارد فتاة لطيفة للغاية ، ولست أدرى ماذا يمكن أن تفعل السيدة لورا بدونها ، أرأيت كيف كانت تسأل عنها منذ قليل ؟ أوه ، إنها فتاة رائعة ، ولديها أسلوب جميل فى التعامل مع الآخرين ".

قالت المرضة هوبكنز :

" إننى أشعر بالأسى من أجل مارى ، إن والدها رجل سيئ الخلق ودائما ما يحاول أن ينغص عليها معيشتها " .

قالت المرضة أوبريان : " إن لسان ذلك العجوز السكير لا ينطق أبداً بكلمة لطيفة ، حسناً ، إن الغلاية تطلق صافرة ، سوف ألقى الشاى بداخلها بمجرد أن يغلى الماء ".

انتهت المرضة أوبريان من عمل الشاى وصبه فى الأقداح ـ ساخناً وذا نكهة منعشة ، وقد جلست المرضتان تحتسيانه فى غرفة المرضة أوبريان المتاخمة لحجرة نوم السيدة لورا .

قالت المرضة أوبريان : " إن الآنسة إلينور كارليل والسيد رودى ويلمان سوف يحضران إلى المنزل ، حيث وصلت برقية من قبلهما صباح اليوم ".

قالت المرضة هوبكنز : " هذا هو السبب إذن ! لقد ظننت أن السيدة العجوز كانت تبدو متحمسة لأمر ما .

لقد مر وقت طويل منذ أن كانا هنا لآخر مرة ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، لقد مر شهران أو أكثر . إن السيد ويلمان شاب لطيف للغاية ، لكنه يبدو معتداً بنفسه بشدة " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" لقد رأيت الآنسة إلينور فى تاتلر منذ عدة أيام - حيث كانت تتسوق فى محلات نيوماركت مع إحدى صديقاتها".

قالت الممرضة أوبريان :

" إنها شخصية معروفة للغاية فى المجتمع الراقى ، أليس كذلك ؟ ودائما ما ترتدى ملابس أنيقة وفاخرة ، لكن هل تظنين أنها جميلة للغاية كما تبدو فى الصور ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" من الصعب أن يعرف المرء الملامح الحقيقية لفتيات هذه الأيام أسفل كل مساحيق التجميل اللاتى يضعنها ، لكننى لا أعتقد أنها تمتلك ملامح جميلة كتلك التى تميز مارى جيرارد ! " .

زمت الممرضة أوبريان شفتيها وأمالت رأسها قليلا ،

ثم قالت : " ربما تكونين على حق ، لكن مارى لا تمتلك أناقة فتيات المجتمع ! " .

قالت الممرضة هوبكنز بتأمل :

" الريش الجميل يصنع طائرًا جميل الشكل ".

" هل أصب لك قدحاً آخر من الشاى يا سيدتى ؟ " .

" شكرا لك يا عزيزتى ، أنا لا أمانع أبداً فى تناول المزيد من الشاى ".

أثناء تناول قدحى الشاى الساخنين اقتربت المرأتان قليلاً من بعضهما .

قالت الممرضة أوبريان :

" لقد حدث شيء غريب بالأمس ، لقد ذهبت فى تمام الثانية صباحا لكى أعدّل من وضعية نوم السيدة لورا ـ كما أفعل دائمًا ـ فوجدتها راقدة مستيقظة فى فراشها ، لكن لابد أنها كانت تحلم ؛ لأنه بمجرد أن دخلت إلى حجرتها ، صاحت تقول : " الصورة . يجب أن أرى الصورة " .

فقلت لها : " بالطبع يا سيدتى ، لكن ألا تنتظرين حتى الصباح ؟ " فقالت : " كلا ، أريد أن أنظر إليها الآن ، فقلت لها : " حسنا ، أين توجد تلك الصورة ؟ أتقصدين إحدى صور ولدك الراحل ـ السيد رودريك ؟ فقالت : " رود...ريك ؟ كلا . لويس " ثم بدأت تتقلب محاولة الجلوس ، فذهبت لأساعدها على الاعتدال ، حينها أخرجت مفاتيحها من صندوق صغير بجوار السرير وطلبت منى أن أفتح الدرج الثانى فى خزانة الملابس ، وهناك وجدت صورة كبيرة محاطة بإطار من الفضة ، لرجل وسيم الملامح ، وقد كتب اسم " لويس " فى ركنها السفلى . كانت الصورة عتيقة الطراز ، ولابد أنها قد

التقطت منذ زمن بعيد ، فحملت الصورة إليها ، فاحتضنتها وظلت تحدق النظر إليها لوقت طويل ، وقد أخذت تتمتم " لويس ... لويس " ثم تنهدت فى لوعة وأعطتنى الصورة وطلبت منى أن أعيدها إلى مكانها ، وعندما وضعت الصورة والتفت إليها ، وجدتها قد راحت فى نوم عميق ".

قالت الممرضة هوبكنز :

" أتظنين أنها كانت إحدى صور زوجها ؟ " .

قالت الممرضة أوبريان :

" كلا ، لم تكن كذلك ! فلقد سألت السيدة بيشوب هذا الصباح - بطريقة عابرة - عن الاسم الأول للسيد ويلمان ، فقالت لى إن اسمه الأول كان هنرى ! " .

تبادلت المرأتان النظرات . كانت الممرضة هوبكنز تمتلك أنفاً طويلاً ، وقد ارتعش طرفه ، ثم قالت بتأمل :

" لويس ... لويس . أتساءل من يكون ! لا أظننى سمعت هذا الاسم فى أنحاء المنطقة ".

قالت المرأة الأخرى منبهة إياها : " لابد أن تلك الصورة ترجع إلى سنين طويلة للغاية يا عزيزتى ".

" نعم ، بالتأكيد ، وأنا لم أنتقل إلى هذه المقاطعة سوى من سنتين فقط . أتساءل إذا ...." .

قالت الممرضة أوبريان :

" كان الصورة لرجل وسيم للغاية ، وقد بدا كأنه أحد ضباط سلاح الفرسان ! " .

احتست الممرضة هوبكنز قليلاً من الشاى وقالت :

" يا له من أمر مثير للغاية ".

قالت الممرضة أوبريان بنبرة تغمرها الرومانسية :

" ربما كانا يحبان بعضهما وهما فى مرحلة الشباب ، وقد فرق بينهما والد قاس ... " .

قالت الممرضة هوبكنز بتنهيدة عميقة :

" وربما لقى ذلك الرجل حتفه فى الحرب ... " .

٣

عندما انتهت الممرضة هوبكنز من الاستمتاع بالشاى الساخن والتخمينات العاطفية التى تبادلتها مع الممرضة أوبريان بشأن صاحب الصورة ، غادرت المنزل أخيراً ، وقد انطلقت مارى جيرارد عبر الباب الخارجي للمنزل لكى تلحق بها .

قالت مارى : " مرحبا سيدة هوبكنز ، هل يمكننى أن أرافقك السير إلى نهاية القرية ؟ " .

" بالطبع يا عزيزتى " .

قالت مارى جيرارد لاهثة :

" لابد أن أتحدث إليك ، فأنا أشعر بالقلق حيال كل تلك الأمور " .

تطلعت إليها المرأة العجوز فى تعاطف وشفقة .

كانت مارى جيرارد فتاة رائعة فى سن الحادية والعشرين أشبه بزهرة نمت فى صحراء قاحلة : كانت تمتلك عنقاً طويلاً رقيقاً ، وشعراً ذهبياً باهتاً ينسدل مموجاً فوق رأسها الدقيق بنعومة طبيعية ، وعينين زرقاوين كمياه بحر داكنة .

قالت الممرضة هوبكنز :

" ما هى المشكلة يا عزيزتى ؟ " .

" المشكلة هى أن الوقت يمر مسرعاً وأنا واقفة فى مكاني لا أفعل شيئًا ! " .

قالت الممرضة هوبكنز بجفاف :

" الوقت كفيل بأن يحدد ما ستئول إليه الأمور ".

" كلا ، لكن الأمور غير ...غير محددة . لقد كانت السيدة ويلمان في منتهى العطف والسخاء تجاهى ، وقد تحملت مصروفات تعليمى الإضافية ، لكننى أشعر أن الوقت قد حان لكى أبدأ فى كسب عيشى ، لكن ذلك يستدعى أن أتدرب على مهنة ما ".

أومأت الممرضة هوبكنز في تعاطف .

أكملت مارى تقول : " إنها لمضيعة للوقت والمال إذا لم أفعل ذلك ، ولقد حاولت أن .... أن أوضح ما أشعر به للسيدة ويلمان ، لكن الأمر صعب للغاية ، فهى لا تبدو مدركة لحقائق الأمور ، وتظل تقول إنه لا يزال هناك الكثير من الوقت ".

قالت الممرضة هوبكنز :

" تذكرى أنها امرأة مريضة ".

تضرج وجه مارى بحمرة الخجل والندم .

وقالت : " أوه ، أعلم ذلك ، وأظن أنه يجب علىّ ألا أزعجها ، لكن الأمر مقلق للغاية - ووالدى يتصرف بطريقة فى غاية ... فى غاية البشاعة بشأن هذا الأمر ، وهو يعنفنى ويسخر منى لتصوره أننى أرغب فى العيش كسيدة مجتمع ، لكننى بالفعل لا أريد الجلوس هكذا دون أن يكون لى عمل أتكسب منه ! " .

" أعلم أنك لا ترغبين بذلك ".

" والمشكلة هى أن أى نوع من التدريب المهنى يكلف مبالغ كبيرة ، ولكن لا بأس ، فأنا أتكلم الألمانية بطلاقة الآن ، وقد أستطيع أن أستفيد من ذلك ، لكننى أعتقد أن لدىّ رغبة حقيقية فى العمل كممرضة فى مستشفى ، فأنا أحب أعمال التمريض ورعاية المرضى ".

قالت الممرضة هوبكنز بجدية :

" تذكرى أن العمل بالتمريض يتطلب قوة شديدة ! " .

" أنا قوية بالفعل ، وأرغب بشدة فى العمل بالتمريض ، فقد كانت خالتى التى تعيش فى نيوزيلندا ممرضة ، ولذلك أعتقد أن الأمر يسير فى دم العائلة ".

قالت الممرضة هوبكنز : " ماذا عن العمل فى التدليك ؟ أو فى ملجأ الأيتام ؟ أنت تحبين الأطفال كثيرا ، لكننى أظن أن العمل فى التدليك يدر عائداً جيداً ".

قالت ماري بتشكك :

" إنه يتطلب تدريباً مكلفاً ، أليس كذلك ؟ لقد كنت أتمنى أن .... لكن ذلك طمع شديد من جانبي ... لقد فعلت الكثير من أجلي بالفعل ".

" أتقصدين السيدة ويلمان ؟ هذا هراء ، إذا أردت رأيي ، أعتقد أنها مدينة لك بذلك ، فهي التي قدمت لك ذلك التعليم المتميز ، لكنه ليس تعليماً كافياً لكسب العيش ، ألا تفكرين في العمل بالتدريس ؟ " .

" أنا لست ذكية بما يكفي ".

قالت الممرضة هوبكنز :

" هناك أنواع كثيرة من الذكاء ، وإذا أردت نصيحتي يا ماري ، فإنني أرى أن تلزمي الصبر في الوقت الراهن ، فأنا أعتقد ـ كما قلت مسبقا ـ أن السيدة ويلمان مدينة لك بالمساعدة في وضعك على أول الطريق نحو كسب لقمة العيش ، وليس لديّ شك في أنها تنتوي أن تفعل ذلك ، لكن الحقيقة المؤكدة هي أنها قد تعلقت بك كثيراً ولا تريد أن تفارقك ".

قالت ماري وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة :

" أوه ، أتظنين حقاً أن هذه هي الحقيقة ؟ " .

" ليس لديّ ذرة من الشك في ذلك ! فها هي أمام عينيك ـ امرأة عجوز مسكينة ، عاجزة إلى حد كبير ، مشلولة في أحد جانبيها ، وليس لديها شيء أو شخص يسليها ، ولابد أن وجود فتاة شابة جميلة ورقيقة مثلك

فى أرجاء المنزل يعنى لها الكثير ، فأنت تمتازين بأسلوب لطيف للغاية فى التعامل مع المرضى ".

قالت مارى بصوت خافت :

" إذا كنت تعتقدين ذلك حقاً ، فإن ذلك يجعلنى أشعر بتحسن كبير .... كما أن السيدة ويلمان امرأة رائعة للغاية ، وأنا متعلقة بها بشدة ! لقد كان تعاملنى معاملة جيدة منذ صغرى ، وأنا مستعدة لأن أفعل كل ما أستطيع من أجلها ! " .

قالت الممرضة هوبكنز بجفاء :

" إذن فأفضل ما يمكنك عمله هو أن تظلى فى مكانك وأن تتوقفى عن القلق ، فإن الأمر لن يطول على أى حال " .

قالت مارى : " هل تقصدين أن .... ؟ " .

اتسعت عينا مارى وأطل منهما الخوف .

أومأت ممرضة المقاطعة برأسها إيجاباً .

وقالت : " لقد تعافت السيدة من السكتة الأولى بشكل جيد ، لكن ذلك لن يطول ، فسرعان ما ستصيبها سكتة ثانية ثم ثالثة . إننى أعلم هذه الحالات جيدًا ، لذلك عليك بالصبر يا بنيتى ، وأفضل ما يمكنك فعله الآن هو أن تجعلى الأيام الأخيرة للسيدة العجوز تمر بسعادة وهناء ، واعلمى أن وقت الانشغال بمستقبلك سيحين قريباً " .

قالت مارى :

" أنت لطيفة للغاية " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" ها هو أبوك قد أتى من داخل الكوخ ـ ولا أظن أن شكله يوحى بأنه فى حالة مزاجية جيدة ! " .

كانت المرأتان قد اقتربتا من البوابة الحديدية ، وفوق الدرجات المؤدية إلى داخل الكوخ وقف رجل كهل مقوس الظهر كان يجر قدميه جراً وهو يهبط الدرجتين الأخيرتين .

قالت الممرضة هوبكنز بابتهاج :

" صباح الخير يا سيد جيرارد ".

قال إبراهام جيرارد بغلظة :

" آه ".

قالت الممرضة هوبكنز :

" إن طقس اليوم بديع للغاية ".

رد إبراهام جيرارد بحدة :

" ربما بالنسبة لك ، لكننى لا أراه كذلك ، فآلام الظهر قد صارت أشد قسوة ".

قالت الممرضة هوبكنز بمرح :

" لابد أن ذلك بسبب موجة البرد التى سادت خلال الأسبوع الماضى ، لكن هذا الطقس الحار والجاف سرعان ما سيزيل آلام ظهرك ".

بدا أن أسلوبها العملى فى الحديث قد ضايق الرجل الكهل .

فقال فى امتعاض :

" الممرضات هن الممرضات ... كلهن على نفس الشاكلة ... يتحدثن بكل مرح وابتهاج عن آلام الآخرين ، دون حتى أن يبدين اهتمامًا حقيقيًا بهم ! وها هى مارى تتحدث عن رغبتها فى أن تصبح ممرضة أيضاً ، ولكم ظننت أنها ستصبح شيئاً أفضل من ذلك ، خاصة مع إتقانها للفرنسية والألمانية وتعليمها الرفيع وسفرها للتعلم بالخارج ".

قالت مارى بحدة :

" ستكون وظيفة ممرضة بمستشفى كافية جدا بالنسبة لى ".

" نعم ، وسرعان ما ستجلسين دون أن تفعلى أى شيء ، أليس كذلك ؟ تتهادين فى مشيتك بذلك الأسلوب الراقى والأخلاق الرفيعة وطرق فتيات المجتمع اللاتى لا يجدن فعل أى شيء ، ودعينى أقل لك إن كل ما ترغبين به هو الكسل والخمول أيتها الفتاة ".

قالت مارى محتجة وقد أغرق الدمع عينيها :

" هذا غير صحيح يا أبى ، ولا حق لك فى أن تقول عنى مثل هذا الكلام ".

تدخلت الممرضة هوبكنز بأسلوب مازح تخالطه مسحة من الحزم والتصميم وقالت :

" إنك متأثر بالطقس السيئ هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ أنت بالتأكيد لا تقصد ما تقول يا جيرارد ، فإن مارى فتاة لطيفة وابنة مطيعة لك ".

نظر جيرارد تجاه ابنته بطريقة تكاد تنطق بحقد دفين

وقال : " هذه ليست ابنتى ... لم تعد كذلك الآن ـ بلغتها الفرنسية والتاريخ الذى درسته وحديثها المتشدق المتعالى ... تباً لكل ذلك ".

ثم استدار عائداً إلى داخل الكوخ مرة ثانية .

قالت مارى والدموع لا تزال تترقرق فى عينيها :

" هل رأيت الآن يا سيدتى كم أن الأمر شاق بالنسبة لى ؟ إنه غير عقلانى ، ولم يحبنى يوماً ـ حتى عندما كنت طفلة صغيرة ، ولقد كانت والدتى دائما ما تدافع عنى ".

قالت الممرضة هوبكنز بلطف :

" لا تقلقى يا عزيزتى ، لقد خلق الله تلك الظروف الصعبة لكى يختبر إيماننا وصبرنا ! يا إلهى ، لقد تأخرت ولابد أن أسرع ، فلدى جولة صباحية شاقة وطويلة ".

وعندما وقفت مارى تتطلع إلى ذلك الجسم الذى يبتعد بنشاط وحيوية ، أخذت تفكر فى يأس أنه لا يوجد من يرق قلبه لحالها أو يستطيع مساعدتها ، فلقد اكتفت الممرضة هوبكنز ـ رغم كل طيبتها ولطفها ـ بأن أخرجت

من جعبتها بعض النصائح التافهة وقدمتها إليها بطريقة غير معتادة .

تساءلت ماري في إحباط :

" ترى ، ماذا عليَّ أن أفعل ؟ " .

الفصل ٢

استلقت السيدة لورا ويلمان فوق المساند التي وضعت بعناية شديدة على فراشها ، وبدا تنفسها ثقيلاً ، لكنها لم تكن نائمة . كانت عيناها ـ تلك العينان اللتان ما زالتا تحتفظان بغموض وزرقة عيني ابنة أخيها إلينور ـ تتطلعان إلى السقف في صمت . كانت السيدة ويلمان امرأة ضخمة الجسد ، ثقيلة الوزن ، ذات ملامح جميلة وشخصية حادة وحازمة ، وقد بدا التصميم والكبرياء واضحين للغاية في ملامح وجهها .

نزلت بعينيها من سقف الحجرة واستقرت فوق ذلك الجسد الذي يجلس بجانب النافذة ، وصارت نظراتها تحمل معاني العطف ، وقليلاً من الحزن .

وأخيرا قالت :

" ماري ... " .

استدارت الفتاة بسرعة .

" أوه ، إنك مستيقظة يا سيدة ويلمان " .

قالت لورا ويلمان :

" نعم ، لقد استيقظت منذ وقت طويل ... " .

" أوه ، لم أدرك ذلك ، وإلا لكنت قد ... " .

قاطعتها السيدة ويلمان :

" لا عليك يا بنيتي ، فقد كنت أفكر ... كنت أفكر فى أشياء كثيرة ".

" مثل ماذا يا سيدتى ؟ " .

كانت نظرة التعاطف التى ارتسمت على وجه مارى ، ونبرة الاهتمام فى صوتها كفيلتين برسم نظرة تفيض باللطف والحنو على وجه المرأة العجوز ، والتى سرعان ما قالت برقة :

" لكم أنا متعلقة بك يا عزيزتى ، ولا أظن أن أحداً يعاملنى بنفس اللطف والاهتمام اللذين أحظى بهما منك " .

" بالله عليك يا سيدتى ... إنما هو أنت من يعاملنى باللطف والحنان ، ولست أدرى ماذا كنت لأفعل لولا رعايتك وطيبتك معى ...لقد فعلت كل شىء من أجلى " .

أخذت السيدة المريضة تتحرك فى فراشها بقلق ، وقد ارتجفت ذراعها اليمنى ... أما اليسرى فقد ظلت ساكنة لا حياة فيها ، وقالت : " لا أدرى ... لا أدرى ، أنا واثقة أن .... أن المرء يحاول دائما أن يفعل أفضل ما يستطيع فعله ، لكنه من العسير للغاية أن نعرف ما هو

الأفضل .... وما هو الأصح ، ولقد كنت دوما شديدة الثقة فى نفسى ... " .

قالت مارى جيرارد :

" آوه ، كلا ، أنا على يقين من أنك دائماً تعرفين ما هو أفضل وأصح ما يجب عمله ".

لكن لورا ويلمان هزت رأسها نفياً وقالت :

" كلا ... كلا . لقد عانيت دوما من خطيئة وحيدة يا مارى ... لقد كنت دائما متكبرة ....والكبرياء شر ، وسم يسرى فى دماء هذه العائلة ، وأراه بعينى جزءاً من سمات إلينور أيضا ".

قالت مارى بسرعة :

" سيكون شيئاً جميلاً أن تحظى برفقة الآنسة إلينور والسيد رودريك هنا ، وهو أمر كفيل بإدخال السرور على قلبك كثيرا ، حيث إنه قد مضى وقت طويل منذ آخر زيارة لهما ".

قالت السيدة ويلمان برقة :

" إنهما طفلان طيبان ... طفلان طيبان ، وهما متعلقان بى للغاية ـ كلاهما . ولقد علمت دائما أن كل ما على فعله هو أن أرسل فى طلبهما ، وسوف يحضران على الفور ، لكننى لا أريد أن أفعل ذلك كثيرا ، فهما صغيران وسعيدان ـ والعالم يفتح ذراعيه لهما ، ولا يجب أن يقتربا كثيرا من الموت والألم قبل الأوان ".

قالت مارى : " أنا واثقة أنهما لا ينظران للأمر بتلك النظرة يا سيدتى ".

أكملت السيدة حديثها وبدا أنها تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث إلى الفتاة :

" لقد تمنيت دوما أن يتزوجا ، لكننى حاولت جاهدة ألا أقترح عليهما شيئا كهذا ، فالشباب يميلون إلى المعارضة كثيرا ، كنت أخشى أن اقتراحى لأمر كهذا كفيل بأن ينفرهما منه ! كان لدىّ إحساس ـ عندما كانا أطفالاً صغارًا ـ أن قلب إلينور قد تعلّق بحب رودى بالفعل ، لكننى لم أكن متأكدة تماما من مشاعره تجاهها ، فهو مخلوق غريب ، مثلما كان عمه هنرى تماماً... متحفظ وصعب الإرضاء .... نعم ، مثلما كان هنرى .... " .

صمتت للحظات ، وقد سرحت أفكارها فى زوجها الراحل ...

وأخذت تتمتم :

" منذ زمن بعيد ... زمن بعيد جداً ... لم يمض على زواجنا سوى خمس سنين وبعدها توفى هنرى متأثرا بمرض رئوى ... كنا سعداء للغاية ـ نعم كنا سعداء جداً ، لكن تلك السعادة بدت غير واقعية بشكل أو بآخر ، فقد كنت شابة غير ناضجة وأميل إلى الطيش والاندفاع بشكل غريب ـ وكان رأسى مليئاً بأفكار رومانسية ساذجة ... دون فهم لواقع الحياة ... " .

تمتمت مارى :

" لابد أنك كنت وحيدة للغاية بعد ذلك ".

" بعد ذلك ؟ أوه ، نعم ـ كنت أشعر بوحدة فظيعة . لقد كنت فى السادسة والعشرين ... والآن قد تخطيت الستين . إنه وقت طويل يا عزيزتى .... وقت طويل للغاية .... " ، صمتت للحظة ثم قالت بتنهيدة يأس مفاجئة : " والآن يأتى هذا ! " .

" أتقصدين مرضك ؟ " .

" نعم . إن الشلل الذى يعقب السكتة الدماغية هو الرعب الذى عشت حياتى أخشاه ... وكذلك تلك الإهانة التى تصاحبه ! أن تحتاجى إلى من يغسلك ويعتنى بك كأنك طفل ... أن تكونى عاجزة عن أن تفعلى أى شيء بنفسك . إن هذه الأمور تصيبنى بالجنون . إن المرضة أوبريان ذات أخلاق جيدة ـ وأنا أشهد لها بذلك ، فهى لا تغضب إذا صحت فى وجهها وكذلك فهى ليست شديدة الغباء مثل معظم المرضات ، لكن وجودك معى يصنع اختلافاً كبيراً فى حياتى يا مارى ".

احمر وجه الفتاة خجلاً وقالت : أحقا هذا ؟ أنا ... أنا مسرورة لسماع ذلك يا سيدتى ".

قالت لورا ويلمان بفطنة :

" لقد كنت تشعرين بالقلق ، أليس كذلك ؟ أقصد بشأن المستقبل . اتركى لى ذلك الأمر يا عزيزتى ، وسوف أعتنى بالأمر بحيث أضمن لك ما يكفيك لكى تعتمدى

على نفسك وتجدى الوظيفة التى تستحقينها ، لكن أتمنى أن تصبرى قليلاً ـ فإن وجودك معى يعنى لى الكثير ".

" أوه يا سيدتى ، بالطبع ...بالطبع ! أنا ما كنت لأتركك من أجل هذا العالم بأكمله .... طالما أنك ترغبين فى وجودى ... " .

خرج صوت السيدة ويلمان عميقاً وممتلئاً بالمشاعر بطريقة غير معتادة وهى تقول : " بالطبع أنا أرغب فى وجودك ، فأنت .... فأنت مثل ابنة لى يا مارى ، ولقد شاهدتك هنا فى ضيعة هانتربيرى منذ أن كنت طفلة تحبو وحتى أصبحت فتاة جميلة ... وأنا فخورة بك يا بنيتى ، وأتمنى أن أكون قد فعلت ما فيه الخير لك ".

قالت مارى بسرعة :

" إذا كنت تقصدين اعتناءك الدائم بى ومنحى تعليماً عالياً ـ على الأقل أعلى من مستواى الاجتماعى ـ وتظنين أن ذلك قد جعلنى أشعر بعدم الرضا أو يضع فى رأسى ما يسميه والدى بأفكار سيدات المجتمع ، فهذا غير صحيح على الإطلاق ، والحقيقة أننى ممتنة للغاية لكل ما فعلته من أجلى ، وإن كنت أبدو متلهفة على البدء فى كسب العيش بمفردى ، فإن ذلك يرجع فقط إلى أننى أشعر أنه من الواجب أن ... أقصد أنه لا يجب أن أجلس هكذا دون أن أفعل شيئا بعد كل ما فعلته من أجلى ، فأنا لا أحب أن يظن الناس أننى أتطفل عليك أو أستغل إحسانك ".

قالت لورا ويلمان وقد احتدت نبرتها فجأة :

" إذن فهذا ما يملأ به جيرارد رأسك ؟ لا تلتفتى إلى ما يقوله والدك يا مارى ، فلم يكن - ولن يكون - هناك أى شك فى استغلالك لى أو تطفلك علىّ ، وإنما أنا أطلب منك أن تظلى معى وقتا أطول فقط لمصلحتى أنا ، وقريبا سوف ينتهى كل شيء .... فلو أنهم يتصرفون بشكل سليم ، لكان الأولى بهم أن ينهوا حياتى الآن - ولا داعى لكل هذه العقاقير والممرضات والأطباء وإطالة تعذيبى دون فائدة ".

" أوه ، كلا يا سيدتى . إن الدكتور لورد يقول إنك ستعيشين لسنوات على الأرجح ".

" شكرا للطفك ، لكننى لست متلهفة على العيش فى هذه الحالة ، ولقد أخبرته منذ أيام أن المعتاد فى أى دولة متحضرة هو أن المريض يُسر إلى طبيبه الخاص برغبته فى إنهاء حياته ، فيقوم الطبيب بذلك مستخدما عقاراً لا يسبب للمريض أى ألم ، وقلت له : لو أن لديك قدرا من الشجاعة أيها الطبيب ، لكنت قد أنهيت حياتى الآن . ! " .

صاحت مارى :

" أوه ، وماذا كان رده ؟ " .

" كل ما فعله ذلك الشاب عديم الاحترام هو أنه قد ابتسم فى وجهى ، وقال إنه ليس مستعداً لتعريض رقبته لحبل المشنقة من أجلى ، ثم قال : "إذا أوصيت لى بكل

أموالك يا سيدة ويلمان ، فقد يختلف قرارى بالطبع " .
إنه شاب وقح ومتهور ، لكننى أستلطفه كثيرا ، حتى إن زياراته تفيدنى أكثر مما تفيدنى أدويته ".

قالت مارى : " نعم ، إنه شاب لطيف للغاية . إن المرضة أوبريان معجبة به بشدة وكذلك المرضة هوبكنز ".

قالت السيدة ويلمان :

" الأولى بالمرضة هوبكنز أن تكون أكثر تعقلاً فى سنها هذه ، أما بالنسبة للممرضة أوبريان ، فهى ترسم على وجهها ابتسامة متكلفة وهى تناديه : " سيدى الدكتور " ثم تتنهد بلوعة كلما اقترب منها ".

" مسكينة هى المرضة أوبريان ".

قالت السيدة ويلمان مؤيدة :

" إنها فتاة طيبة ، لكن المرضات يزعجننى بشكل عام ؛ فهن دائما ما يعتقدن أنك قد تفضلين تناول فنجان من " الشاى الساخن " فى الخامسة صباحاً ! " صمتت السيدة ويلمان للحظة ثم أردفت : " ما هذا الصوت ؟ أهذا صوت سيارة ؟ " .

نظرت مارى من النافذة ثم ردت قائلة :

" نعم ، إنها سيارة . لقد وصلت الآنسة إلينور والسيد رودريك ".

٢

قالت السيدة ويلمان مخاطبة ابنة أخيها :

" أنا مسرورة للغاية يا إلينور ، بشأن خطبتك أنت وورودى ".

ابتسمت إليها إلينور .

" كنت أعلم أن ذلك سوف يسعدك يا عمتى " .

قالت المرأة العجوز بعد لحظة من التردد :

" أنت تحبينه يا إلينور ، أليس كذلك ؟ " .

ارتفع حاجبا إلينور الرفيعان وقالت :

" بالطبع أحبه ".

قالت لورا ويلمان بسرعة :

" لا تؤاخذينى يا عزيزتى ، فأنت ـ كما تعلمين ـ متحفظة للغاية ، ومن الصعب على المرء أن يعرف بما تفكرين أو كيف تشعرين . عندما كنتما أصغر سناً ، اعتقدت أنك قد بدأت تهتمين لأمر رودى ... أكثر من اللازم .... " .

ارتفع حاجبا إلينور الرفيعان مجددا .

ثم قالت متسائلة : " أكثر من اللازم ؟ " .

أومأت المرأة العجوز برأسها إيجابًا .

" نعم ، فإنه ليس من الحكمة أن تهتم الفتاة بأى شخص بشكل أزيد من اللازم ، وأحيانا ترتكب الفتيات

الصغيرات هذا الخطأ .... ولقد كنت مسرورة عندما ذهبت إلى ألمانيا لاستكمال تعليمك ، بعد ذلك ـ وعندما عدت من هناك ـ بدا أنك تعاملينه بفتور شديد ... ولقد أحزننى ذلك أيضًا ! أعلم أننى امرأة عجوز متعبة وصعبة الإرضاء! ولكننى كنت دائمًا أظن أنك تمتلكين طبيعة انفعالية ـ وذلك النوع من الطباع الحادة أمر متوارث فى عائلتنا ، وهى سمات لا تجلب السعادة لأصحابها ... لكن ـ كما قلت من قبل ـ عندما عدت من الخارج غير مبالية بأمر رودى ، أصابنى الحزن لذلك ؛ لأننى كنت دائمًا أتمنى أن يجمع الحب بينكما ، والآن وقد حدث ذلك ، صارت كل الأمور على ما يرام ! لكن هل حقاً تحبين رودى ؟ " .

قالت إلينور بجدية :

" أنا أحبه بما يكفي ولكن ليس بطريقة زائدة على الحد ".

أومأت السيدة ويلمان برأسها موافقة .

" إذن ، سوف تكونين سعيدة ، فالأشخاص مثل رودى يحتاجون إلى الحب ، لكنهم لا يحتاجون إلى مشاعر عنيفة ، وكذلك فإنهم ينفرون كثيرا من الإحساس بالتملك ".

قالت إلينور بعاطفة قوية :

" يبدو أنك تعرفين رودى جيداً ! " .

قالت السيدة ويلمان :

" لو أن رودى يهتم بك بدرجة أكبر ولو قليلاً من اهتمامك به ، فإن زواجكما سيسير بشكل جيد ".

قالت إلينور بحدة :

" وكأنك ترددين ما تقوله الكاتبة أجاثا في عمود مشاكل العشاق : اجعلى خطيبك يخمن ! وإياك أن تجعليه يتأكد من مشاعرك نحوه ! " .

ردت لورا ويلمان بحدة :

" هل أنت تعيسة يا بنيتى ؟ أهناك شىء ما ؟ " .

" كلا ، كلا ، لا شىء ".

قالت لورا ويلمان :

" إنك تظنين أننى أنطق بكلام تافه رخيص ، أليس كذلك ؟ عزيزتى ، أنت صغيرة وحساسة ، لكنى يؤسفنى أن أقول لك إن الحياة رخيصة وتافهة بالفعل .... " .

قالت إلينور بمسحة من المرارة :

" أعتقد أنها كذلك بالفعل ".

قالت لورا ويلمان :

" بنيتى ... إنك تبدين تعيسة ؟ ما الخطب ؟ " .

" لاشىء .... لاشىء على الإطلاق ". نهضت إلينور من مجلسها ، واتجهت صوب النافذة ، ثم استدارت نصف استدارة ، وقالت :

" عمتى لورا ، أخبرينى بصدق ، هل تعتقدين أن الحب شيء يجلب السعادة بحق ؟ " .

بدت الجدية على وجه السيدة ويلمان .

وقالت : " بالشكل الذى تقصدينه يا إلينور ... كلا ، ربما لا يجلب الحب السعادة ... إن ولع المرء واهتمامه العميق بإنسان آخر عادة ما يجلب الحزن وليس البهجة ؛ لكن - على أى حال - لا يستطيع المرء أن يعيش دون هذه التجربة ، فكل شخص لم يجرب حلاوة الحب ومرارته ، هو شخص بالتأكيد لم يعش ... " .

أومأت الفتاة موافقة .

وقالت :

" نعم .... إنك تفهمين ما أقصد ، ولابد أنك قد عرفت كيف يكون الإحساس بالحب وعذابه ... " .

استدارت إلينور فجأة ، وبدا فى عينيها نظرة تساؤل :

" عمتى لورا ... " .

انفتح الباب فى تلك اللحظة ودلفت إلى الداخل الممرضة أوبريان بشعرها الأحمر المميز .

قالت الممرضة بلهجة مرحة :

" سيدتى ، لقد حضر الطبيب للاطمئنان عليك " .

٣

كان دكتور لورد رجلاً فى الثانية والثلاثين من العمر ، أشقر الشعر ، يمتلك وجهًا لطيفاً يملؤه النمش وفكاً مربعاً مميزاً ، إلى جانب عينين زرقاوين ثاقبتين .

قال الدكتور لورد : " صباح الخير سيدة ويلمان ".

" صباح الخير يا دكتور لورد . هذه ابنة أخى ، إلينور كارليل ".

بدت على وجه الدكتور لورد إمارات إعجاب شديد الوضوح وقال مُرحباً : " سعدت بمقابلتك " ، ثم صافح اليد التى مدتها إلينور نحوه برقة شديدة ، كأنه كان يخشى أن تنكسر فى يده .

أكملت السيدة ويلمان حديثها :

" لقد حضرت إلينور ومعها ابن شقيق زوجى من أجل أن يؤانسانى قليلاً ".

قال الدكتور لورد : " رائع ! هذا هو ما تحتاجين إليه بالفعل ، وأنا على يقين أن زيارتهما سوف تفيدك كثيرا يا سيدتى ".

كان الدكتور لورد لا يزال يتطلع إلى إلينور بنظرة إعجاب واضحة .

قالت إلينور وهى تتحرك ناحية الباب :

" هل باستطاعتى التحدث إليك قليلاً قبل أن تغادر يا دكتور لورد ؟ " .

" أوه ...ماذا ... نعم ، بالتأكيد ".

خرجت إلينور ، مغلقة الباب خلفها ، ثم اقترب الدكتور لورد من الفراش ، وقد تحركت الممرضة أوبريان حتى وقفت خلفه تمامًا .

قالت السيدة ويلمان وهى تغمز بعينيها :

" هل ستقوم بكل الحيل المعتادة يا دكتور : قياس النبض ، والتنفس ، ودرجة الحرارة ؟ كم أنتم مخادعون يا معشر الأطباء ! " .

قالت الممرضة أوبريان بتنهيدة طويلة :

" أوه يا سيدتى ، يا له من كلام قاسٍ ذلك الذى توجهينه إلى الدكتور ! " .

قال الدكتور لورد وهو يغمز بعينيه :

" إن السيدة ويلمان تستطيع أن ترى ما بداخلى بسهولة أيتها الممرضة ، لكننى ، على أى حال ، مضطر للقيام بكل واجباتى كما تعلمين يا سيدة ويلمان . ومشكلتى هى أننى لم أتعلم الأسلوب المناسب للوقوف بجوار سرير المرضى المشاكسين ".

" إن أسلوبك المهنى لا غبار عليه ، بل إنك تبدو فخور به للغاية ".

ضحك الدكتور وقال معلقاً :

" هذا ما تقولينه أنت ".

بعد طرح وإجابة الأسئلة الروتينية المعتادة ، استرخى الدكتور لورد فى مقعده ، ونظر إلى مريضته مبتسماً .

قال الدكتور : " حسنا ، إن صحتك تتحسن بشكل رائع للغاية ".

قالت لورا ويلمان : " إذن ، هل سأتمكن من المشى على قدمى فى أنحاء المنزل فى غضون أسابيع قليلة ؟ " .

" كلا ، ليس بهذه السرعة ".

" كلا ، بالفعل . أيها المخادع ! ما هى فائدة العيش طريحة الفراش هكذا ، وأن يعتنى بى الآخرون كأننى طفل رضيع ؟ " .

قالت الدكتور لورد :

" ما هى الفائدة من الحياة بأى حال ؟ هذا هو السؤال الحقيقى ، هل قرأت يوماً عن تلك الزنزانة الحديدية التى كانوا يستخدمونها فى العصور الوسطى ؟ إنك ما كنت لتستطيعى الوقوف أو الجلوس أو حتى الرقاد بداخلها ، وقد تتصورين أن أى شخص يحكم عليه بالسجن فى تلك الزنزانة سوف يلقى حتفه فى غضون أسابيع قليلة ، لكن هذا غير صحيح على الإطلاق ، فقد أمضى رجل ستة عشر عاما فى إحدى تلك الزنزانات ، ثم أطلق سراحه ، وعاش حتى أرذل العمر ".

قالت لورا ويلمان :

" وما هو المقصود وراء تلك القصة ؟ " .

قال الدكتور لورد :

" المقصود هو أن المرء لديه غريزة تدفعه للرغبة فى الحياة ، فالمرء لا يعيش لمجرد أن عقله يوافق على الحياة ، فالأشخاص الذين نقول عنهم إن " الموت خير لهم " لا يريدون أن يموتوا ، والأشخاص الذين يملكون كل ما يجعل الحياة تستحق العيش يتركون أنفسهم فريسة لليأس والموت ؛ لأنهم ليس لديهم الطاقة والعزيمة لكى يستمروا فى مصارعة الحياة ".

" أكمل ... " .

" ليس هناك المزيد ليقال ، وكل ما أعنيه هو أنك من هؤلاء الذين يرغبون حقا فى أن يعيشوا ـ مهما كان ما تقولينه عن حياتك ـ وإذا كان جسدك يريد أن يعيش أيضا ، فلا توجد فائدة فى أن يظل عقلك مشغولا بالموت هكذا ".

قالت السيدة ويلمان بتغيير مفاجئ لدفة الحديث :

" هل تناسبك الحياة فى مقاطعتنا البسيطة ؟ " .

أجاب الدكتور لورد مبتسماً :

" نعم ، إنها تناسبنى جيدا ".

" أليست حياة مضجرة لشاب مثلك ؟ ألا تريد أن تتخصص فى فرع من فروع الطب ؟ ألا تجد أن وظيفة ممارس عام بإحدى المقاطعات مملة إلى حد ما ؟ " .

هز الدكتور لورد رأسه نفياً .

وقال : " كلا ، إننى أحب عملى ، وأحب الناس ، وأفضل التعامل مع الأمراض اليومية العادية ، ولست

أحلم باكتشاف البكتيريا المسببة لمرض مجهول ، وإنما أرغب فى معالجة الحصبة والجدرى وبقية هذه الأمراض ، وأحب أن أرى كيف تستجيب الأجسام المختلفة لها . وأود أن أرى إذا كنت أستطيع أن أحسّن العلاجات المتاحة لها . إن مشكلتى هى أننى لا أمتلك أى طموح ، وذلك ما يجعلنى أعتقد أننى سأظل هنا حتى يملأ الشيب رأسى ، ويبدأ الناس فى التحدث عنى قائلين : " بالطبع قد تعودنا على الدكتور لورد ، وهو رجل عجوز ولطيف : لكن أساليب علاجه صارت عتيقة الطراز ، وربما يكون من الأفضل أن نستدعى طبيباً شاباً ممن يستخدمون أحدث أساليب العلاج .... " .

قالت السيدة ويلمان : " حسناً ، يبدو أنك قد خططت لحياتك بالكامل ! " .

وقف الدكتور لورد على قدميه .

وقال : " حسناً ، لابد أن أذهب الآن ".

قالت السيدة ويلمان :

" أظن أن ابنة أخى تود التحدث إليك ، وبالمناسبة ، ما رأيك فيها ؟ أظنك لم ترها هنا من قبل ".

احمر وجه الدكتور لورد فجأة ، وارتفع حاجباه فى دهشة ، ثم قال :

" أنا ... أوه ! إنها جميلة للغاية ، أليس كذلك ؟ وهى أيضا .... ذكية وتبدو ـ حسبما أعتقد ـ ذات شخصية مميزة ".

بدا كأن السيدة ويلمان تشعر بذلك التغير الذى أصابه ، حتى إنها قالت فى نفسها :

" كم أنه صغير السن بالفعل ... " .

ثم قالت بصوت مسموع :

" ينبغى لك أن تتزوج ".

٤

كانت قدما رودى قد أخذتاه ناحية الحديقة ، فعبر تلك المساحة الواسعة من العشب الأخضر ، مروراً بالمشى المرصوف ثم دخل إلى حديقة الخضراوات المحاطة بسور خشبى . كانت الحديقة تحظى بعناية جيدة وتمتلئ بأنواع الخضراوات المختلفة ، كان رودى يتساءل فى نفسه عما إذا كان سيعيش هو وإلينور فى هانتربيرى يوما ما ، وقرر أن هذا شىء محتمل الحدوث ، إنه بالفعل يود أن يعيشا هناك بعد الزواج ، فلقد كان رودى ممن يحبون حياة الريف وهدوءه ، لكنه كان متشككاً بشأن إلينور ، إذ لعلها تفضل الحياة فى لندن ....

أخذ يفكر كم أنه من الصعب على المرء أن يعرف ماذا يمثل فى حياة إلينور ، فهى لم تكن ممن يظهرون الكثير من مشاعرهم وأفكارهم ، وكان يعجبه ذلك فيها ... حيث كان رودى يكره أولئك الأشخاص الذين يفضون إليك

بأفكارهم ومشاعرهم ـ أولئك الذين يسلّمون جدلاً أنك تود أن تعلم مكنون صدورهم وآلية تفكيرهم ، كان رودى يرى أن التحفظ فى إظهار المشاعر وإبداء الآراء أكثر جاذبية وإثارة .

كانت إلينور من وجهة نظره إنسانة كاملة الأوصاف ، ولم يكن هناك ما يعيب أو يخجل بشأنها ، حيث كانت ملامحها متعة للعين ، وكان حديثها إمتاعاً للأذن وكانت رفقتها سحراً لا يمله القلب .

أخذ رودى يتحدث إلى نفسه :

" إننى محظوظ للغاية إذ حظيت بامرأة كهذه ، ولكم أتعجب ماذا يعجبها فى شخص مثلى ".

والحقيقة أن رودريك ويلمان ـ على الرغم من تحفظه وصعوبة إرضائه ـ لم يكن شخصًا مغرورًا ، وكان يرى أن موافقة إلينور على الزواج منه أمر فى غاية الغرابة .

شاهد رودى شريط الحياة يمتد فى لطف ودعة أمام عينيه ، كان يعرف تماما أين يقف ؛ وكانت تلك نعمة تستحق الشكر . كان من المفترض أن يتم زواجه من إلينور فى وقت قريب ، هذا فى حالة موافقة إلينور على إتمام الزواج قريبا ؛ حيث إنها قد ترغب فى تأجيل الزفاف قليلاً ، وعليه ألا يستعجلها . كان يعلم أنهما لن يعيشا فى راحة مالية فى بداية الأمر ، لكن الأمر لن يصل إلى وضع يستحق القلق ، وكان يتمنى من قلبه أن تطول حياة العمة لورا ، حيث إنها كانت عزيزة إلى قلبه وكانت دائمًا

ما تعامله بلطف ، وتستقبله فى منزلها أثناء الأعياد ، وكانت دائمًا ما تهتم بمعرفة أحواله .

تخطى عقله بسرعة فكرة موت العمة لورا (كان عقله عادة ما يتخطى أى تجسيد لأفكار مزعجة) ، حيث لم يكن رودى يحب تخيل الأشياء المزعجة بشكل واضح .... لكن ـ بعد ... بعد موتها ـ حسناً ، سيكون من اللطيف جدا أن يعيش فى ضيعة هانتربيرى ، وخاصة أنه سيكون هناك الكثير من المال للمحافظة على المكان . أخذ يتساءل كيف ولمن ستترك العمة لورا ثروتها ، ليس لأن الأمر يمثل أهمية ـ رغم أن وجود الثروة فى يد الزوج أو الزوجة قد يمثل فارقاً بالنسبة لبعض النساء ـ لكن ليس بالنسبة إلى إلينور بالتأكيد ، حيث كانت تمتلك ذوقاً ولباقة ، ولم تكن تهتم كثيرا بالمال حتى تتصارع من أجله .

أخذ يفكر : " كلا ، ليس هناك ما يستحق القلق ... مهما حدث ! " .

خرج رودى من الحديقة المسوّرة عبر البوابة الموجودة فى نهايتها ، ومن هناك أخذ يتجول فى قلب الغابة الصغيرة والتى كانت تمتلئ بأزهار النرجس البرى النامية. لم تكن زهور النرجس قد اكتمل نموها فى هذا الوقت من السنة بعد ، لكن بدا الضوء الأخضر بديعاً للغاية ، خاصة عندما يتسلل شعاع الشمس عبر أغصان الأشجار الكثيفة .

وللحظة هاجمه إحساس غريب بالضيق ، متخطيا حالة السكينة التى كان يمر بها ، ثم أخذ يناجى نفسه قائلا : " هناك شىء ما ... شيء غائب عنى ... شىء أريده ... أنا أريد ... أريد ... " .

ومع الضوء الأصفر الممتزج بالخضرة ، ونسمات الهواء الرقيقة ، كان هناك نبض متسارع ، وفوران فى الدم ، وشعور مفاجئ بالسآمة .

وفجأة خرجت فتاة من بين الأشجار وبدت متجهة إليه ـ فتاة ذات شعر أصفر باهت ، وبشرة متوردة .

قال رودى لنفسه : " يا له من جمال ... يا له من جمال لا يوصف ".

أحس رودى أن شيئا ما قد أمسك بتلابيبه ؛ فوقف مكانه دون حراك ، وكأنه قد تجمد فى موضعه ، وقد شعر أن العالم يدور ، ينقلب رأسا على عقب ، يتخبط داخل دوامة متألقة من الجنون المستحيل !

توقفت الفتاة فجأة ، ثم تحركت تجاهه مجددا ، حتى وصلت إلى ذلك الموضع الذى يقف فيه رودى ، مشدوها ، مفتوح العينين والفم .

قالت الفتاة فى مسحة من التردد :

" ألا تتذكرنى يا سيد رودريك ؟ بالطبع لقد مر وقت طويل ، أنا مارى جيرارد التى تسكن الكوخ ".

قال رودى :

" أوه ... أنت مارى جيرارد ؟ " .

قالت الفتاة : " نعم ".
ثم أكملت فى خجل :
" لقد تغيرت كثيرا منذ آخر مرة رأيتنى فيها بالطبع ".
قال رودى : " نعم ، لقد تغيرت . ما .... ما كنت لأستطيع التعرف عليك ".
وقف رودى محدقاً النظر إليها ، حتى إنه لم يسمع وقع الأقدام التى تسير خلفه ، لكن مارى سمعتها واستدارت .
وقفت إلينور فى صمت للحظات ، ثم قالت :
" مرحبا مارى ".
قالت مارى :
" كيف حالك يا آنسة إلينور ؟ من اللطيف أن أراك ، فقد كانت السيدة ويلمان تتطلع إلى زيارتكما بلهفة ".
قالت إلينور :
" نعم ـ لقد مر وقت طويل . لقد ... لقد أرسلتنى الممرضة أوبريان للبحث عنك ، حيث إنها تريد أن ترفع السيدة ويلمان من فراشها ، وتقول إنك عادة ما تفعلين ذلك معها ".
قالت مارى : " سأذهب على الفور ".
تحركت مارى بخطوات رشيقة ، سرعان ما تحولت إلى العدو ، وقد وقفت إلينور تتطلع إليها فى صمت .

كانت مارى تعدو برشاقة ، وقد بدا الجمال واضحا فى كل خطوة تخطوها .

قال رودى فى خفوت : " إنها تعدو مثل راقصة باليه .." .

لم تجبه إلينور بشىء ، وإنما وقفت صامتة لدقيقة أو اثنتين ، ثم قالت أخيراً :

" لقد اقترب وقت الغداء ، ومن الأفضل أن نعود ".

ثم سارا جنبا إلى جنب ، متجهين صوب المنزل .

٥

" أوه ، بالله عليك يا مارى ، إنه فيلم رائع للممثلة جريتا جاربو ، وكل أحداثه تدور فى باريس ، والقصة كتبها مؤلف عظيم ، وقد استوحوا منها أوبرا شهيرة ذات مرة ".

" هذا لطف كبير منك يا تيد ، لكننى بالفعل لا أستطيع الذهاب إلى السينما ".

قال تيد بيجلاند بغضب :

" لا أستطيع أن أفهم تصرفاتك هذه الأيام يا مارى . إنك تبدين مختلفة ، بل مختلفة للغاية ".

" كلا ، أنا لست كذلك يا تيد ".

" بل أنت كذلك بالفعل ، وأظن أنه بسبب ذهابك إلى تلك المدارس العليا وسفرك إلى ألمانيا أصبحت تعتقدين أننا لا نليق بصحبتك الآن ".

" هذا غير صحيح يا تيد ، وأنت تعرف أننى لست من هذه النوعية ".

كانت مارى تتحدث بعاطفة شديدة .

تطلع إليها الشاب ـ وكان طويلا قوى البنية ـ بنظرات تقدير ، على الرغم من غضبه .

وقال : " نعم ، إنك كذلك . لقد صرت تقريباً تشبهين سيدات المجتمع يا مارى ".

قالت مارى في مرارة مفاجئة :

" لكن " تقريباً " هذه ليست جيدة بما يكفى أليس كذلك ؟ " .

قال فى تفهم :

" نعم ، أعتقد أنها ليست كذلك ".

قالت مارى بسرعة :

" على أى حال ، من يهتم بهذه الأمور فى هذه الأيام ؟ سيدات مجتمع ورجال نبلاء ، وكل هذا الهراء ! " .

قال تيد فى موافقة ولكن بتفكير عميق : " لم يعد الأمر يهم كما كان فى الماضى ... كلا ، لكن ـ على أى حال ـ ما زالت هناك المشاعر التى تحيط بهذه الألقاب ، وبالله

عليك انظرى إلى نفسك يا مارى . إنك تبدين مثل دوقة أو كونتيسة أو شىء من هذا القبيل ".

قالت مارى :

" هذا لا يدل على شىء ، فلقد رأيت كونتيسات يشبهن الشحاذات اللاتى يعشن فوق أرصفة الشوارع ".

" حسنا ، أنت تعلمين ماذا أقصد ".

اقترب منهما ظل مهيب لامرأة ضخمة الحجم ، ترتدى زياً أنيقاً من اللون الأسود ، وقد رمقتهما عيناها بنظرات حادة ، مما جعل تيد يتنحى جانبا لخطوة أو اثنتين . ثم قال :

" مساء الخير سيدة بيشوب ".

أمالت السيدة بيشوب رأسها بتهذيب .

وقالت : " مساء الخير يا تيد ، مساء الخير يا مارى ".

ثم أكملت سيرها ، كسفينة تبحر بأقصى سرعة .

نظر إليها تيد باحترام وهى تبتعد عنهما .

وتمتمت مارى :

" أرأيت ، هذه هى المرأة التى تشبه الكونتيسات بالفعل ! " .

" نعم ، إن لها حضوراً طاغياً ، حتى إنها دائما ما تجعلنى أشعر بالتوتر عندما أقابلها ".

قالت مارى ببطء :

" إنها لا تستلطفنى كثيراً ".

" هذا هراء يا عزيزتى ".

" بل هى الحقيقة ، إنها لا تحبنى بالفعل ، ودائما ما توجه لى كلمات قاسية " .

قال تيد وهو يومئ برأسه فى تظاهر بالحكمة :

" مجرد غيرة ... هذا هو كل ما فى الأمر ".

قالت مارى فى تشكك :

" ربما يكون هذا هو السبب ... " .

" هذا هو السبب ، وعليك أن تتصرفى طبقا لتلك القناعة ، فلقد كانت هذه المرأة مديرة منزل هانتربيرى لسنوات طوال ، وكانت هى الحاكم المطاع والآمر الناهى فى كل صغيرة وكبيرة ، والآن صارت السيدة ويلمان تقربك إليها كثيراً ، ومن الطبيعى أن يزعجها هذا الأمر ، وهذا هو كل ما فى المسألة ".

قالت مارى وقد بدت علامات الحزن فى محياها :

" أعلم أننى أتصرف بسخف ، لكننى لا أطيق أن أشعر أن أحدهم لا يحبنى ، أنا أود أن يحبنى الناس ".

" بالتأكيد سيكون هناك نساء لا يحببنك يا مارى ! فتيات غيورات يعتقدن أنك أجمل منهن بكثير ! " .

قالت مارى :

" إننى أعتقد أن الغيرة شعور مدمر ".

قال تيد ببطء :

" ربما ، لكنها موجودة على كل حال ، على سبيل المثال ، لقد رأيت فيلماً رائعاً فى سينما آليدور فى الأسبوع

الماضى . من بطولة كلارك جيبل . كان الفيلم يحكى قصة رجل من أصحاب الملايين لكنه كان يهمل زوجته كثيرا ؛ ثم بدأت الزوجة تتظاهر أنها تخونه مع شخص آخر ، وكان هناك رجل آخر .... " .

تحركت مارى مبتعدة ، وقالت :

" معذرة يا تيد ، يجب أن أذهب الآن . لقد تأخرت عن موعد مهم ".

" إلى أين أنت ذاهبة ؟ " .

" سوف أتناول الشاى بصحبة الممرضة هوبكنز ".

وضع تيد تكشيرة كبيرة فوق وجهه .

وقال : " إن لك ذوقاً غريباً فى اختيار الرفقة ، فتلك المرأة هى المصدر الأكبر للنميمة فى قريتنا ، وهى تدس أنفها الطويل هذا فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الناس ".

قالت مارى :

" لقد كانت دائما لطيفة معى ".

" أوه ، أنا لم أقل إنها امرأة سيئة ، ولكنها كثيرة الكلام ".

قالت مارى :

" إلى اللقاء يا تيد ".

انطلقت مارى بسرعة ، تاركة تيد واقفاً فى مكانه ، يحدق النظر إلى جسمها المبتعد بامتعاض .

٦

كانت الممرضة هوبكنز تعيش فى كوخٍ صغير عند نهاية القرية ، كانت المرأة قد وصلت تواً إلى كوخها وكانت منشغلة فى فك أربطة قلنسوتها عندما دخلت مارى .

قالت الممرضة هوبكنز : " هأنتذى ، أعتذر عن تأخرى فقد شعرت العجوز كالدكوت بالتعب مجددا ، مما جعلنى أتأخر فى جولة تفقد المرضى . لقد رأيتك تقفين بصحبة تيد بيجلاند عند نهاية الشارع ".

قالت مارى فى فتور :

" نعم .... " .

رفعت الممرضة هوبكنز نظرها فى تحفز ، حيث كانت منحنية لكى تشعل شعلة الموقد من أسفل غلاية الماء .

وقد ارتجفت أرنبة أنفها الطويل .

ثم تساءلت : " هل كان يتحدث إليك فى أمر مهم يا عزيزتى ؟ " .

" كلا ، لقد كان يطلب منى مرافقته إلى السينما " .

قالت الممرضة هوبكنز بسرعة : " هكذا إذن . حسناً ، إنه شاب لطيف ولديه وظيفة لا بأس بها فى مرآب السيارات ، وكذلك فإن والده من أفضل المزارعين بالقرية ، لكنى ـ على أى حال ـ لا أرى أنك تتوقين إلى أن تصبحى زوجة تيد بيجلاند ، وخاصة مع تعليمك

الرفيع وكل هذه الأمور . وكما قلت لك من قبل ، فلو أنني مكانك لتعلمت التدليك عندما يحين الوقت المناسب ، وهذه المهنة كفيلة بأن تضمن لك التنقل من مكان إلى آخر ومقابلة المزيد من الناس ؛ وكذلك فإن حياتك ستكون ملكاً لك حينها ".

قالت مارى :

" سوف أفكر في الأمر ، لقد تحدثت السيدة ويلمان إلىّ منذ عدة أيام ، وكانت لطيفة جدا معى ، واتضح أن الأمر كما قلت لى تمامًا ، فهى لا تريدنى أن أتركها الآن ، لأنها ـ حسب قولها ـ سوق تفتقد صحبتى ، كما أنها طلبت منى ألا أقلق حيال المستقبل ، وأنها تنوى أن تساعدنى قدر استطاعتها ".

قالت الممرضة هوبكنز فى تشكك :

" دعينا نأمل أنها سوف تضع ذلك على ورق رسمى ، فالمرضى يتصرفون بشكل غريب فى بعض الأحيان ".

قالت مارى متسائلة :

" هل تعتقدين أن السيدة بيشوب تكرهنى ، أم أن ذلك مجرد وهم ؟ " .

ظلت الممرضة هوبكنز تفكر فى الأمر لدقيقة .

ثم قالت : " أعترف أن وجهها عابس على الدوام ، ويبدو أنها إحدى أولئك السيدات اللاتى يكرهن أن يرين الفتيات الشابات وهن يستمتعن بحياتهن أو ينلن حظهن

من الحياة ، وربما يكون ولع السيدة ويلمان بك واهتمامهـا بشأنك هو ما أثار حفيظتها تجاهك ".

ثم ضحكت الممرضة هوبكنز بمرح .

وأردفت : " ما كنت لأقلق كثيرا لو أننى فـى موضـعك يا عزيزتى مـارى . هـلا فتحـت تلـك الحقيبـة الورقيـة ؟ هناك كعكتان محلاتان بالداخل ".

الفصل ٣

لقد أصيبت عمتك بسكتة دماغية أخرى فى الليلة الماضية ، ليس هناك ما يدعو إلى الإفراط فى القلق لكننى أقترح عليك المجيء إذا كان بإمكانك ذلك ....
الدكتور لورد

٢

بعد تسلم البرقية مباشرة ، اتصلت إلينور بمنزل رودى ، والآن صارا يجلسان معا في إحدى عربات القطار المتجه إلى هانتربيرى .

لم تكن إلينور قد رأت رودى كثيرا خلال الأسبوع الذى أعقب زيارتهما لضيعة هانتربيرى ، وعندما تقابلا لمرتين قصيرتى الأمد ، كان هناك نوع غريب من الجمود بينهما. كان رودى قد أرسل إليها باقة كبيرة من زهور النرجس

البرى ، وقد كان ذلك تصرفاً غير معتاد من جانبه ، وفى عشاء جمعهما معًا ، بدا رودى أكثر لطفاً من المعتاد ، فكان يستشيرها فى أنواع الطعام والشراب ، ويعاونها على ارتداء وخلع معطفها بتكلف زائد عن الحاجة ، ولقد أحست إلينور أن رودى كان كمن يلعب دوراً فى مسرحية ـ دور الخطيب المخلص ...

ثم قالت لنفسها :

" كفاك حمقاً . ليس هناك من خطأ .... أنت تتخيلين أموراً غير حقيقية ! إن السبب يرجع إلى عقليتك الكريهة التى تميل دوماً إلى السيطرة وحب التملك ".

ولعل أسلوب تعاملها معه كان أكثر ابتعادًا وتحفظاً عن ذى قبل .

لكن الآن ، فى ظل تلك الحالة الطارئة التى فاجأتهما ، فقد تبدد الجمود ، وصارا يتحدثان إلى بعضهما بشكل طبيعى

قال رودى :

" مسكينة هى العمة نورا ، لقد كانت بحالة جيدة عندما زرناها فى الأسبوع الماضى " .

فردت إلينور :

" إننى أشعر بالأسى من أجلها ، إذ إننى أعلم كم تكره المرض على أى حال ، والآن ، وقد صارت أكثر عجزاً ومرضاً ، أظن أنها سوف تكره مرضها أكثر من ذى قبل ! إننى أشعر يا رودى أن المرضى الميئوس من شفائهم

يجب أن يعطوا الحرية لإنهاء حياتهم ـ ما دام هذا هو ما يريدونه حقاً ".

قال رودى :

" أتفق معك ، هذا هو التصرف المتحضر الذى يجب عمله . إننا نريح الحيوانات التى تعانى من مرض شديد عن طريق قتلها ، لكننى أعتقد أننا لا نفعل ذلك مع البشر بسبب الطبيعة البشرية نفسها ، فقد يتعرض العجائز الأثرياء للقتل من قبل أقربائهم طمعاً فى الميراث ـ وقد لا تكون هناك أية علة بهم على الإطلاق ".

قالت إلينور بتفكير :

" إن هذه الأمور ستكون فى أيدى الأطباء بالطبع ".

" قد يكون الطبيب شخصًا بلا ضمير أو أخلاق ".

" يمكنك أن تثق برجل مثل الدكتور لورد ".

قال رودى دون مبالاة :

" نعم ، فهو يبدو طبيباً نزيهاً إلى حد كبير ، وشاباً لطيفاً أيضاً ".

٣

كان الدكتور نورد منحنياً فوف فراش السيدة ويلمان ، وكانت الممرضة أوبريان تحوم خلف ظهره ، كان الدكتور

ـ وقد تغضن جبينه ـ يحاول أن يفهم الكلمات الخارجة من فم مريضته .

قال الدكتور لورد :

" نعم ، نعم ، لا داعي للانفعال الزائد ، خذى من الوقت ما تشائين ، فقط ارفعي هذه اليد اليمنى قليلاً عندما تريدين قول " نعم " . والآن ، أهناك شيء تشعرين بالقلق حياله ؟ " .

استقبل الدكتور لورد إشارة من يدها اليمنى .

" أهناك أمر عاجل ؟ نعم . شيء تريدين أن يتم ؟ أتريدين أن نستدعي شخصا ما ؟ الآنسة إلينور كارليل ؟ السيد رودريك ويلمان ؟ إنهما على وشك الوصول ".

ومرة أخرى حاولت السيدة جاهدة أن تنطق بكلمات غير مفهومة ، وقد أنصت إليها الدكتور لورد بانتباه .

" لقد أردت حضورهما ، لكن ذلك ليس هو ما تريدينه الآن ؟ أتريدين حضور شخص آخر ؟ أحد الأقرباء ؟ كلا ؟ أهناك شيء يتعلق بشئون الضيعة ؟ فهمت ، شيء له علاقة بأموالك ؟ المحامى ؟ هذا ما تريدين ، أليس كذلك ؟ تريدين التحدث إلى محاميك الشخصى ؟ تريدين إعطاءه تعليمات محددة بخصوص شيء ما ؟ " .

" حسناً ، حسناً ـ لا عليك ، اهدئى . هناك الكثير من الوقت . ما هذا الذى تقولينه ... إلينور ؟ " التقطت أذنه الاسم الذى خرج مشوهاً من فم مريضته ، فأردف : " إلينور تعلم اسم المحامى ؟ وسوف تتولى الاتصال به ؟

حسناً . سوف تصل إلينور إلى هنا فى غضون نصف ساعة ، سوف أخبرها بما تريدين ، وسوف أصعد معها إلى هنا ، وسوف ننتهى من هذا الموضوع . والآن لا تقلقى نفسك أكثر من هذا ، واتركى الأمر لى ، وسوف أحرص على أن تتم الأمور على النحو الذى تريدينه ".

وقف يتطلع إليها للحظة وهى تسترخى فى فراشها ، ثم تحرك مبتعدا بهدوء إلى خارج الحجرة ، ثم وقف عند منبسط الدرج ، وتبعته الممرضة أوبريان فى الوقت الذى كانت الممرضة هوبكنز تصعد فيه الدرج إلى الدور الثانى ، فأومأ لها الدكتور لورد محيياً ، فقالت الممرضة هوبكنز وهى تلهث :

" مساء الخير سيدى الدكتور ".

" مساء الخير يا سيدة هوبكنز ".

سار بصحبة الممرضتين إلى غرفة الممرضة أوبريان المجاورة وأعطاهما التعليمات المطلوبة ، حيث كان من المفترض أن تبقى الممرضة هوبكنز أثناء الليل لكى تعتنى بالسيدة ويلمان وتساعد الممرضة أوبريان فى عملها .

قال الدكتور لورد : " سوف أضطر إلى إحضار ممرضة دائمة غداً ، لكن المشكلة هى أن تفشى وباء الدفتيريا فى منطقة ستانفورد يشغل كل ممرضات المنطقة ، بل إن بعض المستشفيات تعانى نقصاً حاداً فى عدد الممرضات ".

بعد أن ألقى الدكتور لورد بتعليماته ، وأنصتت إليه الممرضتان بانتباه شديد ـ وهو أمر عادة ما يرضى غروره ـ

هبط الطبيب الدرج إلى الدور السفلى ، مستعدا لاستقبال ابنة شقيق المريضة وابن شقيق زوجها ، واللذين ـ كما أشارت ساعة يده ـ كانا على وشك الوصول فى أية لحظة .

وفى ردهة المنزل قابل مارى جيرارد ، وكان وجهها باهتاً وقلقاً . قالت مارى متسائلة :

" أهى بخير الآن ؟ " .

قال الدكتور لورد :

" أستطيع أن أؤكد أنها ستمضى ليلة مريحة ـ وهذا هو ما يمكن فعله الآن ".

قالت مارى بحزن :

" إن الأمر يبدو فى شدة القسوة ... فى شدة الظلم ... " .

أومأ الطبيب برأسه فى تعاطف .

" نعم ، إن الأمور تبدو على هذا النحو فى بعض الأحيان . أعتقد أن .... " .

قطع الطبيب عبارته فجأة .

وقال : " هذا صوت السيارة "

ثم سار مسرعا عبر ردهة المنزل ، وصعدت مارى الدرج إلى الطابق العلوى .

قالت إلينور فى تساؤل عندما دلفت إلى داخل حجرة الاستقبال :

" هل حالتها سيئة جداً ؟ " .

بدا رودى قلقا وممتقع اللون .

قال الطبيب بجدية :

" أخشى أن الأمر سيمثل صدمة لكما . لقد أصيبت بشلل تام ، ويبدو كلامها غير مفهوم تقريباً . بالمناسبة ، يبدو أنها قلقة للغاية بشأن مسألة ما ، وأعتقد أنها تريد أن ترسلوا فى استدعاء محاميها ، أنت تعرفين من هو محاميها يا آنسة إلينور ، أليس كذلك ؟ " .

قالت إلينور بسرعة :

" السيد سيدون ـ ومكتبه يقع فى ميدان بلومسبيرى ، لكن لا أظنه سيكون موجودا فى هذا الوقت من الليل ، ولا أعرف عنوان منزله ".

قال الدكتور لورد مطمئناً إياها :

" سيكون هناك الكثير من الوقت فى صباح الغد ، لكن قلقى ينصب على وجوب تهدئة بال السيدة ويلمان بأقصى سرعة ، إذا رافقتنى الآن إليها يا آنسة إلينور أعتقد أننا سوف نتمكن معا من إعادة الطمأنينة إليها ".

" بالطبع ، سوف آتى معك على الفور ".

قال رودى محاولا المساعدة :

" ألا تريدان أن أصعد معكما ؟ " .

أحس رودى بالخجل من نفسه قليلا ، لكنه كان يشعر برهبة وعصبية من فكرة الصعود إلى حجرة عمته المريضة ، ومن رؤيتها طريحة الفراش ، عاجزة عن الحركة والنطق .

" لا توجد حاجة إلى صعودك يا سيد رودريك ، ومن الأفضل ألا تزدحم حجرتها بعدد كبير من الأفراد ".

بدا ارتياح رودى جلياً على ملامحه .

صعد الدكتور لورد و إلينور إلى الطابق العلوى ، وكانت الممرضة أوبريان تجلس برفقة المريضة .

كانت لورا ويلمان تتنفس بعمق وبصوت مرتفع ، وقد بدت فى رقادها كأنما هى فى غيبوبة عميقة . وقفت إلينور تتطلع إليها ، وقد بدت مصدومة وهى تنظر إلى ذلك الوجه المتغضن الذى غابت عنه آثار الحياة .

وفجأة ارتعش الجفن الأيمن للسيدة ويلمان ثم فتحت عينيها ، وقد تغيرت ملامح وجهها قليلاً عندما تعرفت على وجه إلينور .

ثم حاولت أن تتكلم .

" إلينور .... " كانت الكلمة مقتضبة إلا أنها كانت تمثل كل ما أرادت أن تقوله السيدة ويلمان .

قالت إلينور بسرعة :

" أنا هنا يا عمتى لورا ، أتشعرين بالقلق حيال شىء ما ؟ هل تريدين منى أن أرسل فى طلب السيد سيدون ؟ " .

نطقت لورا ويلمان بأصوات خفيضة مبحوحة ، فحاولت إلينور تخمين معناها . ثم قالت :

" مارى جيرارد ؟ " .

ببطء تحركت اليد اليمنى للسيدة ويلمان حركة مرتجفة لتؤكد ما قالته إلينور .

خرج صوت طويل أشبه بخرير الماء من فم السيدة المريضة ، وقد تجهم وجها زائريها فى عجز عن فهم معناه ، ومرة أخرى انطلق الصوت ، لكن أذن إلينور التقطت كلمة فى هذه المرة .

" بند ؟ أتريدين أن تخصصى لها بنداً فى وصيتك ؟ أتريدين أن توصى لها ببعض المال ؟ حسناً ، لقد فهمت يا عمتى العزيزة ، وسوف يكون ذلك أمراً بسيطاً . سوف يحضر السيد سيدون فى الصباح ، وسيتم ترتيب كل الأمور على النحو الذى ترغبينه ".

بدا وكأن السيدة ويلمان قد استراحت من عناء كبير ، وقد تبددت نظرة التوتر من عينيها المستعطفتين ، أمسكت إلينور بيدها ، وشعرت بأصابع عمتها تضغط أصابعها برفق .

قالت السيدة وينمان بمجهود خارق :

" أنت .... كل شىء ... أنت ... " .

قالت إلينور : " نعم ، نعم ، اتركى كل الأمور على عاتقى ، وسوف أعمل على تحقيق كل ما تريدين ! " .

شعرت إلينور بضغط أصابع عمتها مجددا ، ثم استرخت أصابعها وخفضت جفنيها ثم أغلقتهما .

وضع الدكتور لورد يده فوق ذراع إلينور ثم سحبها برفق إلى خارج الحجرة ، وعادت الممرضة أوبريان إلى مقعدها الموضوع بجانب الفراش .

وفوق منبسط الدرج بالخارج ، كانت مارى جيرارد تتحدث إلى الممرضة هوبكنز ، ثم تحركت تجاههما على الفور .

" دكتور لورد ، هل أستطيع الدخول إليها ؟ " .

أومأ الطبيب موافقاً وقال :

" لكن التزمى الهدوء التام ، ولا تزعجيها مطلقا " .

دلفت مارى إلى حجرة السيدة المريضة .

قال الدكتور لورد :

" لقد تأخر قطارك فى الوصول ... أنت ... " ثم توقف ولم يكمل .

كانت إلينور قد أدارت رأسها كى تتبع مارى بنظراتها ، وفجأة لاحظت صمته المفاجئ ، فأدارت رأسها مجددا وتطلعت إليه فى تساؤل ، كان الطبيب يحدق النظر إليها ، وعلى وجهه نظرة اندهاش ، فصعدت دماء الخجل إلى وجنتى إلينور .

وقالت بتعجل :

" عفوا ، ماذا كنت تقول ؟ " .

قال بيتر لورد ببطء :

" ماذا كنت أقول ؟ لم أعد أذكر ذلك . لقد كنت رائعة بالداخل يا آنسة إلينور ! " كان الطبيب يتحدث

بدفء : " لقد كنت سريعة الفهم ، تبعثين على الطمأنينة ، وكان تصرفك على النحو المثالى فى كل شيء " .

انساب إلى سمعهما تنهيدة خافتة أطلقتها الممرضة هوبكنز .

فقالت إلينور :

" مسكينة أنت يا عمتى . كم يحزننى أن أراها على هذا النحو ".

" بالطبع . لكنك لم تظهرى هذا الحزن بالداخل . لابد أنك تمتلكين قدرة خارقة على ضبط النفس ".

قالت إلينور وقد زمت شفتيها .

" لقد تعلمت ألا .... ألا أظهر مشاعرى ".

قال الطبيب ببطء :

" على أى حال ، أظن أن القناع لابد أن يسقط فى وقت ما ".

كانت الممرضة هوبكنز قد اندفعت إلى داخل الحمام ، فقالت إلينور - وهى ترفع حاجبيها الرقيقين وتنظر إلى وجهه مباشرة :

" القناع ؟ " .

فقال الدكتور لورد :

" إن الوجه البشرى - بشكل أو بآخر - ليس أكثر من مجرد قناع ".

" وماذا يوجد أسفل ذلك القناع ؟ " .

" يوجد أسفله رجل أو امرأة بكل صفاتهما البدائية " .

استدارت إلينور بسرعة وتقدمت الطريق إلى أسفل الدرج .

تبعها بيتر لورد ، متحيراً وتعلو وجهه جدية غير معتادة .

سار رودى إلى الردهة لكى يقابلهما .

وتساءل بقلق ولهفة : " حسناً ، كيف حالها ؟ " .

قالت إلينور :

" مسكينة أنت يا عمتى ، من المحزن أن يراها المرء هكذا .... ولو أننى مكانك ، ما كنت لأدخل إليها حتى ... حتى ... حتى تطلب منك الحضور ".

تساءل رودى :

" هل طلبت أى طلب .... خاص ؟ " .

قال بيتر لورد مخاطبا إلينور :

" يجب أن أذهب ، فلا يوجد ما يمكننى فعله الآن ، لكننى سأعود للاطمئنان فى الصباح الباكر ، إلى اللقاء يا آنسة إلينور . لا .... لا تقلقى نفسك أكثر من اللازم " .

احتضن يدها داخل يده للحظة أو اثنتين ، وأحست إلينور أن قبضته تعطيها إحساسًا غريبًا من الراحة والاطمئنان ، نظر إليها ، وأحست إلينور بشىء غريب فى نظراته ، وكأنما .... وكأنما كان يشعر بالأسى من أجلها .

وعندما أغلق الباب خلف الطبيب ، كـرر رودى سـؤاله السابق .

أجابته إلينور :

" إن العمة لورا تشعر بالقلق حيـال .... حيـال مـسألة مالية معينـة ، ولقـد نجحـت فـى تهـدئتها وأخبرتهـا أن السيد سيدون سوف يأتى غداً بشكل مؤكد ، ولذلك يجب أن نتصل به بأسرع ما يمكن ".

تساءل رودى :

" هل تريد العمة لورا عمل وصية جديدة ؟ " .

أجابت إلينور :

" لم تقل شيئا كهذا " .

" وماذا كانت .... ؟ " .

توقف رودى فى منتصف السؤال .

فقد كانت مارى جيرارد تهبط الـدرجات بـسرعة ، ثـم عبرت الردهـة واختفـت خلـف البـاب المـؤدى إلى منطقـة المطبخ .

قالت إلينور فى صوت حاد :

" ماذا ؟ ما الذى أردت أن تسأل عنه ؟ " .

قال رودى بشرود ذهن :

" أنا .... ماذا ؟ لقد نسيت ماذا كنت أريد ".

كان رودى يحدق النظر إلى الباب الذى اختفـت مـارى وراءه .

أطبقت إلينور يـديها معـاً ، وكـان بإمكانهـا أن تحـس بأظافرها المطلية الطويلة وهى تنغرس فى لحم راحتيها .

ثم أخذت تفكر :

" لا أسـتطيع أن أتحمل ـ لا أستطيع أن أتحمله .... إنه ليس تخيلاً أو وهماً .... إنها الحقيقـة .... رودى ... رودى ... لا يمكنني أن أخسرك ".

واستمرت تحادث نفسها :

" ماذا رأى ذلك الرجل ـ الطبيب ـ *ماذا رأى فى وجهى بالدور العلوى ؟ لقد رأى شيئاً ما ....أوه ، يا إلهى ، كم الحياة كريهة .... كم هـو بشع مـا أشعر بـه الآن . قـل شيئاً أيها الأحمق . اجمع شتات أمرك وأفق من تلك الغيبوبة !* " .

ثم قالت بصوت مرتفع ، وبنبرة هادئة :

" بشأن الوجبات يا رودى ، أنا لست جائعة للغايـة . سوف أجلس مع عمتـى لـورا وسـوف تهـبط المرضـتان إلى الدور السفلى ".

قال رودى بانزعاج :

" وهل ستتناولان طعام العشاء معى ؟ " .

قالت إلينور ببرود :

" لا أظن أنهما ستعضانك ! " .

" لكن ماذا عنك ؟ يجب أن تتناولى شيئاً مـا ، لمـاذا لا نتناول طعام العشاء أولا ، ثـم ترسـلينهما إلى الأسـفل بعـد ذلك ؟ " .

قالت إلينور :

" كلا ، الطريقة الأخرى هى الأنسب " ، ثم أضافت بحدة : " إنهما حساستان للغاية ، كما تعلم " .

ثم قالت لنفسها :

" لا أطيق أن أتناول وجبة بصحبته ـ بمفردنا ـ نتحدث ونتصرف كأن شيئاً لم يحدث " .

ثم قالت بنفاد صبر :

" فلتدعنى أرتب الأمور بطريقتى الخاصة ! " .

الفصل ٤

لم تكن إحدى الخادمات هـى مـن أيقظـت إلينـور فـى الـصباح التـالى ، بـل كانـت الـسيدة بيـشوب بنفـسها ، وكانت تتحرك فى خطوات حثيثة بردائهـا الأسـود عتيـق الطراز ، وتنتحب بقوة .

" أوه ، يا آنسة إلينور ، لقد رحلت .... " .

" ماذا ؟ " .

اعتدلت إلينور فى فراشها .

" عمتك العزيزة .... الـسيدة ويلمـان .... لقـد توفيـت سيدتى أثناء نومها " .

" عمتى لورا ؟ توفيت ؟ " .

حدقت إلينور النظـر إليهـا ، وبـدت غـير قـادرة علـى استيعاب الأمر .

كانت السيدة بيشوب تنتحب الآن بقوة أكبر .

وقالت بين دموعها : " لا أستطيع أن أصدق أنه بعد كل هذه السنوات ! لقد عملت فى خدمتها منذ ثمانية عشر عاماً ، لكنى حتى الآن لا أكاد أصدق ما حدث ".

قالت إلينور ببطء :

" إذن فقد ماتت العمة لورا فى نومها ـ ماتت بكل هذا الهدوء والسكينة .... يا لها من نعمة حصلت عليها ! " .

قالت السيدة بيشوب وهى تنتحب :

" فجأة هكذا ! لقد قال الطبيب إنه سيحضر للاطمئنان عليها هذا الصباح ، وبدت كل الأمور عادية ".

قالت إلينور بلهجة حادة :

" لم يكن الأمر مفاجئاً إلى هذا الحد ، فقد كانت مريضة منذ وقت طويل ، وإننى لأشعر بالراحة إذ جنبها الله مزيدا من العذاب ".

قالت السيدة بيشوب وهى تبكى : " إن هناك بالفعل أمورًا تستحق الحمد عليها " ، ثم أضافت :

" من سيخبر السيد رودريك ؟ " .

قالت إلينور :

" أنا سأخبره ".

ارتدت إلينور أحد ثيابها ثم سارت إلى باب حجرته وقرعته ، فأجابها صوته قائلاً : " ادخل " .

فدخلت إلينور وقالت له :

" لقد ماتت العمة لورا يا رودى ، لقد توفيت أثناء نومها " .

شهق رودى بقوة وهو يعتدل فى فراشه .

" مسكينة أنت يا عمتى العزيزة ، وإن كنت أشكر الله أن أراحها من العذاب ، فما كنت لأتحمل أن أراها فى الحالة التى كانت عليها بالأمس لمدة طويلة " .

قالت إلينور بطريقة آلية :

" لم أعرف أنك قد رأيتها ؟ " .

أومأ رودى برأسه فى خجل .

" الحقيقة يا إلينور أننى قد شعرت بخزى شديد ؛ لأننى لم أجد فى نفسى الشجاعة لأدخل إليها ، فذهبت إلى حجرتها مساء الأمس ، وكانت الممرضة البدينة قد غادرت الحجرة لتحضر شيئاً - ربما ذهبت إلى أسفل لتحضر قنينة ماء ساخن - فتسللت إلى داخل الحجرة . لم تشعر عمتى بوجودى داخل الحجرة بالطبع ، وإنما وقفت إلى جوار الفراش أتطلع إليها ، وبعد ذلك ، وعندما سمعت صوت الممرضة البدينة وهى تصعد الدرجات ، تسللت إلى الخارج ، لكن حالة عمتى كانت .... صعبة للغاية ! " .

أومأت إلينور موافقة .

" نعم ، لقد كانت فى حالة صعبة " .

قال رودى :

" لقد كانت تكره مرضها ... وكل دقيقة تقضيها على تلك الحالة المؤسفة ! " .

" أعلم ذلك ".

قال رودى :

" من الرائع أن نظرتنا ـ أنا وأنت ـ إلى الأمور تتطابق بشكل كبير ".

قالت إلينور بصوت خفيض :

" نعم ، هذا صحيح ".

قال رودى :

" إننا نشعر بنفس الشعور فى نفس الوقت : مجرد *امتنان شديد أن الله قد خلصها من ذلك العذاب الذى كانت تعيشه ....*" .

٢

قالت الممرضة أوبريان :

" ماذا هناك يا سيدتى ؟ أهناك شىء مفقود ؟ " .

كانت الممرضة هوبكنز تفتش وهى مكفهرة الوجه داخل محتويات الحقيبة الصغيرة التى وضعتها فى الردهة فى مساء الليلة الماضية .

ثم زمجرت قائلة :

" يا له من أمر مزعج ! لا أتصور أننى قد فعلت شيئاً كهذا ! " .

" ما الأمر ؟ " .

ردت الممرضة هوبكنز بشكل غير واضح :

" إنها آليزا رايكن ـ إنها تعانى من ورم عضلى ، كما تعلمين ، ويجب أن تعطى حقنة مزدوجة ـ بالليل والنهار ـ من المورفين ، ولقد أعطيتها آخر جرعة فى قنينة الدواء وأنا فى طريقى إلى هنا ، وأكاد أقسم أننى أحضرت معى قنينة جديدة إلى هنا أيضا ".

" فتشى مرة أخرى ، إن قنينة المورفين صغيرة جدا " .

قلبت الممرضة هوبكنز محتويات حقيبتها لمرة أخيرة .

وقالت : " كلا ، إنها ليست هناك ، ولابد أننى قد تركتها فى خزانة الأدوية ، على كل حال . فى الواقع ، كنت أعتقد أن بإمكانى الثقة فى ذاكرتى بشكل أفضل من ذلك ، لدرجة أننى كدت أقسم أننى أحضرتها معى إلى هنا ! " .

" ألم تتركى الحقيبة فى أى مكان ، وأنت فى الطريق إلى هنا ؟ " .

ردت الممرضة هوبكنز بحدة : " بالطبع لا ".

قالت الممرضة أوبريان : " حسناً يا عزيزتى ، لابد أنها بخزانة الأدوية كما قلت ".

" أوه ، نعم ! إن المكان الوحيد الذى وضعت فيه حقيبتى كان بردهة هذا المنزل ، ولا يوجد هنا من قد يسرق شيئاً كهذا ! لابد أن ذاكرتى تخوننى ، لكن الأمر يحنقنى للغاية ، إذا كنت تفهمين ما أقصد ، علاوة على أننى سوف أضطر للذهاب إلى بيتى الذى يقع فى نهاية القرية أولاً قبل أن أعود إلى منزل آليزا رايكن مرة أخرى " .

قالت الممرضة أوبريان :

" أتمنى ألا يكون يومك مرهقاً يا عزيزتى ، خاصة بعد ليلة الأمس . مسكينة هى السيدة لورا . لم أعتقد أنها ستصمد طويلاً ".

" ولا أنا ، وإن كنت أستطيع القول إن الدكتور لورد سيندهش كثيرًا ! " .

قالت الممرضة أوبريان بنبرة توحى بعدم الموافقة :

" إنه دائما ما يفرط فى التفاؤل بشأن الحالات المرضية التى يشرف عليها ".

قالت الممرضة هوبكنز وهى تستعد للمغادرة :

" إنه لا يزال صغير السن ، وليس لديه خبرتنا " .

وبعد أن نطقت بهذا التصريح الكئيب ، غادرت الممرضة هوبكنز المكان .

٣

شبَّ الدكتور لورد واقفاً على أطراف أصابعه ، وارتفع حاجباه الشقراوان عاليًا حتى كادا يختفيان داخل خصلات شعره المتدلية .

وقال في دهشة :

" إذن فقد توفيت العجوز ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم سيدى الدكتور ".

كان لسان الممرضة أوبريان يتحرق شوقاً ليقص تفاصيل ما حدث ، لكنها انتظرت في تهذيب .

قال بيتر لورد بتأمل :

" إذن فقد ماتت ! " .

وقف يفكر للحظات ، ثم قال بحدة :

" أحضرى لى بعض الماء المغلى ".

شعرت الممرضة أوبريان بالاندهاش والاستغراب ، لكن طبقا لتدريبها الطبي الذى تلقته ، كانت تعلم أن وظيفتها لا تقتضى طرح الأسئلة والتساؤلات . فلو أن طبيباً طلب منها أن تحضر جلد تمساح ، لم يكن ردها ليتغير عما قالته بالفعل : " حالا يا سيدى " ، وبعدها كانت تنطلق لتتولى تلك المسألة .

٤

قال رودريك ويلمان :

" هل تقصد أن عمتي قد توفيت غير موصية ـ أى أنها لم تترك أى وصية قط ؟ " .

مسح السيد سيدون نظارته ، وقال :

" يبدو أن هذا هو ما حدث ".

قال رودى :

" لكن ذلك تصرف غير معتاد على الإطلاق ! " .

سعل السيد سيدون وقال فى استنكار :

" ليس الموقف غير معتاد كما تظن ، فإنه يحدث فى حالات أكثر بكثير مما تعتقد ، وهناك نوع من الخرافة تحيط بهذا الأمر ، فالناس يعتقدون أن لديهم الكثير من الوقت ، وإن فكرة وضعهم لوصية من شأنه أن يقرّب الموت منهم ، وهو اعتقاد غريب للغاية ـ لكنه يحدث على الرغم من ذلك ! " .

قال رودى :

" ألم تتحدث معها قط بخصوص هذا الموضوع ؟ " .

رد السيد سيدون بجفاء :

" مراراً ".

"وماذا قالت ؟ " .

تنهد السيد سيدون وقال :

" الكلمات المعتادة ـ أن هناك الكثير من الوقت ، وأنها لا تنوى الموت بهذه السرعة ، وأنها لم تصل إلى قرار محدد بشأن الطريقة المثلى لتوزيع ثروتها ! " .

قالت إلينور :

" لكن بالتأكيد ، بعد السكتة الدماغية الأولى .... ؟ " .

هز السيد سيدون رأسه نفيًا .

" أوه ، كلا ، لقد ازداد الأمر سوءا حينها ، حيث إنها لم تعد تريد أن تسمع بالموضوع من قريب أو بعيد " .

قال رودى :

" لكن هذا يبدو تصرفاً غريباً ، أليس كذلك ؟ " .

ومجددًا ، هز المحامى رأسه نفياً وقال :

" أوه ، كلا ؛ لأن مرضها قد جعلها أكثر عصبية بالطبع ".

قالت إلينور بنبرة استغراب :

" لكنها أرادت أن تموت .... " .

قال السيد سيدون وهو يمسح نظارته :

" أوه ، عزيزتى الآنسة إلينور ، إن العقل البشرى يعمل بآلية مثيرة للاندهاش . ربما كانت السيدة ويلمان تظن أنها ترغب فى الموت ؛ لكن كان هناك إحساس بوجود أمل فى التعافى يسير جنباً إلى جنب مع رغبتها فى إنهاء حياتها ، وبسبب هذا الأمل ، أعتقد أنها ظنت أن ترك وصية سوف يكون أمراً مشئوماً ، إن الأمر لا يعنى

أنها لم تكن ترغب فى ترك وصية بقدر ما يعنى أنها كانت فقط تؤجل الأمر ".

ثم قال مخاطباً رودى بطريقة شبه شخصية :" أتدرى، إن المرء أحياناً يؤجل ويتحاشى الأشياء المزعجة ـ تلك الأشياء التى لا يريد أن يواجهها ؟ " .

احمر وجه رودى خجلاً وتمتم يقول :

" نعم ، أنا .... أنا .... نعم ، بالطبع ، أنا أفهم ما تقصده ".

قال السيد سيدون : " بالتأكيد كانت السيدة ويلمان ترغب دومًا فى ترك وصية ، لكن كان الغد بالنسبة لها أفضل من اليوم للقيام بذلك ، وظلت تقول لنفسها إن هناك متسعاً من الوقت " .

قالت إلينور ببطء :

" لهذا كانت منزعجة للغاية ليلة الأمس ـ وأصرت فى ذعر على استدعائك بأقصى سرعة ... " .

رد السيد سيدون :

" بلا شك ".

قال رودى بصوت تملؤه الحيرة :

" لكن ماذا سيحدث الآن ؟ " .

سعل المحامى وهو يجيب : " أتقصد بالنسبة لأملاك السيدة ويلمان ؟ سوف تذهب كل الأموال والممتلكات إلى أقرب من له صلة دم بها ، وهى الآنسة إلينور كارليل ".

قالت إلينور ببطء :

" كل شيء لى أنا ؟ " .

قال السيد سيدون موضحاً : " سيتم استقطاع نسبة محددة كضرائب حكومية مستحقة " .

ثم شرع يشرح التفاصيل .

وأنهى شرحه قائلاً :

" لا توجد تسويات ولا ديون مستحقة ، فلقد كانت أموال السيدة ويلمان ملكية خالصة لها وكان لها حق التصرف فيها كيفما شاءت ، ولهذا سوف تذهب الأموال كلها للآنسة إلينور كارليل . ورغم أن ضريبة التركات ستقتطع نسبة كبيرة مع الأسف ، لكن حتى بعد تسديد تلك النسبة إلى الحكومة ، فإن المتبقى سوف يمثل ثروة كبيرة ، وهى مستثمرة بشكل جيد على هيئة سندات مالية مضمونة ".

قالت إلينور :

" لكن رودريك .... " .

قال السيد سيدون وهو يسعل بطريقة أشبه بالاعتذار :

" إن السيد رودريك ليس إلا ابن شقيق زوج السيدة ويلمان ، ولا توجد صلة دم بينهما ".

قال رودى : " تماماً ".

قالت إلينور ببطء :

" لا يهم كثيرا من منا سيحصل على الثروة ، بما أننا سوف نتزوج ".

لكنها لم تكن تنظر إلى رودى وهى تنطق بذلك .

فى هذه المرة كان السيد سيدون هو من قال : " تماماً ".
لكنه قالها بشكل مقتضب .

٥

قالت إلينور : " لكن الأمر لا يمثل فارقاً ، أليس كذلك ؟ " .

كانت تتحدث بنبرة شبه مستعطفة .

وكان ذلك بعد أن غادر السيد سيدون .

ارتجفت ملامح وجه رودى بعصبية .

وقال :

" إنك تستحقين المال ، ومن الأفضل أن تحصلى عليه ، وأستحلفك بالله يا إلينور ألا يدخل رأسك هاجس أننى أحقد عليك بسبب ذلك ، فأنا لا أريد تلك الأموال اللعينة ! " .

قالت إلينور فى نبرة مضطربة :

" لقد اتفقنا فى لندن يا رودى أن حصول أى منا على الثروة لن يمثل اختلافا ، لأننا .... لأننا سوف نتزوج .... ؟ " .

لم يجب رودى بشىء . فقالت إلينور بإلحاح :

" ألا تتذكر أنك قد قلت هذا يا رودى ؟ " .

" بلى".

لكنه كان ينظر إلى موضع قدميه ، وبدا وجهه شاحباً ومتجهماً ، وظهر الألم واضحاً فوق خطوط شفتيه الدقيقتين .

قالت إلينور وهى ترفع رأسها بشموخ مفاجئ :

" إن الأمر لا يمثل فارقا ـ *إذا كنا سنتزوج ..... لكن هل سنفعل ذلك ، يا رودى ؟".*

قال رودى :

" سنفعل ماذا ؟ " .

" هل سنتزوج من بعضنا البعض ؟ " .

" كنت أعتقد أننا قد اتفقنا على ذلك " .

كانت نبرته تحمل قدراً من اللامبالاة وقدراً من الحدة ، ثم أردف يقول :

" بالطبع يا إلينور ، لو أن رأيك قد تبدل الآن .... " .

صاحت إلينور :

" آه يا رودى ، ألا يمكنك أن تتحدث بصراحة ؟ " .

ارتجف رودى .

ثم قال بصوت خفيض متحير :

" لست أدرى ما أصابنى .... " .

قالت إلينور بصوت مختنق :

" أنا أدرى .... " .

لكنه رد بسرعة :

" ربما يكون من الحقيقة أن أعترف أنه ، رغم كل ما بيننا ، لا تروق لى فكرة أن أعيش على أموال زوجتى .. " .

قالت إلينور وقد شحب وجهها :

" ليس هذا هو السبب .... هناك شىء آخر ... " .

صمتت للحظة ، ثم أردفت : " إنها .... إنها مارى ، أليس كذلك ؟ " .

تمتم رودى بأسى :

" أعتقد ذلك ، لكن كيف عرفت ؟ " .

قالت إلينور وهى تلوى فمها فى ابتسامة مريرة :

" لم يكن من الصعب تخمين ذلك .... كل مرة كنت تنظر إليها ـ كانت ملامحك تتحول إلى كتاب مفتوح لا يحتاج إلى مجهود لقراءته .... " .

وفجأة انهارت رباطة جأشه .

" آه يا إلينور ـ أنا لا أدرى ماذا أصابنى ! أظن أننى سأفقد صوابى ! لقد حدث كل شيء يوم رأيتها ، للمرة الأولى ، فى الغابة .... منذ أن رأيت وجهها ـ لقد ... لقد انقلب كل شيء بداخلى رأساً على عقب . لا يمكنك أن تفهمى ما حدث .... " .

قالت إلينور :

" بل يمكننى ، أكمل " .

قال رودى بضعف :

" لم أرد أن أقع في حبها .... لقد كنت سعيداً في علاقتي بك . آه يا إلينور ، كم أشعر باحتقار نفسي وأنا أتحدث إليك على هذا النحو .... " .

قالت إلينور :

" لا عليك . أكمل ، وأخبرني بكل شيء .... " .

قال رودي باستكانة :

" كم أنت رائعة .... إن التحدث إليك يهدئ من روعي كثيرا ، أنا أحبك كثيرا يا إلينور . يجب أن تصدقي ما أقول . إن تلك المسألة الأخرى ليست سوى هوس ! إنها تتعارض مع كل شيء : مفهومي للحياة ـ وطريقة استمتاعي بالأشياء ـ و .... وكل ما هو معقول ومنطقي ولائق .... " .

قالت إلينور برقة :

" الحب ليس أمرا منطقياً أو معقولاً... " .

قال رودي بأسى :

" نعم .... " .

قالت إلينور وقد اضطرب صوتها قليلاً :

" هل صارحتها بأي شيء ؟ " .

قال رودي :

" هذا الصباح ... لقد فقدت صوابي وصرحت لها بكل شيء كالمغفل " .

قالت إلينور :

" وماذا حدث ؟ " .

أجاب رودى :

" لقد ... لقد أخرستنى على الفور ! كانت مصدومة ، بسبب موت العمة لورا ... وبسببك أنت ... " .

انتزعت إلينور خاتم الخطبة الماسى من إصبعها ، وقالت :

" من الأفضل أن تستعيد هذا يا رودى " .

تناول رودى الخاتم ، وتمتم دون أن ينظر إليها :

" إلينور ، ليس لديك فكرة كم أشعر باحتقار تجاه نفسى " .

قالت إلينور بصوتها الهادئ :

" أتظن أنها سوف تقبل الزواج منك ؟ " .

هز رودى رأسه وقال :

" لا أدرى ، ليس فى وقت قريب ، على كل حال . أنا لا أعتقد أنها تهتم لأمرى الآن ؛ لكن ربما يأتى وقت تحبنى فيه ... " .

قالت إلينور :

" أظن أنك على حق ، يجب أن تعطيها بعض الوقت ، ولا تحاول أن تراها لمدة كافية ، وبعد ذلك ... تبدأ فى التقرب إليها من جديد ".

" عزيزتى إلينور ! أنت أفضل صديق يتمناه المرء ". أمسك رودى بيدها فجأة وقبلها وأردف : " أتعلمين يا إلينور ، إننى أحبك بالفعل ـ تماماً كما كنت أشعر

من قبل ! أحياناً أشعر أن ماري مجرد حلم ، وأنني قد أستيقظ يوماً ما ـ فأكتشف أنه لا وجود لها .... " .

قالت إلينور :

" لو أن ماري لم تكن موجودة .... " .

قال رودى بانفعال مفاجئ :

" أحيانا أتمنى لو أنها غير موجودة .... أنا وأنت ، يا إلينور ، نلائم أحدنا الآخر ، أليس كذلك ؟ " .

خفضت إلينور رأسها ببطء .

وقالت :

" أوه ، نعم ، نحن نلائم بعضنا البعض ".

ثم قالت لنفسها :

" لو أن ماري لم تكن موجودة ...." .

الفصل ٥

قالت الممرضة هوبكنز بانفعال :

" لقد كانت جنازة مهيبة ! " .

ردت الممرضة أوبريان :

" لقد كانت كذلك بالفعل ، والزهور ... هل رأيت كل هذا العدد من الزهور الجميلة من قبل ؟ كانت هناك قيثارة مصممة من النرجس الأبيض ، وتاج من الزهور الصفراء رائعة الجمال " .

تنهدت الممرضة هوبكنز ومدت يدها إلى كعكة محلاة بالزبد ، كانت الممرضتان تجلسان فى مقهى بلوتيت .

أكملت الممرضة هوبكنز تقول :

" إن الآنسة إلينور كارليل فتاة كريمة للغاية ، فلقد أعطتنى هدية لطيفة ، رغم أنها لم تكن مضطرة لذلك " .

قالت الممرضة أوبريان موافقة بحماس : " إنها لطيفة وسخية للغاية ، إننى أكره الأشخاص البخلاء " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" حسنا ، لقد ورثت ثروة كبيرة بالفعل " .

قالت الممرضة أوبريان : " أتساءل إذا ... " ثم توقفت ولم تكمل عبارتها .

قالت الممرضة هوبكنز مشجعة : " ماذا ؟ " .

" لقد كان أمراً غريباً ألا تترك السيدة ويلمان وصية ".

قالت الممرضة هوبكنز بحدة : " لقد كان ذلك تصرفاً مؤذياً ، وأظن أن الناس يجب أن يجبروا على ترك وصايا قبل موتهم ؛ لأن عدم قيامهم بذلك يؤدى إلى تعقيدات مزعجة للغاية ".

قالت الممرضة أوبريان : " ما زلت أتساءل .... لو أنها تركت وصية ، فكيف كانت ستوزع المال يا ترى ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز بثبات :

" أنا أعلم شيئاً واحداً مؤكداً ".

" وما هو ؟ " .

" كانت ستترك مقداراً من المال من أجل مارى - مارى جيرارد ".

وافقتها المرأة الأخرى قائلة : " نعم ، هذا صحيح بالفعل . " ثم أضافت بحماس : " ألم أخبرك عن الحالة التى كانت عليها السيدة المسكينة فى تلك الليلة . لقد كان الطبيب يبذل قصارى جهده ليهدئ من روعها ، وكانت الآنسة إلينور تمسك بيد عمتها وتقسم بأغلظ الأيمان ...." - كانت الممرضة أوبريان تتحدث فى لهجة مسرحية وقد تمكن منها خيالها الأيرلندى الخصب :

" .... وتقسم بأغلظ الأيمان أنها سوف تستدعى المحامى ، وأن كل الأمور ستتم بالطريقة التى ترغبها السيدة ويلمان ، أما المرأة المسكينة فكانت تردد : " مارى ! مارى ! " فردت عليها الآنسة إلينور : " أتقصدين مارى جيرارد ؟ " وعندما تأكدت من أن مارى جيرارد هي المقصودة ، أقسمت لعمتها أن مارى سوف تحصل على حقوقها ! " .

قالت الممرضة هوبكنز بتشكك :

" أهذا ما حدث حقاً ؟ " .

ردت الممرضة أوبريان بثبات :

" لقد كان هذا هو ما حدث بالفعل ، ودعينى أسر إليك بأمر أيتها الممرضة هوبكنز : فى رأيى الشخصى ، لو أن السيدة ويلمان قد عاشت حتى تكتب وصيتها ، فمن المحتمل أن تلك الوصية كانت ستحمل مفاجأة للكل ! ومن يدرى ، فلعلها كانت لتترك كل مليم تملكه إلى مارى جيرارد ! " .

قالت الممرضة هوبكنز بتشكك :

" لا أعتقد أنها كانت لتفعل أمراً كهذا ـ ربما لأننى لا أؤيد أن يترك المرء ماله لشخص لا يمت له بصلة دم أو قرابة ".

قالت الممرضة أوبريان فى تخابث :

" هناك أنواع كثيرة من صلة الدم والقرابة ".

ردت الممرضة هوبكنز على الفور :

" ماذا تقصدين بهذا الكلام الغريب ؟ " .

قالت الممرضة أوبريان بكبرياء :

" لست ممن يحبون النميمة ، وليست بى رغبة فى تلطيخ سمعة شخص ميت ".

أومأت الممرضة هوبكنز ببطء وقالت :

" هذا صحيح ، وأنا أتفق معك تمامًا . فالمرء مطالب دائما بأن يصون لسانه ".

ثم ملأت إبريق الشاى .

قالت الممرضة أوبريان :

" بالمناسبة ، هل وجدت قنينة المورفين عندما عدت إلى المنزل فى ذلك اليوم ؟ " .

تجهم وجه الممرضة هوبكنز وقالت :

" كلا . كم أشعر بالحيرة وأنا أحاول تخمين ما حدث لتلك القنينة ، لكننى أظن أن الأمر قد حدث على هذا النحو : ربما أكون قد وضعتها على رف الموقد ـ كما أفعل دائما عندما أغلق خزانة الدواء ـ ولعلها قد تدحرجت وسقطت فى كيس المهملات الذى كان يمتلئ بالقمامة ثم قام أحدهم بتفريغ الكيس داخل سلة القمامة فى الوقت الذى غادرت فيه المنزل . " توقفت للحظة ثم أردفت : " لابد أن هذا هو ما حدث ؛ لأننى لا أرى أى تفسير آخر لاختفاء القنينة بهذه الطريقة ".

قالت الممرضة أوبريان : " فهمت ، حسناً يا عزيزتى ، لابد أن هذا هو ما حدث ، فلا أظنك قد

تركت حقيبتك فى أى مكان آخر ـ سوى فى ردهة منزل هانتربيرى ـ ويبدو لى أن تفسيرك للأمر هو ما حدث حقا ، لقد ألقى أحدهم القنينة فى سلة القمامة ".

قالت المرضة هوبكنز بحماس :

" هذا صحيح ، فلا يوجد احتمال آخر لاختفاء القنينة ، أليس كذلك ؟ " .

ثم تناولت كعكة أخرى محلاة بالسكر ، وقالت :

" ليس الأمر كأن أحدهم .... " ثم توقفت .

وافقتها المرضة الأخرى بسرعة ـ ربما بسرعة أكثر من اللازم .

وقالت بارتياح : " ما كنت لأقلق كثيرا حيال هذا الأمر لو أننى كنت فى موضعك ".

قالت المرضة هوبكنز :

" أنا لا أشعر بالقلق .... " .

٢

جلست إلينور وراء مكتب السيدة ويلمان فى حجرة المكتبة وقد ارتدت ملابس الحداد السوداء وبدت على ملامحها صرامة رغم شبابها وحيويتها ، وقد تبعثرت كومات من الأوراق فوق سطح المكتب . كانت قد انتهت من مقابلة الخدم والسيدة بيشوب ، وقد حان الدور على

ماری جیرارد التی دلفت إلى داخل الحجرة ثم وقفت مترددة عند مدخلها .

قالت ماری : " هل أرسلت فی طلبی یا آنسة إلینور ؟ " .

رفعت إلینور نظرها إلى أعلى .

" آوه ، نعم یا ماری . هلا تفضلت بالجلوس من فضلك ؟ " .

تقدمت ماری وجلست فوق المقعد الذی أشارت إلیه إلینور ، کان المقعد موجهاً ناحیة النافذة قلیلاً ، وکان النور الذی یعبر النافذة یسقط علی وجه ماری ، مظهرًا نقاء بشرتها المتألقة ، وجمال شعرها الذهبی الباهت .

رفعت إلینور إحدی یدیها ، مخفیة وجهها قلیلاً ، لکنها کانت تتطلع إلى وجه ماری من بین أصابعها .

وقالت لنفسها :

" أیمکن أن یکره المرء شخصاً کل هذه الکراهیة ثم لا تظهر ملامح وجهه ذلك ؟ " .

ثم قالت بصوت مسموع ، وبلهجة عملیة لطیفة :

" أظنك تعلمین یا ماری أن عمتی طالما أبدت اهتماماً کبیراً بك وکانت تشعر بالقلق حیال مستقبلك ".

تمتمت ماری بصوتها الرقیق :

" لقد کانت السیدة ویلمان طیبة معی دائماً ".

أکملت إلینور ، بلهجة باردة غیر مبالیة :

" أعلم أنه لو قُدّر لعمتى أن تعيش حتى تترك وصية ، فإنها كانت ستترك العديد من المنح فى وصيتها ، ولأنها توفيت دون أن يسمح لها الوقت بترك وصية ، فإن مسئولية تنفيذ رغباتها وأمنياتها تقع على عاتقى أنا . ولقد تشاورت مع السيد سيدون ، وبناء على نصائحه القانونية ، فقد وضعنا قائمة مكافآت مالية للخدم بناء على مدة خدمتهم ، وإخلاصهم ، الخ ... " توقفت للحظة ثم أردفت : " لكنك بالطبع لا تنتمين إلى هذه الفئة بشكل دقيق " .

ربما كانت إلينور تتمنى بداخلها أن تسبب تلك الكلمات إحساساً بالألم فى قلب مارى ، لكن الوجه الذى كان ينظر إليها لم تتغير ملامحه قط ، ولقد تقبلت مارى كلماتها حسب معناها الحرفى وأنصتت لما هو قادم .

قالت إلينور :

" على الرغم من أنه كان من الصعب على عمتى أن تتحدث بشكل واضح ، إلا أنها استطاعت أن توصل إلى رغبة واضحة فى ليلتها الأخيرة . لقد أرادت ـ بشكل محدد ـ أن تترك منحة مالية فى وصيتها من أجل ضمان مستقبلك ".

قالت مارى بصوت خافت :

" لقد كان ذلك تصرفا نبيلاً من جانبها ".

ردت إلينور بغلظة :

" بمجـرد أن ننتهـي مـن إجـراءات إثبـات صـحة الوصية ، سوف أرتب الأمر بحيـث تحـصلين علـى مبلـغ ألفين من الجنيهـات ـ وهـذا المبلـغ سـيكون ملكـاً خالـصًا لك ، تفعلين به ما تشائين " .

توردت وجنتا ماري .

وقالت : " ألفان من الجنيهات ؟ أوه ، هذا كرم بـالغ منك يا آنسة إلينور . لست أدري كيف أشكرك ".

قالت إلينور بحدة :

" لم يكن للأمر علاقة بكرمي أو طيبة قلبي ، ورجاء لا تحاولي شكري بأية كلمات ".

احمر وجه ماري خجلا .

وتمتمت قائلة : " أنـت لا تعلمـين كـم سـيحدث هـذا المبلغ اختلافاً في حياتي ".

قالت إلينور :

" أنا سعيدة من أجلك " .

ترددت إلينور للحظة ، وأشاحت ببـصرها إلى الناحيـة الأخرى من الحجرة ، ثم قالت بجهد واضح :

" أتساءل إن كانت لديك خطط محددة ؟ " .

ردت ماري بسرعة :

" أوه ، نعـم . سـوف أتـدرب علـى مهنـة مـا ـ ربمـا التدليك ، فهذا ما توصي به الممرضة هوبكنز ".

قالت إلينور :

" تبدو كفكرة جيدة . سوف أرتب الأمر مع السيد سيدون بحيث يصرف لك بعض المال فى أقرب فرصة - على الفور ، إن أمكن ".

قالت مارى بامتنان : " هذا لطف بالغ منك يا آنسة إلينور ".

قالت إلينور بجفاء :

" لقد كانت هذه رغبة عمتى لورا " ، ترددت للحظة ، ثم قالت : " حسناً ، أعتقد أننا قد انتهينا من الأمر ".

فى هذه المرة تركت هذه الكلمات التى توحى بالطرد أثراً واضحاً فى ملامح مارى الرقيقة ، فقامت من موضعها ، وقالت بصوت خافت : " شكراً جزيلاً لك يا آنسة إلينور ". ثم غادرت الحجرة .

جلست إلينور ساكنة فى موضعها ، محدقة النظر إلى هدف وهمى أمام عينيها ، وقد بدا وجهها خالياً من أى تعبير ، غير موح بأى شىء يدور فى رأسها . واستمرت جالسة فى ذلك الموضع - دون صوت أو حركة ، لوقت طويل .....

٣

ذهبت إلينور أخيرا فى رحلة بحث عن رودى ، فوجدته فى الصالة ، وكان يقف محدقاً النظر إلى ما وراء النافذة ، ثم استدار بحدة عندما دخلت إلينور .

قالت إلينور :

" لقد انتهيت من كل الترتيبات المالية ! حصلت السيدة بيشوب على مكافأة قدرها خمسمائة جنيه - حيث إن لها سنين طويلة فى العمل هنا ، ومائة جنيه للطباخ ، وخمسون لمساعديه أوليف وميلى ، وخمسة جنيهات لبقية الخدم . خمسة وعشرون جنيها مكافأة إلى ستيفن ، رئيس البستانيين ؛ وهناك بالطبع الحارس العجوز جيرارد الذى يقطن الكوخ ، لكنى لم أفعل أى شىء من أجله حتى الآن ، إن موقفه محرج ، وأظن أنه يجب أن يعطى مكافأة تقاعد ".

توقفت للحظة ، ثم أكملت بشكل متعجل :

" سوف أعطى مارى جيرارد ألفين من الجنيهات ، هل تعتقد أن هذا هو ما كانت تتمناه عمتى لورا ؟ يبدو لى أن هذا هو المبلغ المناسب ".

قال رودى دون أن ينظر إليها :

" نعم ، هذا صحيح تمامًا . لقد كان لك دائماً حكم صائب على الأمور يا إلينور ".

ثم استدار وعاد يحدق النظر خارج النافذة .

ظلت إلينور صامتة للحظة ، ثم بدأت تتحدث بسرعة عصبية مما جعل الكلمات تخرج من فمها غير واضحة :

" هناك شيء آخر : أنا أريد - وذلك هو الحق - أقصد أنه لابد من حصولك على حصتك المناسبة من الميراث يا رودى ".

وبينما كان رودى يستدير ، والغضب يطل من وجهه ، أسرعت إلينور تكمل كلامها :

" كلا ، أنصت إلىّ يا رودى ، إن هذا هو العدل المطلق ! إن المال كان ملكاً لعمك - والذى تركه لزوجته - ولابد أن عمك كان يفترض أنه سيعود إليك بشكل طبيعى . ولقد كانت عمتى لورا تريد ذلك أيضا ... أعلم أنها أرادت ذلك من خلال أشياء كثيرة كانت تقولها ، لو أننى ورثت أموال عمتى ، فمن الواجب أن تحصل أنت على أموال عمك - هذا هو العدل . أنا ... أنا لا أطيق أن أشعر أننى قد سلبتك حقك الشرعى - لأن عمتى لورا قد تجاهلت أن تترك وصية . يجب عليك أن .... أن تنظر إلى الأمر بشكل منطقى ومعقول ! " .

بدا وجه رودى - ذلك الوجه الطويل والحساس - شاحبا شحوب الموتى . وقال :

" يا الهى ! أتريدين أن تجعلينى أحس كأننى نذل مكشوف الوجه يا إلينور ؟ أتظنين للحظة واحدة أننى أستطيع أن .... أن آخذ هذا المال منك ؟ " .

" أنا لا أتصدق عليك بشيء . إن ذلك هو ... هو العدل ".

صاح رودى :

" أنا لا أريد مالك ! " .

" إنه ليس مالى ! " .

" إنه لك بحكم القانون ـ وهذا هو ما يهم ! بالله عليك ، دعى الأمور لكى تجرى فى نصابها القانونى المحض ، واعلمى أننى لن أقبل مليماً من أموالك ، ولن أدعك تلعبين معى دور السيدة المحسنة ! " .

صاحت إلينور بانفعال :

" رودى ! " .

حرك رودى يده بإشارة سريعة .

وقال : " أوه ، أنا فى شدة الأسف يا عزيزتى ، لست أدرى ما الذى أقوله . أشعر أننى مشوش ـ أشعر بضياع تام ... " .

قالت إلينور برقة :

" مسكين أنت يا رودى ...." .

كان رودى قد استدار مجددا تجاه النافذة ، وأخذ يعبث فى مقبض ستارتها ، ثم قال بلهجة مختلفة ـ لهجة غير مبالية :

" هل تعلمين ماذا تنوى مارى جيرارد أن تفعل ؟ " .

" سوف تتدرب لكى تصبح مدلكة ، هكذا تقول ".

قال رودى : " حسناً ".

ساد الصمت للحظة ، ثم اعتدلت إلينور فى جلستها ، وأرجعت رأسها إلى الخلف . وعندما تحدثت ، خرج صوتها ملحاً بشكل مفاجئ .

قالت :

" رودى ، أريدك أن تنصت إلىّ بانتباه ! " .

استدار رودى تجاهها ، وبدا عليه الاندهاش قليلاً وقال :

" بالطبع يا إلينور ".

" أريدك أن تتبع نصيحتى ، إذا أمكنك ذلك ".

" وما هى نصيحتك ؟ " .

قالت إلينور بهدوء :

" أنت لست مقيدا بشدة إلى العمل ، ويمكنك الحصول على إجازة ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ".

" إذن أفعل ذلك ، سافر إلى الخارج لمدة ثلاثة شهور مثلاً . لكن سافر بمفردك ـ كوّن صداقات جديدة ، وشاهد أماكن لم ترها من قبل ، دعنا نتكلم بصراحة يا رودى . فى هذه اللحظة ، أنت تظن أنك تحب مارى جيرارد ، وربما تكون كذلك . لكن اللحظة الحالية ليست اللحظة المثالية للتقرب إليها ـ وأنت تعرف ذلك جيداً . لقد فُسخت خطبتنا ، ولهذا أقول لك : انطلق إلى الخارج كرجل حر ، وفى نهاية الشهور الثلاثة ، توصل إلى قرارك النهائى ـ أيضا كرجل حر ، سوف تعرف حينها

ما إذا كنت حقاً تحب مارى أم أن مشاعرك تجاهها كانت مجرد شغف مؤقت ، وإذا تيقنت حينها من صدق مشاعرك ، فارجع ، واذهب إليها ، وأخبرها أنك تحبها ، وأنك واثق من مشاعركَ نحوها ، وحينها ربما تنصت إليك ".

تحرك رودى مقتربا من إلينور ، ثم أمسك بيدها بين راحتيه .

وقال : " كم أنت رائعة يا إلينور ـ صافية الذهن ! نزيهة عن الأغراض الشخصية ! خالية من كل مظاهر اللؤم والسخافة ! إننى معجب بشخصيتك إعجابًا لا يمكن وصفه ، ولسوف أفعل ما تقترحينه علىّ . سوف أرحل بعيدًا ، متحررًا من كل قيودى ـ وسوف أكتشف ما إذا كنت واقعًا فى الحب بالفعل ، أم أننى قد جعلت من نفسى أضحوكة دون داعٍ . عزيزتى إلينور ، إنك لا تعرفين مقدار ولعى وشغفىً بك ، ولقد أدركت الآن كم كنت تعاملينني بشكل أفضل ألف مرة من معاملتى لك . بوركت يا عزيزتى وحفظك الله جزاء طيبتك ولطفك ".

وبسرعة وتلقائية ، قبل وجنتها واندفع إلى خارج الحجرة .

ولكنه على الأغلب لم يجد الوقت الكافى لينظر إلى الخلف ويرى ملامح وجهها .

٤

مضى يومان بعد أن أطلعت مارى جيرارد المرضة هوبكنز على خططها المستقبلية .

ولقد هنأتها الممرضة هوبكنز بعاطفة دافئة رغم طبيعتها العملية .

وقالت : " يا له من حظ سعيد أصبته يا مارى ، ربما كان للسيدة ويلمان نوايا جيدة تجاهك ، لكن ما لم توضع الأمور فى حبر على ورق رسمى ، فإن النوايا الحسنة لا تؤدى إلى شيء ، وقد كان من الممكن أن تخرجى من هذا الأمر بلا شيء " .

" لقد قالت الآنسة إلينور إن السيدة ويلمان قد طلبت منها ـ فى الليلة التى توفيت فيها ـ أن تفعل شيئا من أجل مستقبلى ".

تنحنحت الممرضة هوبكنز .

وقالت : " ربما تكون قد فعلت ذلك ، لكن هناك الكثير من الناس الذين قد يتناسون هذه الوصايا لمصلحتهم الشخصية ، ومعظم الأقارب يتصرفون بهذه الطريقة . ولقد رأيت أشياء كثيرة من هذا القبيل ! وقد تجدين شخصاً يقول فى لحظات احتضاره إنه يعلم أن ابنه العزيز أو ابنته الوفية سوف تنفذ وصيته على النحو الأمثل ، وفى تسعين بالمائة من الحالات تجدين أن ذلك الابن العزيز أو

الابنة الوفية يجدان أسباباً مقنعة تجعلهم لا ينفذون أياً من هذه الوصايا ، إنها الطبيعة البشرية بكل عيوبها ... فالناس لا يرغبون فى مفارقة أموالهم ما لم يكن هناك قانون يلزمهم بذلك ! دعينى أقل لك يا فتاتى العزيزة ؛ لقد كنت محظوظة للغاية ؛ لأن الآنسة إلينور كارليل كانت أكثر نزاهة واستقامة من معظم الناس ".

قالت مارى ببطء :

" ومع ذلك ، أشعر بطريقة ما أنها لا تحبنى ".

ردت المرضة هوبكنز دون مواربة : " أستطيع أن أقول إن لديها كل العذر ألا تحبك . وما أظنك تريدين التظاهر بالغفلة يا مارى ، فكلنا قد لاحظ الطريقة التى ينظر إليك بها السيد رودريك منذ مدة ".

احمر وجه مارى خجلا .

وأكملت المرضة هوبكنز :

" أظن أن الحب قد نال منه ، وأنه قد سقط فى هواك فجأة ودون مقدمات ، ولكن ماذا عنك يا بنيتى ؟ أتكنين له أية مشاعر ؟ " .

قالت مارى بتردد :

" أنا .... لست أدرى . لا أعتقد ذلك ، لكنه شخص لطيف بالطبع ".

قالت المرضة هوبكنز :

" ربما ... لكنى لا أعتقد أننى قد أسقط فى حب رجل مثله ! أظنه أحد أولئك الرجال الذين يتسمون بعصبية

شديدة ويصعب إرضاؤهم ـ حتى فى صغائر الأمور مثل الطعام والشراب ، إن الرجال ليسوا صحبة جيدة فى معظم الوقت ، وأنصحك ألا تتعجلى الأمور يا عزيزتى مارى ، فإن ملامحك الجميلة تعطيك الحرية لكى تدققى وتختارى كما تشائين ، ولقد أخبرتنى المرضة أوبريان بالأمس القريب أنها تعتقد أنك يجب أن تذهبى للعمل كممثلة سينما ، ولقد سمعت أنهم يحبون الفتيات الشقراوات ".

قالت مارى ـ وقد ظهر إمارات العبوس على وجهها :

" سيدتى ، ماذا تعتقدين أن أفعل مع والدى ؟ إنه يعتقد أننى يجب أن أعطيه بعض المال ".

قالت المرضة هوبكنز فى حنق : " إياك أن تفعلى شيئا كهذا ، فإن السيدة ويلمان ما كانت لترغب أن تعطيه شيئا من هذا المال ، وأظن أنه ما كان ليحتفظ بوظيفته كل هذا الوقت لولاك ، فهو رجل كسول بليد المشاعر ! " .

قالت مارى :

" كم يبدو غريباً أن تمتلك السيدة ويلمان كل هذه الأموال ثم لا تترك وصية تشير إلى كيفية توزيعها ".

هزت المرضة هوبكنز رأسها .

وقالت : " الناس دائماً على هذه الحال ، وقد تندهشين إلى أنهم كثيراً ما يؤجلون تلك الأمور مخافة الفأل السيئ ".

قالت مارى :

" يبدو الأمر سخيفا بالنسبة لى ".

قالت الممرضة هوبكنز وهى تغمز بعينها :

" هل تركت وصيتك بعد يا مارى ؟ " .

حدقت مارى النظر إليها وقالت :

" أوه ، كلا ".

" مع أنك قد تجاوزت الواحدة والعشرين ".

" لكن أنا .... أنا ليس لدىّ ما أتركه ـ لكن ربما صار لدىّ الآن شيء ".

قالت الممرضة هوبكنز بحدة :

" بالطبع صار لديك ما تتركينه ، وأظن أنه مبلغ مالى محترم أيضا ".

قالت مارى :

" حسنا ، لا داعى للعجلة ... " .

قالت الممرضة هوبكنز بجفاء : " أرأيت ما أعنيه ، تماما مثلما يتصرف كل الناس ، إن كونك فتاة شابة فى موفور الصحة والعافية لا يعنى أنك قد لا تلقين حتفك داخل حافلة محطمة أو تصدمك سيارة وأنت تعبرين الطريق فى أية لحظة ".

ضحكت مارى وقالت :

" أنا حتى لا أدرى كيف أترك وصية ".

" هذا أمر سهل . يمكنك أن تحصلى على استمارة من مكتب بريد . هيا نذهب ونحضر استمارة الآن ".

فى كوخ الممرضة هوبكنز ، وضعت الاستمارة فوق الطاولة ، وتمت مناقشة البنود المهمة . كانت الممرضة هوبكنز مستمتعة بالموقف كثيرا ، وذلك أن الوصية ـ كما كانت تقول ـ هى ثانى أفضل شيء بعد الموت ، فى رأيها الشخصى .

قالت مارى :

" من يحصل على المال إذا لم أترك وصية ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز فى تشكك :

" أظن أنه والدك ".

قالت مارى بحدة :

" لن ينال المال أبداً ، وإننى لأفضل أن أتركه لخالتى التى تعيش فى نيوزيلندا ".

قالت الممرضة هوبكنز فى مرح :

" لن يكون هناك فائدة فى ترك المال لأبيك ، على أى حال ، فما أظن أيامه فى هذا العالم سوف تطول ".

كانت مارى قد سمعت ذلك التعليق كثيرا على لسان الممرضة هوبكنز إلى درجة أنه لم يعد يدهشها .

" لا أستطيع أن أتذكر عنوان خالتى ، حيث إن أخبارها قد انقطعت عنا منذ سنوات طويلة ".

قالت الممرضة هوبكنز : " لا أظن أن هذا يمثل مشكلة . هل تعرفين اسمها الكامل ؟ " .

" مارى رايلى ".

" حسنا . اكتبى أنك تتركين كل ما تملكينه إلى مارى رايلى ، شقيقة الراحلة آليزا جيرارد ، التى كانت تقطن قرية هانتربيرى بمقاطعة مادينسفورد ".

انطلقت مارى تملأ الاستمارة ، وعندما وصلت إلى نهايتها ، ارتعد جسدها بشكل مفاجئ ، لاحظت مارى أن ظلاً قد حال بينها وبين الشمس ، فرفعت عينيها إلى أعلى لتجد إلينور كارليل تقف وراء النافذة وتنظر إلى داخل الكوخ . قالت إلينور :

" ما الذى تفعلينه بهذا الانهماك ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز وهى تضحك :

" إنها تكتب وصيتها ـ هذا هو ما تفعله ".

" تكتب وصيتها ؟ " نطقت إلينور بهذه الكلمات ، ثم ضحكت بشكل مفاجئ ـ ضحكة غريبة .... ضحكة شبه هستيرية .

وقالت :

" إذن فأنت تكتبين وصيتك يا مارى . *يا له من أمر طريف . أمر طريف للغاية ....* " .

استدارت إلينور ، وسارت بسرعة على طول الشارع ـ وصدى ضحكتها ما زال يصل إلى أسماع المرأتين .

حدقت الممرضة هوبكنز النظر إليها .

وقالت : " هل رأيتها هكذا من قبل ؟ ما الذى أصابها يا ترى ؟ " .

٥

لم تكن إلينور قد سارت أكثر من بضع خطوات ـ وهى لا تزال تضحك ـ عندما لمست يد ذراعها من الخلف ، فتوقفت فجأة ثم استدارت .

كان الدكتور لورد ينظر فى وجهها مباشرة ، وقد انعقد حاجباه فى تكشيرة واضحة .

ثم قال بلهجة آمرة :

" ما الذى يضحكك هكذا ؟ " .

قالت إلينور :

" فى الواقع .... لست أدرى ".

قال بيتر لورد :

" هذا إجابة سخيفة فى الواقع " .

احمر وجه إلينور وقالت :

" لابد أننى أشعر بالعصبية ـ أو شىء كهذا . لقد نظرت من نافذة كوخ الممرضة هوبكنز ووجدت مارى جيرارد تكتب وصيتها ، ولقد جعلنى ذلك أضحك ؛ دون أن أدرى السبب ! " .

قال بيتر لورد بشكل مفاجئ :

" ألا تعرفين السبب حقاً ؟ " .

قالت إلينور :

" لقد كان تصرفاً سخيفاً من جانبى ـ كما قلت لك ـ أنا أشعر بالعصبية ".

قال بيتر لورد :

" سوف أكتب لك دواء مهدئاً " .

قالت إلينور بسخرية :

" هذا مفيد للغاية ! " .

ابتسم بيتر لورد ابتسامة مهدئة .

وقال : " أتفق معك أنه عديم الجدوى ، لكنه الشيء الوحيد الذى يمكن أن يصفه الطبيب عندما لا يصارحه المريض بما يعانى منه حقاً ! " .

قالت إلينور :

" أنا لا أعانى من أى شيء ".

قال بيتر لورد بهدوء :

" بل إنك تعانين من أشياء كثيرة ".

قالت إلينور :

" لابد أننى تعرضت لضغوط عصبية ، أظن أن هذا هو السبب .... " .

" أظن أنك تعرضت للكثير من الضغوط ، لكن هذا ليس ما أتحدث عنه " ، توقف للحظة ثم أردف :

" هل .... هل ستبقين هنا لوقت طويل ؟ " .

" سوف أغادر غداً ".

" ألن تعيشى فى هانتربيرى ؟ " .

هزت إلينور رأسها نفياً قائلة :

" كلا .... محال . أعتقد ....أعتقد أننى سأبيع المنزل إذا جاءنى عرض جيد ".

قال الدكتور لورد ببرود :

" فهمت .... " .

قالت إلينور :

" لابد أن أعود إلى المنزل الآن ".

مدت يدها مصافحة إياه فى ثبات ، فأمسك بيتر لـورد يدها بين يده وقال بجدية :

" آنسة إلينور ، هلا أخبرتنى من فضلك ماذا كان يدور بعقلك عندما كنت تضحكين منذ لحظات ؟ " .

انتزعت إلينور يدها من يده بسرعة .

وقالت : " وماذا يمكن أن يدور بعقلى ؟ " .

" هذا ما أود أن أعرفه ".

بدا وجهه متجهماً وقد علته مسحة قليلة من الحزن .

قالت إلينور بنفاد صبرٍ :

" لقد بدا الأمر مضحكاً بالنسبة لى ـ هذا هو كل ما فـى الأمر ! " .

" هـل مـن المـضحك أن تكتـب مـارى وصـية ؟ لمـاذا تعتقدين ذلك ؟ إنه تصرف عاقل ورزين للغاية ، وهو يوفر الكثير من المتاعـب ـ وأحيانـا أخـرى قـد يـسبب المتاعـب لبعض الناس بالطبع ! " .

قالت إلينور بحنق :

" بالطبع هو تصرف مسئول ـ ويجب على كل شخص أن يترك وصيته ، أنا لم أقصد ذلك ".

قال بيتر لورد :

" كان يجب على السيدة ويلمان أن تترك وصية ".

قالت إلينور بانفعال :

" نعم ، بالطبع ".

ثم تخضب وجهها بحمرة الخجل .

قال بيتر لورد فجأة :

" وماذا عنك ؟ " .

" أنا ؟ " .

" نعم ، لقد قلت منذ لحظة إن كل الأشخاص يجب أن يتركوا وصاياهم ! هل فعلت ذلك ؟ " .

حدقت إلينور النظر إليه للحظة ، ثم انفجرت فى الضحك .

وقالت : " يا له من سؤال غريب ! كلا ، لم أكتب وصية . لم أفكر بالأمر من قبل ، وربما أكون مثل عمتى لورا ، أتدرى يا دكتور لورد سوف أنطلق إلى المنزل الآن وأكتب للسيد سيدون بشأن هذا الأمر ".

قال بيتر لورد :

" تصرف معقول للغاية ".

٦

فى غرفة المكتبة ، انتهت إلينور من كتابة خطاب :

عزيزى السيد سيدون - هلا أرسلت إلىّ نموذج وصية كى اقوم بالتوقيع عليه ؟ ستكون الوصية بسيطة للغاية ، أريد أن اترك كل ما لدىّ إلى رودريك ويلمان .

صديقتك المخلصة ،

إلينور كارليل

نظرت إلينور إلى الساعة . سوف يغلق مكتب البريد أبوابه خلال دقائق معدودة .

فتحت درج المكتب ، ثم تذكرت أنها قد استخدمت آخر طابع بريدى لديها فى صباح ذلك اليوم .

كانت شبه متأكدة أن هناك بعض الطوابع فى غرفة نومها .

صعدت إلى الطابق العلوى ، وعندما عادت إلى غرفة المكتبة ، كان رودى يقف بجوار النافذة .

قال رودى :

" إذن سوف نغادر المنزل فى الغد ، أيها المنزل العزيز ؛ كم كانت لنا ذكريات جميلة فى أرجائك " .

قالت إلينور :

" هل تمانع فى بيع المنزل ؟ " .

" أوه ، كـــلا ، كـــلا ! إننـــى أعلـــم أنـــه القـــرار السليم " .

ساد الـصمت للحظـات ، التقطـت إلينـور الخطـاب ، وألقـت عليـه نظـرة أخـيرة لكـى تتأكـد ممـا كتبتـه ، ثـم وضعته داخـل المظـروف وأغلقـت المظـروف ولـصقت فوقـه طابع البريد .

الفصل ٦

خطاب من الممرضة أوبريان إلى الممرضة هوبكنز بتاريخ الرابع عشر من يوليو :

منزل لابورو كورت

عزيزتي هوبكنز . لقد كنت أعتزم الكتابة إليك منذ عدة أيام . إن منزل لابورو كورت منزل رائع وبه لوحات شهيرة للغاية ، لكنني لا أستطيع أن أدعي أنه في مثل راحة منزل هانتربيري . إذا كنت تفهمين ما أقصده . إن كون المنزل يقع في أقصى الريف يجعل من الصعب العثور على خادمات محترفات ، ولهذا فإن الفتيات اللاتي يعملن بالمنزل مبتدئات لا خبرة لهن ، وبعضهن غير حريصات على تقديم يد العون للآخرين ، ولذلك فأنا على يقين أن المتاعب لن تحدث بسببي أنا ، فالوجبات التي ترسل إلى المريض لا تسخن جيداً ، ولا توجد مواقد حديثة لتسخين غلايات المياه ، ولا يعد الشاي دائما بماء مغلي جيداً ! لكن كل هذه مجرد أمور تافهة لا تؤثر كثيرا عليّ ، فما يهمني هو أن المريض

رجل نبيل لطيف الطباع - وقد كان يعانى من التهاب رئوى حاد ، لكنه تخطى المرحلة الحرجة والطبيب يقول إنه سيكون بخير.

على كل حال ، فما أردت إخبارك به هى مصادفة من أغرب ما يمكن أن تتخيليه وإنى لواثقة أن تلك المصادفة ستثير اهتمامك بشدة . توجد فى حجرة الاستقبال - فوق البيانو الكبير - صورة موضوعة داخل إطار فضى ضخم ؛ وكم كانت دهشتى كبيرة عندما رأيت أنها نفس الصورة التى حدثتك عنها - تلك التى سألتنى عنها السيدة ويلمان والتى كتب على إطارها اسم لويس ! بالطبع أثار الأمر فضولى . ومن ذا الذى لا تثيره مصادفة كهذه ؟ وعلى الفور سألت كبير الخدم عمن يكون صاحب تلك الصورة ، فأجابنى فى التو أنها تخص السير لويس ريكروفت - شقيق السيدة روتيرى - والذى كان يعيش بمنزل قريب من هنا و لقى حتفه أثناء الحرب ، أمر محزن ، أليس كذلك ؟ ثم سألت كبير الخدم بشكل عارض إذا كان السير لويس قد تزوج فى حياته ، فأجابنى أنه كان متزوجا بالفعل لكن زوجته أُودعت مستشفى الأمراض العقلية بعد وقت قصير من الزواج ، وأنها لا تزال على قيد الحياة حتى الآن . ألا ترين أن الأمر مثير للاهتمام ؟ ولقد كنا - أنا وأنت - مخطئتين فى تلك الأفكار التى جالت بخاطرنا . لابد أن السير لويس والسيدة ويلمان كانا يحبان بعضهما البعض بشدة ولم يستطيعا الزواج بسبب وجود زوجته داخل المصحة ، تماما كما يحدث فى الأفلام ، أليس كذلك ؟ كم كان إخلاصاً كبيراً من قبل السيدة ويلمان أن تتذكره طيلة هذه السنوات وأن تحتفظ بصورته وتتطلع إليها حتى قبل وفاتها ،

لقد قال كبير الخدم إن السير لويس قد قتل فى عام ١٩١٧ .
يا لها من قصة رومانسية جميلة !

بالمناسبة ، هل شاهدت الفيلم الأخير للممثلة ميرنا لوى ؟ لقد علمت أنهم سيعرضونه فى سينما مادينسفورد هذا الأسبوع ، للأسف لا توجد أى دور سينما فى أى مكان قريب من هنا ! أوه ، كم هو بشع أن يظل المرء حبيساً فى هذا الريف الممل . لا عجب أنهم لا يستطيعون العثور على خادمات محترفات !

حسنا ، إلى اللقاء قريبا أيتها العزيزة ، اكتبى إلى واخبرينى بما لديك من أخبار .

صديقتك المخلصة
إيلين أوبريان

خطاب من الممرضة هوبكنز إلى الممرضة أوبريان بتاريخ الرابع عشر من يوليو :

منزل روس كوتاج

عزيزتى أوبريان - كل الأشياء هنا تسير حسب المعتاد . أصبح منزل هانتربيرى مهجوراً - وقد رحل عنه كل الخدم ووضعت لافتة كبيرة أمامه تقول : " للبيع " . لقد رأيت السيدة بيشوب منذ عدة أيام ، وهى تقيم مع أختها التى تعيش على بعد ميل من هنا ، وقد كانت منزعجة للغاية . كما هو متوقع بالطبع - بسبب عرض المنزل للبيع ، ويبدو أنها كانت متأكدة أن الآنسة إلينور كارليل سوف تتزوج السيد رودريك ويلمان ويستقران بالمنزل ، وقد قالت السيدة

بيشوب إن الخطبة قد فُسخت ، وقد يفسر هذا رحيل الآنسة إلينور إلى لندن بعد مغادرتك للمنزل بوقت بسيط ، وقد كانت تصرفاتها غريبة وغير مفهومة مرة أو مرتين ، إلى درجة أننى قد احترت فى تفسير هذا التقلب فى شخصيتها ! أما بالنسبة لمارى جيرارد ، فقد ذهبت إلى لندن وبدأت التدريب لكى تصبح خبيرة تدليك ، وهو تصرف عاقل جدا من جانبها ـ حسبما أظن . هذا وسوف تضع الآنسة إلينور ألفين من الجنيهات تحت تصرف مارى ، وهو مبلغ محترم وأكثر بكثير مما قد يفعله الكثير من الناس فى مثل تلك الظروف .

بالمناسبة ، كم أن كثيرًا من الأمور الغامضة تتضح بمحض الصدفة . هل تذكرين ما قلته لى بشأن الصورة الموضوعة داخل إطار والمذيلة باسم " لويس " والتى أظهرتها أمامك السيدة ويلمان ؟ لقد كنت أثرثر بالأمس مع السيدة سلاترى (لقد كانت مديرة منزل الطبيب العجوز رانسوم الذى كان يتولى علاج المرضى بالقرية قبل الدكتور لورد) ، وقد عاشت بالقرية طوال حياتها وتعرف الكثير عن أفراد الطبقة العليا . لقد فتحت الموضوع بطريقة عارضة ، حيث كنت أتحدث عن الأسماء ذات الأصول التاريخية وقلت ـ فى معرض كلامى ـ إن اسم " لويس " غير منتشر بهذه المنطقة ، ومن بين الأسماء التى عددتها لأشخاص يحملون هذا الاسم ، فقد ذكرت السير لويس ريكروفت الذى كان يقطن منزل فوربس بارك ، وقالت إنه كان يخدم فى الجيش أثناء الحرب وتحديدا فى الفرقة السابعة عشرة وقد لقى حتفه قبيل نهاية الحرب . وعند ذلك قلت لها : " لقد كان صديقا مقرّبا من السيدة ويلمان ، أليس كذلك ؟ "

وعلى الفور رمقتنى بنظرة غريبة وقالت : " نعم ، لقد كانا صديقين مقربين للغاية ، والبعض يتحدث أنهما كانا أكثر من مجرد صديقين ، ولكننى لست بالمرأة التى تهوى نهش الأعراض ـ رغم أننى لا أرى مانعاً فى كونهما صديقين حميمين " . فقلت لها : " لكن السيدة ويلمان كانت أرملة فى هذا الوقت " . فردت قائلة : " نعم ، لقد كانت أرملة " . وهكذا ـ يا عزيزتى ـ فهمت أنها تقصد شيئاً بكلامها هذا ، فقلت لها : " لكن أليس من الغريب أنهما لم يتزوجا ؟ " فردت على الفور : " ما كانا ليستطيعا الزواج . فقد كان السير لويس متزوجاً ، كانت زوجته مودعة فى إحدى المصحات العقلية ! " والآن ، أرأيت يا عزيزتى ، لقد صرنا نعرف الموضوع بالكامل ! كم هو مثير للفضول كيف تكشفت الأمور بهذه الطريقة ، ألا تتفقين معى ؟ عندما ينظر المرء إلى سهولة الحصول على الطلاق فى حالات جنون أحد الزوجين ، يشعر بالأسى أن تلك الإجراءات لم تكن مطبقة فى تلك السنوات الماضية .

هل تذكرين شاباً وسيماً يدعى تيد بيجلاند ـ ذلك الذى كان يحوم حول مارى جيرارد فى كل مكان ؟ لقد جاءنى طالباً عنوانها فى لندن ، لكننى لم أعطه له ، ورأيى الشخصى هو أن مارى أرقى مستوى من ذلك الشاب ، تيد بيجلاند ، لا أدرى إن كنت قد لاحظت الأمر يا عزيزتى ، لكن السيد رودريك ويلمان كان معجبا بها للغاية ، لكن مع الأسف فقد سبب ذلك الإعجاب متاعب لكليهما ، وما أنا على يقين منه هو أن ذلك كان السبب الرئيسى فى فسخ خطبته للآنسة إلينور كارليل ، وإذا أردت رأيى ، فقد كان

ذلك صدمة مؤلمة للآنسة إلينور . أنا لا أدرى ماذا يعجبها فيه ـ حيث إننى لا أرى فيه أية ميزة تذكر ، لكننى سمعت من مصادر عليمة أنها كانت دائما غارقة فى حبه . كم تبدو كل الأمور مشوشة ، الا ترين ذلك ؟ وهناك أيضاً مسألة الأموال التى ورثتها الآنسة إلينور . إننى أعتقد أن السيد رودريك كان يتوقع دوماً أن تترك له عمته حصة جيدة من الثروة .

إن صحة العجوز جيرارد ـ والد مارى ـ فى تدهور سريع ، وقد عانى من نوبات دوار مرضية شديدة ، لكنه لا يزال وقحاً حاد الطباع كعادته . لقد قال لى بالأمس القريب إن مارى ليست ابنته ، فرددت قائلة : " لقد كنت لأشعر بالعار لمجرد أن أقول كلاماً مثل هذا بحق زوجتى ـ لو أننى كنت فى موضعك بالطبع " . فنظر إلى وقال : " أنت مجرد امرأة حمقاء ولا تفهمين شيئا " ، رغم أن ردى عليه كان مهذباً ، إلا أننى أعتقد أننى قد أفحمته بشدة ، والغريب أن زوجته كانت الخادمة الخاصة بالسيدة ويلمان قبل زواجها منه .

لقد شاهدت فيلم " الأرض الطيبة " فى الأسبوع الماضى ، وقد كان فيلما رائعا ! ويبدو أن النساء يعانين من أوضاع اجتماعية صعبة فى الصين .

صديقتك المخلصة

جيسى هوبكنز

بطاقة بريدية من المرضة هوبكنز إلى المرضة أوبريان :

كم هو غريب أن يصل خطابانا فى نفس التوقيت هكذا !
ألا تتفقين معى أن الطقس حالياً سيئ للغاية ؟

بطاقة بريدية من الممرضة أوبريان إلى الممرضة هوبكنز:

وصلنى خطابك هذا اليوم . يا لها من مصادفة غريبة !

خطاب من رودريك ويلمان إلى إلينور كارليل بتاريخ الخامس عشر من يوليو :

عزيزتى إلينور - وصلنى خطابك تواً ، وأود أن أقول لك إننى لا أشعر بأى حزن حيال بيعك لمنزل هانتربيرى ، وقد كان لطفاً من جانبك أن تستشيرينى فى الأمر ، أعتقد أنك تقومين بالتصرف العقلانى إذا لم يكن لديك أية رغبة فى العيش هناك ، ومن الواضح أنك لا ترغبين بذلك - رغم أننى أعتقد أنك قد تجدين صعوبة فى التخلص من المنزل ، حيث إنه منزل كبير للغاية بالنسبة لاحتياجات هذه الأيام ، على الرغم من كونه منزلاً حديثاً ومتمدناً ويتوافر فيه غرف للخدم وخدمات الكهرباء والغاز وكل هذه الأمور . على أى حال ، أتمنى لك حظاً سعيداً فى بيعه !

إن الحرارة هنا رائعة للغاية ، وأنا أقضى ساعات طويلة على الشاطئ . هناك ازدحام غريب ومتنوع من البشر ، لكنى لا أختلط بهم كثيرا . لقد أخبرتنى مرة أننى لا أجيد الاختلاط بالناس ، وأخشى أن هذا صحيح للأسف . إننى

أجد معظم البشر مثيرين للاشمئزاز ، وأعتقد أنهم يشعرون بما أحسه تجاههم عندما نتحادث .

لقد شعرت منذ زمن بعيد أنك أحد الأشخاص القلائل الذين يمثلون البشرية بشكلها الحقيقى ، أنا أفكر بالتجول حول ساحل دالماشين لأسبوع أو اثنين ، ومن تاريخ الثانى والعشرين من يوليو فصاعداً ، يمكنك توجيه الخطابات إلى العنوان التالى : سى . أو . توماس كوك ، دوبروفنيك . برجاء أن تكتبى إلىّ ، إذا كان هناك ما يمكننى فعله من أجلك .

المخلص والمعجب والممتن دائما ،

رودى

خطاب من السيد سيدون ـ من مكتب بلاثريك وسيدون للمحاماة ـ إلى الآنسة إلينور كارليل ، بتاريخ العشرين من يوليو :

١٠٤ ميدان بلومسبيرى

عزيزتى الآنسة إلينور كارليل ـ إننى أعتقد أن عليك قبول عرض الميجور سوميرفيل لشراء منزل هانتربيرى نظير اثنى عشر ألفاً وخمسمائة جنيه (١٢,٥٠٠) . إن المنازل ذات الأحجام الكبيرة من الصعب بيعها فى هذه الأيام ، وأنا أعتقد أن المبلغ المعروض أكثر من جيد ، لكنه مشروط بتسليم المنزل فى التو ، وأنا أعلم أن الميجور سوميرفيل قد تفقد أكثر من منزل فى المنطقة ، ولذلك أقترح عليك قبول العرض حالاً .

ولقد فهمت أن الميجور سوميرفيل مستعد لتأجير المنزل بالأثاث الموجود فيه لمدة ثلاثة شهور ، وفى خلال هذه المدة ستكون الإجراءات القانونية قد تمت وحينها تتم عملية البيع بشكل نهائى .

أما فيما يتعلق بالحارس العجوز - جيرارد - ومسألة تخصيص معاش من أجله ، فقد أخبرنى الدكتور لورد أن الرجل مريض بشدة ولا يتوقع له أن ينجو من المرض .

لم تتم تسوية كافة الإجراءات القانونية بعد ، لكننى أرسلت مبلغ مائة جنيه للآنسة مارى جيرارد إلى حين الانتهاء من التسويات القانونية .

خادمكم المخلص ،

إدموند سيدون

خطاب من الدكتور لورد إلى الآنسة إلينور كارليل ، بتاريخ الرابع والعشرين من يوليو :

عزيزتى الآنسة إلينور - لقد توفى الحارس جيرارد هذا اليوم . هل هناك ما يمكننى فعله من أجلك ؟ لقد علمت أنك قد بعت منزل هانتربيرى إلى الميجور سوميرفيل - نائبنا الجديد لدى البرلمان .

المخلص

بيتر لورد

خطاب من إلينور كارليل إلى مارى جيرارد ، بتاريخ الخامس والعشرين من يوليو :

عزيزتى مارى ـ أنا فى شدة الأسى لسماع نبأ وفاة والدك .

لقد تلقيت عرضا لشراء منزل هانتربيرى من الميجور سوميرفيل ، وهو متلهف جداً لتسلم المنزل فى أسرع وقت ممكن ، ولذلك سوف أذهب إلى هناك للبحث عن مستندات عمتى الراحلة وإخلاء كل المتعلقات الخاصة بها من المنزل بشكل عام . هل من الممكن أن تقومى بنقل متعلقات والدك من الكوخ بأسرع وقت ممكن ؟ أتمنى أن تكونى بخير وأنك لا تشعرين بالملل من تدريبات التدليك .

صديقتك المخلصة ،

إلينور كارليل

خطاب من مارى جيرارد إلى الممرضة هوبكنز ، بتاريخ الخامس والعشرين من يوليو :

عزيزتى الممرضة هوبكنز ـ شكراً جزيلاً أنك قد كتبت لى بشأن وفاة والدى ، وأنا أشعر بالسعادة لأنه لم يعان كثيرا . لقد كتبت إلى الآنسة إلينور لتخبرنى أن المنزل قد بيع ولكى تطلب منى إخلاء الكوخ من متعلقات والدى بأسرع وقت ممكن . هل يمكنك استضافتى عندما أحضر غدا من أجل الجنازة ؟ لا داعى لأن ترسلى لى رداً إذا لم يكن لديك ما يمنع .

صديقتك المخلصة ،

مارى جيرارد

الفصل ٧

خرجت إلينور من فندق " كينج آرمس " فى صبيحة يوم الثلاثاء ، الموافق السابع والعشرين من يوليو ، ثم وقفت لدقيقة أو اثنتين تنظر إلى يمين ويسار الشارع الرئيسى فى مادينسفورد .

وفجأة ، عبرت الشارع وقد ارتسم على ملامحها تعبير بالسرور والابتهاج .

لم يكن هناك شك فى شخصية تلك المرأة الضخمة ، ذات الحضور المهيب التى كانت تسير فى كبرياء شديد كأنها سفينة شراعية تبحر فى أمواج بحر هادئ .

نادت إلينور : " سيدة بيشوب " .

" يا إلهى ، الآنسة إلينور ! يا لها من مفاجأة سارة ! لم يكن لدىّ علم بوجودك فى المدينة ! لو علمت بحضورك إلى هانتربيرى ، لحضرت إلى هناك لأستقبلك بنفسى ! هل أحضرت معك أحدًا من لندن ؟ " .

هزت إلينور رأسها نفياً وقالت :

" أنا لا أقيم فى المنزل ، بل فى فندق كينج آرمس " .

نظرت السيدة بيشوب إلى الناحية الأخرى من الشارع فى تشكك .

ثم قالت موافقة : " سمعت أن الإقامة معقولة فى هذا الفندق ، حيث إنه مكان نظيف والطعام فيه جيد ، لكنى لا أعتقد أنه من مستوى الفنادق التى اعتدت على الإقامة فيها يا آنسة إلينور " .

قالت إلينور وهى تبتسم :

" أنا مرتاحة جدا فى الإقامة هناك ، فأنا لن أبقى سوى يوم أو يومين ؛ لأننى مضطرة إلى تسوية بعض الأمور بالمنزل ، ولهذا سأقوم بنقل كل المتعلقات الشخصية الخاصة بعمتى ؛ وهناك بعض قطع الأثاث التى أود نقلها إلى منزلى فى لندن " .

" إذن فقد بعت المنزل بالفعل ؟ " .

" نعم ، بعته للميجور سوميرفيل ، نائبنا البرلمانى الجديد ، فقد توفى السير جورج كير - كما تعلمين - وكانت هناك انتخابات مبكرة لاختيار عضو جديد للبرلمان عن المقاطعة " .

قالت السيدة بيشوب بغرور : " لقد فاز الميجور بالتزكية ، فلم يكن هناك من قبل نائب عن مقاطعة مادين فورد من خارج حزب المحافظين " .

قالت إلينور :

" أنا سعيدة أن هناك شخصاً قد اشترى المنزل ويريد أن يعيش فيه ، وكنت سأحزن كثيرا لو أن المشترى أراد هدمه أو تحويله إلى فندق " .

أغلقت السيدة بيشوب عينيها وارتجف جسدها الارستقراطى الممتلئ ارتجافة شديدة .

ثم قالت : " نعم ، كان ذلك سيكون أمرًا مفجعاً .... أمرًا مفجعاً للغاية ، بل إن التفكير فى انتقال منزل هانتربيرى إلى أيدٍ غريبة هو فى ذاته أمر محزن " .

قالت إلينور :

" نعم ، ولكن المنزل ـ كما تعلمين ـ كبير جدًا ومن الصعب أن أعيش فيه .... بمفردى " .

لم ترد السيدة بيشوب بشىء .

قالت إلينور بسرعة :

" لقد كنت أريد أن أسألك شيئاً : أهناك قطعة أثاث تودين الحصول عليها ؟ سوف أكون سعيدة بأن أعطيها لك ـ إن كنت تريدين ذلك " .

أشرق وجه السيدة بيشوب ، وقالت بوقار :

" حسناً ، هذا لطف بالغ من قبلك يا آنسة إلينور ، وإن لم يكن فى الأمر تجاوز للأدب ..... ؟ " .

ثم توقفت ، فقالت إلينور :

" أوه ، كلا ، على الإطلاق " .

" لقد كنت دائماً متعلقة بطاولة الكتابة الموجودة فى الصالون ، إنها طاولة جميلة للغاية " .

تذكرت إلينور الطاولة ، فقد كانت قطعة أثاث من الخشب الأحمر المزين والمطعم بالصدف ، فقالت بسرعة :

" بالطبع سوف تحصلين عليها يا سيدة بيشوب أهناك شيء آخر ؟ " .

" كلا يا آنسة إلينور ، لقد كنت كريمة جداً معي بالفعل " .

قالت إلينور :

" هناك بعض المقاعد المصنوعة والمزينة على شاكلة الطاولة ، أتودين الحصول عليها ؟ " .

تقبلت السيدة بيشوب عطية الآنسة إلينور بامتنان وشكر شديد ، ثم قالت شارحة ظروفها :

" إنني أقيم الآن مع شقيقتي ، أهناك ما يمكنني المساعدة فيه بالمنزل يا آنسة إلينور ؟ يمكنني أن أرافقك إلى هناك ، لو أردت " .

" كلا ، شكرا لك " .

كانت إلينور تتحدث بسرعة وعلى نحو مفاجئ .

قالت السيدة بيشوب :

" أؤكد لك أنه ليس هناك أية متاعب في قيامي بذلك - بل هي متعة لي أن أساعدك ، فأنا أعلم أن مراجعة متعلقات السيدة ويلمان أمر يقلّب الأحزان ويثير الكآبة " .

قالت إلينور :

" شكرا لك يا سيدة بيشوب ، لكنى أفضل القيام بهذا الأمر وحدى ، فهناك أمور من الخير أن يقوم بها المرء بمفرده ... " .

ردت السيدة بيشوب باقتضاب :

" بالطبع ، كما تشائين " .

ثم أردفت تقول :

" إن ابنة الراحل جيرارد موجودة بالقرية ، فقد كانت جنازة أبيها بالأمس ، وهى تقيم لدى المرضة هوبكنز ، وسمعت أنهما ذاهبتان إلى الكوخ الصيفى هذا الصباح " .

أومأت إلينور برأسها وقالت :

" نعم ، لقد طلبت من مارى أن تحضر وتنقل متعلقات أبيها من الكوخ ؛ لأن الميجور سوميرفيل يريد الانتقال إلى المنزل بأسرع وقت ممكن " .

" فهمت " .

قالت إلينور :

" حسنا ، يجب أن أذهب الآن . أنا سعيدة أننى قابلتك يا سيدة بيشوب ، وسوف أتذكر أن أترك لك طاولة الكتابة والمقاعد التى تريدينها " .

ثم صافحت السيدة بيشوب وانطلقت فى طريقها .

دلفت إلينور إلى الخبّاز واشترت رغيف عيش ، ومن بعدها إلى بائع اللبن وابتاعت بعض الزبد واللبن .

وأخيرا دخلت إلى متجر البقّال .

وقالت : " أريد بعض المعجنات لعمل الشطائر من فضلك " .

اندفع السيد آبوت ــ صاحب المتجر ــ بنفسه إلى الأمام ، مزيحًا مساعده الشاب إلى الوراء ، وقال : " بالطبع يا آنسة كارليل " .

ثم أردف : " ماذا تريدين تحديدا ؟ سالمون وجمبرى ؟ ديك رومى وتونة ؟ سالمون وسردين ؟ فخذ ضأن مملح وتونة ؟ " .

ثم انطلق يفتح الأوعية ، واحدًا بعد الآخر ، وقام بوضعها فى صف واحد فوق طاولة البيع .

قالت إلينور بابتسامة باهتة :

" على الرغم من أسمائها المختلفة ، إلا أننى أظن أن لها جميعاً نفس المذاق " .

وافقها السيد آبوت على الفور :

" حسناً ، ربما تكون كذلك بطريقة ما ، لكن مذاقها لذيذ ... لذيذ للغاية " .

قالت إلينور :

" لقد كنت دائما أخشى تناول عجائن السمك ، فلقد كانت هناك حالات تسمم بمادة التومين بسبب تلك المعجنات ، أليس كذلك ؟ " .

وضع السيد آبوت تعبير اندهاش فوق وجهه .

وقال : " يمكننى أن أؤكد لك أننا نبيع نوعية ممتازة ومحل ثقة ـ ولم نتلق مطلقا أى شكوى بسببها " .

قالت إلينور :

" سوف أخذ عجينة سالمون وأنشوجة وعجينـة سـالمون وجمبرى ، شكرا لك " .

٢

دخلـت إلينـور كارليـل حديقـة منـزل هـانتربيرى مـن البوابة الخلفية .

كان يوما حارًا ومشمسًا من أحد أيـام الـصيف ، وكـان نباتات اللبلاب المعطر قـد انتـشرت زهورهـا ، وقـد مـرت إلينور بجوار صف منها ، ثـم حيّاهـا هورليـك ـ البـستانى الذى بقى فى العمل من أجل الاعتناء بالحديقة ـ بـاحترام شديد .

" صباح الخير يا آنسة ، لقد وصلنى خطابك ، وسوف تجدين الباب الجانبى للمنزل مفتوحاً ، وكذلك فقـد قمـت بإزاحة الستائر وفتح كل النوافذ " .

قالت إلينور :

" شكرا لك يا هورليك " .

وبينمـا بـدأت إلينـور تتحـرك مبتعـدة ، قـال الـشاب بعصبية ـ وقد بدت حنجرته تعلو وتهبط بشكل متشنج :

" عذرا يا آنسة ... " .

استدارت إلينور وقالت : " ماذا هناك ؟ " .

" هل صحيح أن المنزل قد بيع ؟ أقصد هل انتهت إجراءات البيع بالفعل ؟ " .

" آوه ، نعم ! " .

قال هورليك بعصبية :

" كنت أتساءل يا سيدتي إن كان من الممكن أن تزكيني ... أقصد عند الميجور سوميرفيل ، فلابد أنه سيريد الاستعانة ببستاني ، وربما يظن أنني صغير السن ولا أصلح لمنصب كبير البستانيين ، لكنني قد عملت مساعدًا للسيد ستيفنس لمدة أربع سنوات ، وأعتقد أنني أجيد أعمال تزيين الحدائق إلى حد ما ، وقد حافظت على مستوى الحديقة منذ بقيت وحدى أعتنى بالأمور هنا " .

قالت إلينور بسرعة :

" بالطبع سوف أفعل ما أقدر عليه من أجلك يا هورليك ، بل إنني في الواقع كنت أعتزم التحدث بشأنك مع الميجور سوميرفيل وإخباره أنك بستاني ماهر للغاية " .

احمر وجه هورليك خجلا .

وقال : " شكرًا لك يا آنسة ، هذا لطف بالغ من قبلك ، أظن أنك تتفهمين كم كان الأمر أشبه بانتكاسة مفاجئة ، أقصد مسألة موت السيدة ويلمان ، وبيع المنزل بسرعة ، ولب المشكلة هو أنني سأتزوج في الخريف القادم ، وأردت أن أتأكد أنني .... " .

ثم توقف هورليك ولم يكمل جملته .

قالت إلينور بعطف :

" أتمنى أن يستعين بك الميجور سوميرفيل ، ويمكنك أن تطمئن أننى سأفعل كل ما أستطيع من أجلك " .

قال هورليك :

" شكرا لك يا آنسة ، لقد كنا جميعاً نتمنى أن يظل المنزل فى ملكية العائلة ، أكرر شكرى " .

أكملت إلينور سيرها نحو المنزل .

وفجأة اجتاحتها موجة من الغضب ، وثورة من الاستياء ، وكأن طوفانا غمرها من خلف سد مكسور .

" لقد كنا جميعا نتمنى أن يظل المنزل فى ملكية العائلة ...." .

كان من المفترض أن تعيش ـ هى ورودى ـ فى هذا المنزل ! *هى ورودى* .... رودى كان يريد ذلك ، وهى نفسها كانت تريد ذلك أيضا ، فلقد أحبا منزل هانتربيرى ـ كلاهما . منزل هانتربيرى العزيز ... لقد كانت تأتى إلى هنا خلال الأعياد ، فى السنوات التى سبقت وفاة والديها ، حين كان والداها فى الهند . كم مرة لعبت فى الغابة الصغيرة المحيطة بالمنزل ، وكم تنزهت بجوار الجدول الصغير ، وكم جمعت من زهور اللبلاب المعطر ملء يديها ، وكم أكلت عناقيد العنب الأخضر وحبات التوت الأسمر والأحمر اللذيذ ، ولاحقا كانت هناك التفاحات الصغيرة التى كانت تقطفها ، وكم كان لها من

أماكن ومخابئ سرية ، تجلس متكورة فيها وتقرأ كتبها لساعات وساعات .

لكم أحبت هانتربيرى ، وكانت تشعر فى أعماق قلبها بيقين مطلق أنها ـ يوما ما ـ سوف تعيش فى هانتربيرى بشكل دائم ، ولقد كانت عمتها لورا تغذى هذه الفكرة فى رأسها ، وكانت تقول لها عبارات وتلميحات مثل :

" قد تودين يا إلينور في يوم ما تقصير تلك الشجيرات الظليلة ، فإن لها وقعًا يجلب الكآبة على النفس ... ربما في يوم ما ! " .

" ربما من الأفضل أن يقيم المرء حديقة مائية فى هذا المكان . ربما تقومين أنت بذلك في يوم ما " .

ورودى أيضا كان يتطلع أن يعيش فى هانتربيرى إلى الأبد . ربما كان ذلك سببا لارتباطه بها ـ إلينور . ربما أحس ـ دون وعى ـ أنه من المناسب والسليم أن يعيش كلاهما سويا فى هانتربيرى .

ولعلهما كانا ليعيشا سويا فى هذا المنزل بالفعل ... وربما كانا معا فى هذه اللحظة وفى هذا المكان ـ ليس من أجل إخلاء المنزل بعد بيعه ، ولكن من أجل إعادة تحديثه ، أو لكى يخططا لبناء أماكن جميلة أخرى فى المنزل والحديقة ، أو يمشيا جنباً إلى جنب فى جنبات أملاكهما باستمتاع وسعادة .... نعم ، سعادة فى كونهما معا ـ لكن ذلك كله قد انتهى فى يوم مشئوم ، عندما وقعت عينا رودى على جمال تلك الفتاة ....

ما الذى كان رودى يعرفه عن مارى جيرارد ؟ لا شيء ... بل أقل من لا شيء ! ما الذى جذبه إليها وجعله يهتم بها ــ يهتم بمارى الحقيقية ؟ ربما كان لديها صفات تستحق الإعجاب ، لكن ، أكان رودى يعلم أى شيء عن تلك الصفات ؟ لقد كانت مجرد تكرار لتلك القصة القديمة قدم الأزل ـ انجذاب عاطفى ساذج !

ألم يقل رودى بنفسه أن شعوره تجاه مارى كان عبارة عن " سحر وافتتان " ؟ ألم يكن رودى نفسه يرغب فى أن يتحرر من انجذابه إليها ؟

أوليس إذا انزاحت مارى جيرارد من الطريق ـ كأن تموت مثلاً ـ لكان رودى قد أدرك حقيقة الأمر واعترف لنفسه فى يوم ما : " لقد كان موتها خيرًا للجميع ، ولقد صرت أدرك ذلك الآن ، وتجلت أمامى حقيقة أنه لم يكن بيننا أى شيء مشترك .... " .

وربما أضاف فى شعور رقيق بالحزن :

" لقد كانت مخلوقة لطيفة .... " .

لتكن مارى هكذا من أجله ـ مجرد ذكرى جميلة ـ شيء يمثل الجمال والمرح يعيش فى مخيلته إلى الأبد ...

لو أن مصيبة أصابت مارى جيرارد ، فإن رودى سيعود إليها ـ إلى إلينور ... إنها واثقة للغاية من تلك الحقيقة !

لو أن مصيبة أصابت مارى جيرارد ....

أدارت إلينور مقبض الباب الجـانبى ، ثـم عـبرت مـن خلال ضوء الشمس الدافئ إلى ظلام المنزل البـارد ، وارتعـد جسدها .

كان المكان باردًا ، مظلمًا ، كئيبًا .... وكـأن شـيئاً مـا ينتظرها داخل المنزل ....

سارت إلينـور عـابرة الردهـة ثـم دفعـت بيـدها البـاب الخشبى المؤدى إلى حجرة المؤن .

كانـت هنـاك رائحـة عفنـة تفـوح قليـلاً فـى المكـان ، فدفعت إلينور النوافذ ، حتى فتحتها على مصاريعها .

ثـم وضـعت الأشـياء التـى كانـت تحملـها - الزبـد ، والخبز ، وزجاجة اللبن الصغيرة ، ثم قالت لنفسها :

" يا للغباء ! لقد نسيت أن أحضر بُناً للقهوة " .

نظرت إلى العلب الصغيرة المصفوفة علـى الـرف ، كـان هناك القليل من الشاى ، لكن لم يكن هناك أى بُن .

قالت تحادث نفسها : " حسناً ، الأمر لا يهم " .

ثم فضت غـلاف العبـوتين الـصغيرتين اللـتين تحمـلان عجينة السمك .

وقفت تحدق النظر إلى العبـوتين للحظـة ، ثـم غـادرت حجـرة المـؤن وصـعدت إلى الطـابق العلـوى ، متجهـة إلى حجرة السيدة ويلمان مباشرة ، ومـا إن دلفـت إلى الـداخل حتـى اتجهـت إلى خزانـة الأدراج ، تفـتح درجـاً بعـد الآخر ، تفصل محتوياتها ، وتعيـد تنظيمهـا ، ثـم تطـوى الملابس فى أكوام صغيرة ....

٣

كانت مارى جيرارد تنظر فى أرجاء الكوخ وهى تشعر بالعجز .

لم تكن تدرك من قبل كم أن الأشياء تتراكم هكذا بداخله .

ثم مرت حياتها السابقة أمام عينيها كشريط سينمائى يدور بالعرض السريع ، فها هى أمها تصنع لها عرائس من القماش ، وها هو أبوها غاضب وفظ دائما ، وكأنه يكرهها . نعم ، يكرهها ....

ثم قالت للممرضة هوبكنز فجأة :

" ألم يقل أبى أى شىء ــ ألم يرسل لى أية رسائل قبل وفاته ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز بهدوء :

" أوه ، كلا . لقد فقد الوعى لساعة كاملة قبل وفاته " .

قالت مارى ببطء :

" أشعر أنه ربما كان من الواجب أن آتى وأتولى رعايته ، فهو والدى على كل حال " .

قالت الممرضة هوبكنز بمسحة من الإحراج :

" أنصتى إلىّ الآن يا مارى : سواء كان والدك أو لم يكن فهذا لا يمس الأمر من قريب أو بعيد ، فالأبناء لا

يهتمـون بآبـائهم كـثيرا هـذه الأيـام . ومما أراه وأعرفـه جيدا ، فإن كثيرا من الآباء والأمهات الطيـبين لا يهتمـون بأطفالهم أيضا ، إن الآنسة لامبرت ـ التى تعمل معلمة فى المدرسة الثانوية ـ تقول إن هذا هو ما يجب أن تكون عليـه العلاقة بين الوالـدين والأبنـاء ، وطبقـا لما تعتقـده ، فـإن الأسرة هـى كيـان خـاطئ تماماً . وإن الأطفـال يجـب أن يربوا عـن طريـق الدولـة ، ورغـم أننـى أرى أن مـا تقولـه الآنسة لامبرت مجرد تمجيد سخيف لليتم ، إلا أننى أرى أن استرجاع ذكريات الماضى والبكاء علـى اللـبن المسكوب مجرد مضيعة للوقت ، وأننا بدلا من ذلك يجب أن نكمـل مسيرة حياتنا ، تلك هى وظيفتنا الحقيقية ، وهـى ليـست بالوظيفة الهينة فى كثير من الأحيان ! " .

قالت مارى ببطء :

" أظن أنك علـى حـق ولكنـى أشـعر أن سـوء علاقتـى بوالدى ربما كانت خطئى أنا " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" هراء " .

خرجت الكلمة من فمها بصوت مدو .

كانت حدة نبرتها كفيلة بإسكات مارى ، ثـم وجهـت الممرضة هوبكنز دفة الحديث إلى موضوعات أكثر عملية .

فقالت : " ما الذى تنوين أن تفعليه بشأن الأثاث ؟ هل ستخزنينه ؟ أم ستبيعينه ؟ " .

قالت مارى متشككة :

" لا أدرى ، ماذا تعتقدين أنه يجب أن أفعل ؟ " .

قلبت المرضة هوبكنز الأمر فى رأسها ، ثم قالت :

" بعض الأثاث بحالة جيدة ، يمكنك تخزينه واستخدامه فى فرش شقة خاصة بك فى لندن فى يوم من الأيام ، ولكن عليك أن تتخلصى من الأثاث التالف ، تبدو المقاعد بحالة جيدة وكذلك تلك الطاولة ، وهناك أيضاً ذلك المكتب ، إنه يبدو عتيق الطراز ، لكنه مصنوع من الخشب الماهوجنى الفاخر ، ويقولون إن طرازات العصر الفيكتورى ستعود موضة شائعة فى وقت قريب ، ولو كنت مكانك ، لتخلصت من خزانة الملابس الرئيسية ، فهى كبيرة جداً ولا يمكن وضعها فى أى مكان مناسب ، حيث إنها تحتل نصف مساحة حجرة النوم الحالية " .

قامت المرأتان بكتابة قائمة بالأشياء التى يجب الاحتفاظ بها والأشياء التى يجب التخلص منها .

قالت مارى :

" لقد كان السيد سيدون ، المحامى ، لطيفاً جداً معى ، حتى إنه قد أعطانى دفعة مقدمة من المال من أجل أن أسدد مصروفات التدريب وبقية النفقات الضرورية ، وقد قال إن الأمر سيستغرق شهراً كاملاً قبل أن أتسلم الأموال بالكامل " .

قالت المرضة هوبكنز :

" ما رأيك فى عملك الجديد ؟ " .

" أظن أننى سأحبه كثيراً ، رغم أنه قد بدا متعباً فى البداية مما جعلنى أشعر بإرهاق شديد " .

قالت الممرضة هوبكنز بجدية :

" لقد عانيت الأمرّين عندما كنت أتدرب لكى أصبح ممرضة فى مستشفى سانت لوكس وشعرت أننى لن أستطيع أبداً أن أنهى الثلاث سنوات مدة التدريب ، ولكننى تمكنت من ذلك " .

كانت المرأتان قد انتهيتا من طى ملابس والد مارى الراحل ، ثم توجهتا بعد ذلك إلى صندوق صغير يمتلئ ببعض الأوراق والمستندات .

قالت مارى :

" أظن أننا يجب أن نتفقد تلك الأوراق " .

جلست المرأتان على طرفى الطاولة .

ثم زمجرت الممرضة هوبكنز وهى تبدأ فى قراءة كومة من الأوراق قائلة :

" كم هو عجيب ما يحتفظ به الناس من أوراق تافهة ! مقتطفات من جرائد قديمة وخطابات عفى عليها الدهر وأشياء أخرى لا حصر لها ! " .

قالت مارى وهى تفض أحد المستندات :

" ها هى وثيقة زواج والدى ووالدتى فى بلدية سانت ألابانس فى عام ١٩١٩ " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" قسيمة زواج ، هذا هو المصطلح القديم . ولا يزال الكثير من الناس فى هذه القرية يستخدمون هذا المصطلح " .

قالت مارى فى صوت مختنق :

" ولكن يا سيدتى .... " .

" ماذا هناك يا مارى ؟ " .

قالت مارى فى صوت مرتجف :

" ألا ترين الأمر المحير ؟ إننا الآن فى عام ١٩٣٩ ، وأنا أبلغ من العمر ٢١ عاماً ، وفى عام ١٩١٩ كان عمرى عاماً واحداً ، وهذا يعنى .... يعنى أن أبى وأمى لم يتزوجا إلا بعد ولادتى " .

ظهر العبوس على وجه الممرضة هوبكنز ، ثم قالت بنبرة قوية :

" حسناً ، وماذا فى الأمر ؟ ليس من المفروض أن تقلقى نفسك بأمور كهذه فى الوقت المبكر من النهار ! " .

" ولكن يا سيدتى ، لا أستطيع أن أصرف فكرى عن هذه المسألة " .

قالت الممرضة هوبكنز بنبرة آمرة :

" هناك الكثير من الأزواج لا يحررون عقود الزواج إلا فى وقت متأخر عن الوقت المفروض ، ولكن طالما أنهم يفعلون ذلك فى النهاية ، فما هى المشكلة ؟ على العموم هذا هو رأيى فى الأمر ! " .

قالت مارى فى صوت خفيض :

" هل تعتقدين أن هذا هو السبب الذى جعل أبى لا يحبنى مطلقاً ؟ ربما لأن والدتى قد/جبرته على الزواج منها " .

ترددت الممرضة هوبكنز فى الرد قليلاً ، وعضت على شفتها السفلى ، ثم قالت :

" لا أظن أن الأمر تم على هذا النحو " ثم صمتت للحظة وأردفت : " حسناً ، إذا كنت سوف تشغلين نفسك بهذا الأمر ، فربما من الأفضل أن تعلمى الحقيقة : أنت لست ابنة جيرارد على الإطلاق " .

قالت مارى :

" إذن ، فهذا هو السبب ! " .

قالت الممرضة هوبكنز : " ربما " .

قالت مارى ، وقد تضرجت وجنتاها خجلاً بشكل مفاجئ :

" أظن أنه من الخطأ أن أشعر بالسعادة ، ولكننى أشعر بها بالفعل ، فلقد كنت دائماً أشعر بعدم الارتياح بسبب عدم اهتمامى بأبى ، لكن بما أنه لم يكن أبى بالفعل ، فإننى أظن أن هذا يجعل عدم اهتمامى به أمرًا طبيعياً ! ولكن كيف عرفت بالأمر يا سيدتى ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" لقد كان جيرارد فى لحظات احتضاره ، ولقد كنت أحاول إسكاته ولكنه لم يكن يتوقف عن الكلام ، وما كان

يجب علىّ أن أخبرك بالأمر على الإطلاق لو أنك لم تعثرى على وثيقة الزواج ' .

قالت مارى ببطء :

" أتساءل من هو والدى الحقيقى .... " .

ترددت الممرضة هوبكنز فى الرد ، ففتحت فمها ثم أغلقته مرة أخرى وقد بدا أنها تجد صعوبة فى حسم أمرها .

ثم ظهر ظلٌ فى داخل الغرفة ، فاستدارت المرأتان تنظران إلى الخلف ، فوجدتا إلينور كارليل تقف خلف النافذة .

قالت إلينور :

" صباح الخير " .

فردت الممرضة هوبكنز :

" صباح الخير آنسة إلينور ، إنه يوم بديع ، أليس كذلك ؟ " .

وقالت مارى :

" صباح الخير آنسة إلينور " .

قالت إلينور :

" لقد كنت أصنع بعض الشطائر ، هل تودان القدوم وتناول بعضها ؟ الساعة الآن الواحدة ، لِمَ لا تأتيان معى إلى المنزل وتتناولان معى طعام الغداء ؟ لقد أعددت من الشطائر ما يكفى لثلاثة أفراد " .

قالت الممرضة هوبكنز بسرور :

" حسناً ، يجب أن أقول إن هذا لطف بالغ من قبلك يا آنسة إلينور ، فأنا أعلم أنه شيء متعب أن تتركي مشاغلك وأن تقطعي كل هذه المسافة من القرية إلى هنا . على العموم أتمنى أن ننتهي من إخلاء الكوخ هذا الصباح ، ولقد قمت بالمرور على مرضاى فى وقت مبكر ، لكن تلك الجولات استغرقت أكثر مما كنت أظن " .

قالت مارى فى امتنان :

" شكراً لك يا آنسة إلينور ، إنه لطف بالغ منك " .

انطلقت السيدات الثلاث فى الممشى المؤدى إلى المنزل . كانت إلينور قد تركت الباب الأمامى مفتوحاً ، فدلفت ثلاثتهن إلى داخل الردهة الباردة ، فارتعدت مارى قليلاً ، فنظرت إليها إلينور بحدة .

وقالت :

" ماذا هناك ؟ " .

قالت مارى :

" أوه ، لا شيء ... لقد ارتجفت قليلاً ، حيث إننا دخلنا إلى القاعة الباردة بعد أن كنا نسير فى الجو المشمس فى الخارج ... " .

قالت إلينور فى صوت منخفض :

" هذا غريب ! لقد شعرت بنفس هذا الإحساس صباح اليوم " .

قالت الممرضة هوبكنز وهى تضحك بصوت مرح ومرتفع :

" بالله عليكما ، هل ستدعيان بعد قليل أن هناك أشباحاً فى المنزل ؟ أنا لم أشعر بأى شىء ! " .

ابتسمت إلينور وقادت الطريق إلى غرفة المعيشة الموجودة على يمين الباب الأمامى حيث كانت الستائر مرفوعة والنوافذ مفتوحة وقد بدا المكان مبهجاً .

انطلقت إلينور إلى حجرة المؤن فى نهاية الردهة وأحضرت طبقاً كبيراً من الشطائر ، فقدمته إلى مارى قائلة :

" تناولى واحدةً " .

تناولت مارى إحدى الشطائر ووقفت إلينور تشاهدها لدقيقة ، بينما بدأت أسنان مارى البيضاء تقضم الشطيرة .

حبست إلينور أنفاسها لدقيقة ، ثم زفرت مطلقة تنهيدة قصيرة .

وفى حالة من الشرود ، وقفت إلينور لدقيقة وهى تحمل الطبق بين يديها ، وعندما لاحظت وجه المرضة هوبكنز التى فتحت شفتيها قليلاً فى تعبير عن الجوع ، انتبهت إلينور وسرعان ما قدمت الطبق إلى المرأة العجوز .

تناولت إلينور إحدى الشطائر ، وقالت باعتذار :

" لقد أردت أن أصنع بعض القهوة ولكنى نسيت أن أحضر البُن من المتجر ، وهناك بعض العصائر على الطاولة ، إذا كانت أيكما تريد بعض الشراب " .

قالت الممرضة هوبكنز بأسف :

" يا ليتنى تذكرت أن أحضر معى بعض الشاى " .

قالت إلينور بشرود :

" هناك بعض الشاى فى الخزانة الموجودة بحجرة المؤن " .

ابتهج وجه الممرضة هوبكنز .

وقالت : " حسناً ، سوف أضع الغلاية على الموقد لا أظن أن هناك حليباً ، أليس كذلك ؟ " .

ردت إلينور :

" كلا ، لقد أحضرت بعض الحليب " .

" حسناً ، هذا كل شىء " قالتها الممرضة هوبكنز وانطلقت إلى الخارج .

وبقيت إلينور وماری معاً .

تسلل إلى الجو إحساس غريب بالتوتر ، وقد حاولت إلينور بجهد ملحوظ أن تجرى بعض الحوار ، كانت شفتاها جافتين ، فمررت لسانها فوقهما وقالت بنبرة جافة :

" هل ... هل يعجبك عملك فى لندن ؟ " .

" نعم ، شكراً لك ، إننى ممتنة كثيراً لمعروفك " .

خرج من بين شفتى إلينور صوت حاد مفاجئ ـ ضحكة حادة متنافرة مع شخصيتها الهادئة ، مما جعل مارى تحدق إلى وجهها بشكل مفاجئ .

قالت إلينور :

" لا حاجة لأن تشعرى بالامتنان الشديد ! " .

قالت مارى بإحساس من الحرج :

" أنا لم أقصد ... لقد كنت ... " .

ثم توقفت .

كانت إلينور تحدق النظر إليها ــ فى نظرة ثاقبة متفحصة ، إلى درجة أن مارى ارتعدت من حدة نظراتها .

ثم قالت مارى :

" هل ... هل هناك مشكلة ما ؟ " .

وقفت إلينور بسرعة ، وقالت وهى تستدير مبتعدة :

" وما الذى يمكن أن يسبب مشكلة ؟ " .

تمتمت مارى :

" لقد ... لقد بدوت ... " .

قالت إلينور بضحكة قصيرة :

" هل كنت أحدق النظر إليك ؟ أعتذر عن ذلك ، فإنها عادة تنتابنى أحيانا ، عندما أفكر فى شىء آخر " .

نظرت الممرضة هوبكنز إليهما ، وهى تقف عند عتبة الباب ، وقالت بمرح : " لقد وضعت الغلاية فوق الموقد " ثم انصرفت مرة أخرى .

انفجرت إلينور فى نوبة من الضحك المفاجئ .

وقالت : " أيتها الفتاة ، ضعى الغلاية على الموقد ، أيتها الفتاة ، ضعى الغلاية على الموقد ـ سوف نصنع شاياً ! هل تتذكرين عندما كنا نلعب ذلك ونحن أطفال يا مارى ؟ " .

" نعم ، أتذكر ذلك بالفعل " .

قالت إلينور :

" *عندما كنا أطفالاً* ... من المحزن أننا لا نستطيع أن نعود أطفالاً كما كنا ، أليس كذلك ؟ ... " .

قالت مارى :

" وهل تودين أن تعودى إلى أيام الطفولة بالفعل ؟ " .

ردت إلينور بقوة :

" نعم ... نعم ... " .

ثم ساد الصمت بينهما لدقائق معدودة .

ثم قالت مارى ، وقد احمر وجهها خجلاً :

" آنسة إلينور ، يجب ألا تظنى أننى ... " .

ثم توقفت ، وقد أخافها ذلك التيبس المفاجئ فى ملامح إلينور الرقيقة ، وارتفاع ذقنها إلى أعلى فى تجهم واضح .

قالت إلينور ، فى صوت بارد شديد الجفاف :

" ما الذى لا يجب أن أظنه ؟ " .

تمتمت مارى :

" لقد ... لقد نسيت ما كنت سأقوله " .

استرخى جسد إلينور ـ عندما أحست بمرور الخطر .

دلفت الممرضة هوبكنز وهى تحمل صينية ، وضعت فوقها إبريق شاى بنى اللون وبعض الحليب وثلاثة أقداح

ثم قالت ، غير مدركة للتوتر الذى كان يسيطر على جو الغرفة :

" ها قد أتى الشاى ! " .

ثم وضعت الصينية أمام عينى إلينـور ، فهـزت إلينـور رأسها نفياً .

وقالت : " أنا لن أتناول الشاى " .

ثم دفعت الصينية تجاه مارى .

صبت مارى قدحين من الشاى .

تنهدت الممرضة هوبكنز بارتياح ، وقالت :

" إنه قوى ومنعش " .

وقفت إلينور وتحركت تجاه النافـذة ، فقالـت الممرضـة هوبكنز بلهجة محفزة :

" هل أنت واثقة أنك لا تريدين بعض الشاى يـا آنـسة إلينور ، إنه مفيد لك " .

تمتمت إلينور : " كلا ، شكراً لك " .

ارتشفت الممرضة هوبكنز قدحها بـسرعة ، ثـم وضـعته فى الصينية مرة أخرى وهى تغمغم :

" سوف أغلق الموقد ، لقـد تركـت الغلايـة فوقـه ، إذ ربما نحتاج إلى إعادة ملء الإبريق مرة أخرى " .

ثم خرجت مسرعة .

استدارت إلينور ناظرة إلى داخل الحجرة مرة أخرى .

ثم قالت ، وقد امتلأ صوتها فجأة بتوسل يائس :

" مارى ..... " .

ردت مارى جيرارد بسرعة :

" ماذا ؟ " .

وبـبطه ، تلاشـى النـور مـن وجـه إلينـور ، وانعقـدت شفتيها ، وزال التوسل اليائس من ملامحهـا وحـل محلـه قناع ساكن ومتجمد .

وقالت :

" لا شيء " .

ومـجـدداً غلف الصمت أرجاء الغرفة .

أخذت ماري تحدث نفسها :

" كم هي غريبة أحداث هذا اليوم ! وكأننا .... وكأننا ننتظر حدوث شيء ما " .

تحركت إلينور أخيراً .

فـسارت مبتعـدة عـن النافـذة ، ثـم اقتربـت مـن الطاولـة والتقطـت صـينية الـشاي ووضـعت فوقهـا طبـق الشطائر الفارغ

قفزت ماري من مقعدها وقالت :

" آنسة إلينور ، دعيني أقم بذلك " .

ردت إلينور بحدة :

" كلا ، ابقي مكانك ، أنا سأقوم بالأمر " .

ثم حملـت الـصينية إلى خـارج الغرفـة ، ثـم اسـتدارت وألقت نظرة من الخلف على ماري جيرارد ، التـي كانـت تقـف بـالقرب مـن النافـذة ـ تفـيض بالحيـاة والـشباب والجمال ...." .

٤

كانت الممرضة هوبكنز تجلس فى حجرة المؤن ، وكانت تمسح وجهها بمنديلها ، فرفعت رأسها ونظرت بحدة ، عندما دخلت إلينور إلى الغرفة وقالت :

" يا إلهى ! إن الجو شديد الحرارة هنا ! " .

أجابت إلينور بشكل آلى :

" نعم ، حجرة المؤن تقع فى جنوب البيت " .

تناولت الممرضة هوبكنز الصينية من يدى إلينور قائلة :

" دعيني أقم بغسلها ، يا آنسة إلينور ، فأنت تبدين مرهقة قليلاً " .

قالت إلينور :

" أوه ، أنا بخير تماماً " .

ثم التقطت منشفة التجفيف .

وقالت : " سأقوم بتجفيف الطبق بعد غسله " .

خلعت الممرضة هوبكنز قفازيها وأخذت تصب الماء الساخن من الغلاية فى حوض غسل الأطباق .

قالت إلينور بتكاسل وهى تنظر إلى رسغ الممرضة هوبكنز :

" لقد جرحت يدك " .

ضحكت الممرضة هوبكنز .

وقالت : " لقد انغرست شوكة بيدى فى حوض الزهور عند الكوخ ، وسوف أخرجها لاحقاً " .

حوض الزهور عند الكوخ . انساب إلى عقل إلينور طيف من الذكريات كأمواج بحر لا تنقطع . كم كانت تتشاجر هى وورودى حول حوض الزهور ـ حرب الزهور كما كانت تسميها ، كم كانا يتشاجران ، ثم يتصالحان فى تلك الأيام الجميلة التى كانت تمتلئ بالسعادة والضحك ، ثم غمرتها موجة من الاشمئزاز ، وهى تتخيل كيف صارت الأمور إلى هذا الحد ، كيف أصبحت على ما هى عليه الآن ؟ كتلة سوداء من الكراهية .... والشر . ثم ترنحت إلينور قليلاً فى وقفتها .

وأخذت تفكر :

" لقد كنت مجنونة .... لقد فقدت عقلى تماماً " .

حدقت الممرضة هوبكنز النظر إليها فى فضول .

وقد ذكرت الممرضة هوبكنز فى أحد حواراتها لاحقاً ، أن إلينور كانت تبدو " غريبة للغاية ، تتحدث وكأنها لا تدرى ماذا تقول وكانت عيناها تتألقان بشكل غريب " .

وُضعت الأقداح والصوانى فى حوض الغسيل بصوت مسموع ، والتقطت إلينور وعاء عجينة سمك فارغاً ووضعته داخل الحوض . وبينما كانت تفعل ذلك ، قالت ، وهى تتعجب من ثبات نبرتها :

" لقد قمت بترتيب بعض ملابس عمتى الراحلة بالطابق العلوى ، ولقد ظننت أن بإمكانك أن ترشدينى إلى من يحتاج إلى تلك الملابس بالقرية " .

قالت الممرضة هوبكنز بسرعة :

" هذا أمر هين . هناك السيدة باركينسون والعجوز نيللى وهناك تلك المرأة المسكينة التى تعيش فى كوخ آيفى ، تستطيعين أن ترسلى إليهن تلك الملابس " .

ثم قامت كلتا المرأتين بترتيب حجرة المؤن وصعدتا إلى الطابق العلوى معاً .

وفى حجرة السيدة ويلمان تم طى الثياب وترتيبها بطريقة أنيقة : كومة من الملابس الداخلية ، وأخرى للفساتين ، وأخرى لبعض الملابس الفاخرة ، وعباءات حريرية خضراء ، ومعطف من الجلد الفاخر . وقد شرحت إلينور أنها تفكر فى إعطاء هذا المعطف للسيدة بيشوب ، وقد أومأت الآنسة هوبكنز استحساناً لهذا الرأى .

لاحظت الممرضة هوبكنز أن المعاطف الفرو الخاصة بالسيدة ويلمان كانت موضوعة فوق الدرج العلوى من خزانة الملابس .

فأخذت تفكر فى نفسها : " يبدو أن إلينور سوف تعيد تصميمها لكى تناسبها " .

ثم ألقت نظرة على خزانة الملابس الضخمة وتساءلت فى نفسها إذا ما كانت إلينور قد عثرت على الصورة

الموقعة باسم " لويس " وكما ظنت بشأنها إن كانت قد وجدتها بالفعل .

ثم أخذت تحادث نفسها : " كم هو غريب أن يصل خطابى وخطاب المرضة أوبريان فى نفس الوقت ، ما كنت لأتخيل أن يحدث شيئاً كهذا ، لقد أرسلت تحدثنى عن الصورة فى اليوم الذى كتبت لها فيه عن حكاية السيدة سلاترى " .

انطلقت المرضة هوبكنز تعين إلينور فى طى الملابس وتطوعت فى وضعها فى أكوام منفصلة من أجل العائلات المختلفة وكذلك القيام بتوصيل الملابس بنفسها .

ثم قالت :

" يمكننى القيام بتوصيل تلك الملابس عندما تذهب مارى لإنهاء نقل متعلقات والدها من الكوخ ، ولا أظنها سوف تستغرق وقتاً طويلاً ، حيث إنه لم يعد أمامها سوى فض محتويات صندوق صغير يحتوى على بعض المستندات ، لكن ، أين ذهبت تلك الفتاة على أى حال ؟ هل عادت إلى الكوخ ؟ " .

قالت إلينور :

" لقد تركتها فى حجرة المعيشة .... " .

قالت المرضة هوبكنز :

" ما أظنها لتجلس هناك كل هذا الوقت " ثم نظرت إلى ساعتها وأردفت : " لقد بقينا لما يقرب من ساعة هنا فى الطابق العلوى ! " .

ثم اندفعت تهبط الدرج ولحقت بها إلينور .

ثم دلفتا إلى قاعة الجلوس الصباحية .

وقالت الممرضة هوبكنز بتعجب :

" عجباً ! لقد راحت فى النوم " .

كانت مارى جيرارد تجلس فوق مقعد كبير ذى ذراعين بالقرب من النافذة وكان جسدها مسترخياً إلى أسفل المقعد قليلاً . وكان هناك صوت غريب فى داخل الغرفة : أنفاس ثقيلة متعبة .

سارت الممرضة هوبكنز تجاه مارى وأخذت تهزها قليلاً .

" استيقظى يا عزيزتى " .

ثم صمتت فجأة وانحنت على ركبتيها وجذبت جفن الفتاة النائمة ، ثم بدأت تهز الفتاة بقوة شديدة .

ثم استدارت إلى إلينور ، وبدا فى نبرات صوتها وعيد واضح وهى تقول :

" ما هذا ؟ " .

قالت إلينور :

" لا أدرى ماذا تقصدين ، أهى مريضة ؟ " .

ردت الممرضة هوبكنز :

" أين الهاتف ؟ اطلبى الدكتور لورد واسأليه أن يحضر بأسرع ما يمكن " .

قالت إلينور :

" ما هى المشكلة ؟ " .

" المشكلة ؟ إن الفتاة مريضة .... بل هى تحتضر " .

تراجعت إلينور خطوة إلى الخلف .

وتمتمت : " تحتضر ؟ " .

" لقد تعرضت للتسمم .... " .

ونظـــرت إلى إلينـــور بعيـــنين حـــادتين تمتلئـــان بالاتهام .

الجزء ٢

الفصل ١

كان هيركيول بوارو ـ وقد تدلى رأسه البيضاوى يميناً ، وارتفع حاجباه فى تساؤل ، وتشابكت أصابع يديه ـ يشاهد ذلك الشاب الذى راح يقطع الحجرة جيئة وذهابًا فى خطوات هوجاء ، وقد ظهر العبوس واضحاً على ملامح وجهه الرقيق الذى يمتلئ بالنمش .

قال هيركيول بوارو :

" حسنا يا صديقى ، ماذا وراءك ؟ " .

توقف بيتر لورد عن الحركة فجأة .

وقال :

" سيد بوارو ، أنت الرجل الوحيد الذى يستطيع مساعدتى فى هذا العالم ، لقد سمعت السيد ستيلنج فيت يتحدث عنك ؛ وقد أخبرنى بما فعلته فى قضية بينديكت فارلى ، وكيف أن الجميع كانوا مقتنعين أنها مسألة انتحار ثم جئت أنت وأثبت أنها جريمة قتل " .

قال هيركيول بوارو :

" هل هناك حالة انتحار بين مرضاك لا تقتنع أنها مسألة انتحار بالفعل ؟ " .

هز بيتر لورد رأسه نفيًا .

وجلس في مواجهة بوارو .

ثم قال :

" هناك فتاة شابة ، أُلقي القبض عليها وسوف تحاكم في قضية قتل عمد ، وأريدك أن تجد من الأدلة ما يثبت أنها لم ترتكب تلك الجريمة ! " .

ارتفع حاجبا بوارو إلى أعلى قليلاً ، ثم كست وجهه ملامح السرية والتكتم .

وقال :

" أنت وتلك الفتاة الشابة ... أنتما خطيبان ... أليس كذلك ؟ أو ربما يحب أحدكما الآخر ؟ " .

ضحك بيتر لورد ضحكة حادة مريرة .

وقال :

" كلا ، الأمر ليس كما تظن ! إنها لديها ذوق سيئ جعلها تحب شابًا أحمق متكبرًا ، له أنف طويل ووجه يشبه وجه حصان كئيب الملامح ! أعلم أنه غباء من جانبها ، ولكن هذه هي حقيقة الأمر ! " .

قال بوارو :

" فهمت " .

قال لورد في مرارة :

" أوه ، نعم ، يبدو أنك قد فهمت الأمر بالفعل ! وليست بى حاجة إلى التصرف بلباقة حيال الأمر ، لقد سقطت فى هواها من النظرة الأولى ، ولهذا لا أريدها أن تتعرض للشنق ، فهمت ؟ " .

قال بوارو :

" ما هى تفاصيل التهمة الموجهة إليها ؟ " .

" إنها متهمة بقتل فتاة تدعى مارى جيرارد عن طريق تسميمها بمادة هيدروكلوريد المورفين ، ولعلك قرأت فى الصحف أخبار التحقيق فى القضية " .

قال بوارو :

" وما هو دافع الجريمة ؟ " .

" الغيرة ! " .

" وأنت تعتقد أنها لم ترتكب تلك الجريمة ؟ " .

" بالطبع لم ترتكبها " .

نظر إليه هيركيول بوارو بتمعن لدقيقة أو اثنتين ، ثم قال :

" وماذا تريد منى أن أفعل بالتحديد ؟ أتريدنى أن أحقق فى الأمر ؟ " .

" أريدك أن تبرئ ساحتها " .

" أنا لست محامى دفاع يا صديقى " .

" سوف أقولها لك بصراحة : *أريدك أن تعثر على أدلة تمكن محاميها من تبرئتها* " .

قال هيركيول بوارو :

" إنك تصور الأمر بطريقة غريبة بعض الشيء " .

قال بيتر لورد :

" أتقصد أننى لا أشرح الأمر بتفصيل كبير ؟ إن المسألة تبدو بسيطة بالنسبة لى ، أنا أريد تبرئة هذه الفتاة ، وأعتقد أنك الشخص الوحيد الذى يستطيع القيام بذلك !" .

" أتريد منى أن أحقق فى ملابسات الحادث ؟ أن أعثر على الحقيقة ؟ أن أكتشف ما حدث بالفعل ؟ " .

" أريدك أن تعثر على أية حقائق تفيد فى إثبات براءتها " .

أشعل بوارو إحدى سجائره الرفيعة بحرص ودقة ، ثم قال :

" لكن أليس ما تقوله يعد أمراً غير أخلاقى إلى حد ما ؟ ليس هناك عيب فى الوصول إلى الحقيقة ، وهذا ما أهتم به ، لكن الحقيقة سلاح ذو حدين ، هب أننى وجدت أدلة *تدين* تلك الفتاة الشابة ، أتطلب منى أن أكتم الحق وأخفى تلك الأدلة ؟ " .

تابع بيتر لورد سيره بالغرفة شاحب الوجه ، وقال :

" هذا مستحيل ! لا يمكنك أن تجد أدلة تدينها أكثر مما قد وجدت النيابة بالفعل ! إن الأدلة ضدها دامغة للغاية ، بل إن هناك كمية من الأدلة تكفى لكى يدينها العالم بأسره ، ولا أظنك سوف تجد من الأدلة ما قد يثبت عليها التهمة أكثر مما هى ثابتة بالفعل ! إنما أنا أطلب منك أن تستخدم عبقريتك ـ فقد قال ستيلنج فيت إنك

عبقري ـ لكي تجد أي ثغرات في القضية ، أو شيء من هذا القبيل " .

قال هيركيول بوارو :

" سوف يفعل محاموها ذلك بالتأكيد ، ألا تتفق معي في ذلك ؟ " .

" أتظن أنهم سيفعلون ؟ " ضحك الشاب في سخرية مريرة وأردف : " لقد قضي عليهم قبل أن يبدأوا القضية ، ويبدو أنهم يعتقدون أن الأمر ميئوس منه بالفعل ! لقد استمعت المحكمة إلى المرافعة الافتتاحية للمحامي الشهير كي . سي . بالمر ـ ويبدو أن ذلك كان أملهم الأخير ؛ وهذا في رأيي بداية الخسارة ، فالرجل ـ حسب علمي ـ خطيب مفوه ، ويميل إلى المرافعات الدرامية والتباكي ، وقد ظل يشدد على السن الصغيرة وعدم نضج المتهمة ، وكل هذه الأمور ، لكن القاضي لم يدعه ينجح في استدرار عطف هيئة المحلفين ، ولهذا لا أرى أن هناك أملاً يرجى في محاميها " .

قال هيركيول بوارو :

" لنفترض أنها مذنبة .... فهل ستصر على تبرئتها في تلك الحالة ؟ " .

قال بيتر لورد بصوت خافت :

" نعم " .

اعتدل هيركيول بوارو في جلسته ، وقال :

" إنك تثير اهتمامي يا هذا ... " .

ثم أردف بعد دقيقة أو اثنتين :

" أعتقد أنه من الأفضل أن تخبرني بوقائع القضية بكل تفصيل " .

" ألم تقرأ أى شيء عنها فى الصحف ؟ " .

أشار هيركيول بوارو بيده .

وقال : " قرأت خبرًا مختصرًا يشير إلى القضية ، لكن الصحف لا تذكر الحقائق بدقة ، وأنا لا أعتمد على ما ينشرونه " .

قال بيتر لورد :

" إن القضية بسيطة .... بسيطة إلى درجة البشاعة . لقد ورثت هذه الفتاة ، إلينور كارليل ، منزلاً قريبًا من هنا ـ يسمى هانتربيرى هول ـ إلى جانب ثروة كبيرة من عمتها ، التى توفيت دون أن تترك وصية . كانت العمة تدعى السيدة ويلمان ، وكان لديها قريب من جهة زوجها ويدعى رودريك ويلمان . كان ذلك الشاب خطيبًا لإلينور كارليل ـ خطبة عائلية طويلة الأمد ، حيث إنهما كانا قد تربيا معًا منذ الصغر ، كانت هناك فتاة تعيش بقرب هانتربيرى : اسمها مارى جيرارد ، وهى ابنة حارس الكوخ الصيفى ، وقد اهتمت السيدة ويلمان كثيرًا بشأن تلك الفتاة ، ودفعت من أموالها مصاريف تعليمها ، ولهذا كانت تلك الفتاة تبدو من الظاهر كإحدى بنات العائلات الراقية ، ولعل هذا هو ما جعل رودريك ويلمان يقع فى حبها ، وكان ذلك سببًا فى فسخ خطبته من إلينور كارليل

" والآن نصل إلى الأحداث المهمة . عرضت إلينور منزل هانتربيرى للبيع واشتراه رجل يدعى سوميرفيل . وقد حضرت إلينور إلى المنزل لإخلائه من متعلقات عمتها ونقل الأثاث أو التخلص منه . وفى نفس الوقت كانت مارى جيرارد ـ التى كان والدها قد توفى للتو ـ تقوم بإخلاء الكوخ من متعلقاته . وهذا يأخذنا إلى أحداث صباح يوم السابع والعشرين من يوليو .

" كانت إلينور كارليل تقيم فى الفندق المحلى ، وفى الشارع المواجه له قابلت السيدة بيشوب ـ المديرة السابقة لمنزل هانتربيرى ـ وقد عرضت عليها الأخيرة أن تصاحبها إلى المنزل وتعينها على نقل متعلقات السيدة ويلمان ، لكن إلينور رفضت ـ وبشكل شديد ، وبعد ذلك ذهبت إلينور إلى المتجر وابتاعت بعض عجائن السمك ، وهناك ذكرت شيئًا عن التسمم الغذائى ، أرأيت ؟ كانت مجرد ملاحظة بريئة ؛ ولكن النيابة اعتبرت ذلك دليلاً ضدها ! ذهبت إلينور بعدها إلى المنزل ، وفى حوالى الساعة الواحدة ظهرًا انطلقت تجاه الكوخ الصيفى ، حيث كانت مارى جيرارد مشغولة فى نقل متعلقات والدها الراحل ، وكانت بصحبتها ممرضة المقاطعة ، وهى امرأة فضولية تدعى السيدة هوبكنز ، وهناك دعتهما إلينور إلى تناول بعض الشطائر التى أعدتها فى المنزل ، وبالفعل حضرت المرأتان معها ، وتناولتا الشطائر ، وبعد حوالى ساعة تم استدعائى إلى المنزل ، وعندما حضرت ، وجدت مارى جيرارد فاقدة

الوعى ، ففعلت كل ما استطعته من أجلها ، لكن دون جدوى . وقد أظهر التشريح أنها قد تناولت كميةً كبيرة من المورفين قبل وقت قليل من وفاتها ، ولاحقًا عثرت الشرطة على قصاصة من ملصق زجاجة هيدروكلوريد المورفين فى المكان الذى كانت إلينور تصنع فيه الشطائر " .

" ماذا أكلت أو شربت مارى جيرارد غير ذلك ؟ " .

" لقد تناولت ـ هى والممرضة ـ بعض الشاى بجوار الشطائر ، وقد أعدت الممرضة الشاى وصبته مارى بنفسها ، ولم تتناول مارى أى شىء آخر . أعلم أن محامى المتهمة سيحدثون جلبة بشأن الشطائر ، مشددين على أن ثلاثتهن قد تناولنها ، ولهذا *من المستحيل* أن يضمن القاتل أن شخصًا واحدًا سوف يتناول السم . لقد قال محامى الدفاع ذلك فى قضية هيرن ـ إذا كنت تذكرها " .

أومأ بوارو برأسه إيجابًا وقال :

" لكن الأمر بسيط جدًا فى الحقيقة ، إن القاتل سوف يصنع عددًا من الشطائر ، ويضع فى أول واحدة السم ، ثم يقوم بتقديم الطبق إلى الضحية ، وطبقاً لتقاليد المجتمعات المتحضرة ، فإنه من المؤكد أن أى شخص يقدم إليه طبق يحمل بعض الشطائر ، سوف يتناول الشطيرة الأقرب إليه ، وهذا ما يجعلنى أفترض أن إلينور

كارليل قد قدمت الطبق إلى مارى جيرارد أولاً ، أليس كذلك ؟ " .

" هذا ما حدث تماماً " .

" على الرغم من أن الممرضة ـ التى هى أكبر سناً ـ كانت معهما فى الغرفة ؟ " .

" نعم " .

" هذا التصرف يسىء إلى موقف إلينور كثيرًا " .

" هذا لا يثبت أى شىء ، إن المرء لا يلتزم بالتقاليد كثيرا عند تناول الوجبات الخفيفة " .

" من قام بتقطيع الشطائر ؟ " .

" إلينور كارليل " .

" أكان هناك شخص آخر بالمنزل أثناء ذلك ؟ " .

" كلا " .

هز بوارو رأسه فى أسى وقال :

" يبدو الموقف سيئًا ، وهل تم التأكد من أن الفتاة لم تتناول أى شىء سوى الشطائر والشاى ؟ " .

" لم تتناول أى شىء آخر ، هذا ما أثبته فحص محتويات المعدة " .

قال بوارو :

" إن هذا يوحى أن إلينور كانت تأمل أن تفسر وفاة الفتاة على أنها نتيجة لتسمم غذائى ، أليس كذلك ؟ لكن كيف سيمكن لها عندئذٍ أن تفسر أن امرأة واحدة فقط من بين ثلاثتهن هى من تأثرت بفساد الطعام ؟ " .

قال بيتر لورد :

" الأمور لا تحدث بهذه الطريقة فى بعض الأحيان . على الرغم من وجود علبتين من عجينة السمك ـ تتشابهان تماما فى مظهرهما الخارجى ، إلا أنه ربما كانت هناك علبة سليمة تمامًا ، وعلبة تحتوى على عجينة فاسدة ، وبالمصادفة البحتة كانت مارى هى من تناولت محتويات تلك العلبة " .

" ربما يصلح ما تقوله كنظرية مثيرة فى قوانين الاحتمالات ، لكنى أعتقد أن إمكانية حدوث أمر كهذا ضئيلة جدًا من الناحية العملية ، على أى حال هناك نقطة أخرى ، لو أن القاتل يريد الإيحاء بوجود تسمم غذائى : *لماذا لم يختر سمًا آخر ؟* إن أعراض تعاطى المورفين لا تتشابه على الإطلاق مع أعراض التسمم الغذائى ، وأعتقد أن عقار الإتروبين كان اختيارًا أفضل بكثير " .

قال بيتر لورد ببطء :

" نعم ، هذا صحيح ، لكن هناك شيئًا آخر ، لقد أقسمت ممرضة المقاطعة اللعينة على أنها قد فقدت قنينة مورفين ! " .

" متى ؟ " .

" أوه ، منذ أسابيع قبل الحادث ، فى الليلة التى توفيت فيها السيدة ويلمان ، حيث قالت الممرضة إنها قد تركت حقيبتها فى الردهة واكتشفت فقد قنينة مورفين فى

الصباح ، وإن كنت أعتقد أن كلامها مجرد هراء فارغ ، ولعل تلك القنينة قد انكسرت فى منزلها قبل ذلك وغاب ذلك عن ذاكرتها " .

" وهل ذكرت الأمر فقط بعد موت مارى جيرارد ؟ " .

قال بيتر لورد على مضض :

" فى الواقع ، لقد أخبرت به المرضة المناوبة فى صباح موت السيدة ويلمان " .

كان هيركيول بوارو ينظر إلى بيتر لورد بطريقة تحمل قدرًا كبيرًا من الاهتمام .

ثم قال برقة :

" أظن يا صديقى أن هناك شيئًا آخر ـ شيئًا لم تخبرنى به حتى الآن " .

قال بيتر لورد :

" حسنًا ، أظن أنه من الأفضل أن تعرف الحقيقة كلها . لقد قدمت النيابة طلبا لاستصدار إذن بتشريح جثة السيدة ويلمان " .

" حقا ؟ " .

قال بيتر لورد :

" وعندما يقومون بتشريح جثتها ، *فمن المحتمل أن يعثروا على ما يبحثون عنه .... آثار مورفين* ! " .

" وكيف تعرف ذلك ؟ " .

تمتم بيتر لورد ـ وقد شحب وجهه الممتلئ بالنمش :

" لقد كنت أشك بالأمر " .

ضرب هيركيول بوارو براحته فوق ذراع مقعده ، وصاح قائلا :

" أنا لا أفهمك إطلاقًا يا هذا ! أكنت تعلم عندما توفيت المرأة أنها قد قتلت ؟ " .

صاح بيتر لورد :

" كلا بالطبع ! ما كنت لأتخيل شيئًا كهذا ، وإنما ظننت أنها قد تناولته بنفسها " .

استرخى هيركيول بوارو في مقعده .

وقال : " آه ! لقد ظننت أنها قد .... " .

" بالطبع ظننت أنها انتحرت ! لقد حدثتنى عن هذه المسألة من قبل ، وسألتنى أكثر من مرة إذا كان بإمكانى أن " أريحها من العذاب " لقد كانت تكره المرض ، والعجز الذى يسببه لها ، والإهانة ـ حسبما كانت تسميها ـ التى تحس بها وهى ترقد فى فراشها تحت رعاية الممرضات ، كأنها طفل صغير . وكنت أعلم أنها امرأة شديدة التصميم " .

صمت بيتر لورد لدقيقة ، ثم أكمل يقول :

" لقد فوجئت بوفاتها ، ولم أكن أتوقعها ، ولهذا أخرجت الممرضة من الغرفة وقمت بعمل فحص دقيق للجثة ـ على قدر استطاعتي ـ لكن كان من المستحيل أن أتأكد من الأمر دون تشريح ، وهو أمر لم أر منه فائدة . فلو أنها أرادت أن تنهى حياتها بيدها ، فما الداعى أن أحدث جلبة حيال الأمر وأتسبب في فضيحة لا طائل من

ورائها ؟ وقد رأيت أنه من الأفضل أن أوقّع على شهادة الوفاة وأدع المرأة ترحل فى سلام ، إلى جانب أننى لم أكن متأكدًا من حدسى ، ربما كان تخمينى خاطئًا ، لكننى لم أتخيل ولو للحظة وجود جريمة فى الأمر ، لقد كنت واثقًا أنها قد فعلت ذلك بنفسها " .

تساءل بوارو :

" كيف حصلت على المورفين فى رأيك ؟ " .

" ليس لدىّ أدنى فكرة ، لكن دعنى أقل لك إنها كانت امرأة واسعة الحيلة ، ذات براعة وذكاء ، وفى شدة التصميم " .

" أتظن أنها قد حصلت على المورفين من الممرضة ؟ " .

هز بيتر لورد رأسه نفيًا وقال :

" هذا من رابع المستحيلات ! أنت لا تعرف أى شىء عن الممرضات ! " .

" ربما من أحد أفراد عائلتها ؟ " .

" محتمل ، لعلها تعطفت إليهم ليساعدوها على إنهاء عذابها " .

قال هيركيول بوارو :

" لقد أخبرتنى أن السيدة ويلمان قد توفيت دون أن تترك وصية ، أتظن أنه لو كان لديها ما يكفى من الوقت ، أكانت ستترك وصية ؟ " .

تجهم وجه بيتر لورد فجأة وقال :

" إنك تتصيد كل النقاط المثيرة للشكوك بشكل دقيق ، أليس كذلك ؟ نعم ، كانت ستترك وصية ؛ وكانت تتصرف بشكل عصبى حيال المسألة ، ورغم أنها لم تستطع التحدث بشكل سليم ، إلا أنها أوضحت كل رغباتها بدقة كبيرة ، وكان من المفترض أن تتصل إلينور كارليل بالمحامى فى الصباح المبكر من اليوم التالى " .

" إذن ، فإلينور كارليل كانت تعلم أن عمتها تريد ترك وصية ؟ وإذا توفيت العمة دون أن تترك تلك الوصية ، فإن إلينور كارليل كانت سوف ترث كل شيء ؟ " .

رد بيتر لورد بسرعة :

" لم تكن إلينور تعلم ذلك ، ولم يكن لديها أدنى فكرة أن عمتها لم تترك وصية بالفعل " .

" هذا - يا صديقى - هو ما تقوله هى ، ولربما كانت تعرف بالفعل " .

" ماذا بك يا سيد بوارو ، هل أنت ممثل الاتهام ؟ " .

" فى اللحظة الحالية ، نعم . لابد أن أعلم بمدى قوة القضية المرفوعة ضدها ، هل كان باستطاعة إلينور كارليل سرقة المورفين من حقيبة الممرضة ؟ " .

" نعم . وكذلك كان باستطاعة أى شخص آخر - رودريك ويلمان ، الممرضة أوبريان ، أو أى من الخدم " .

" أو حتى بيتر لورد ؟ " .

اتسعت عينا بيتر لورد فى دهشة ، لكنه أجاب قائلاً :

" بالتأكيد .... لكن لماذا أفعل ذلك ؟ " .

" ربما بدافع القتل الرحيم " .

هز بيتر لورد رأسه نفيًا وقال :

" ما كنت لأفعل شيئًا كهذا ، وعليك أن تصدق ما أقوله لك ! " .

استرخى هيركيول بوارو فى مقعده ، وقال :

" دعنا نفكر فى فرضية خيالية ، لنقل إن إلينور كارليل قد أخذت المورفين من حقيبة المرضة وأنها قد حقنت بها عمتها . هل تحدثت المرضتان بشأن فقدان المورفين ؟ " .

" ليس مع المقيمين بالمنزل ، لقد احتفظت المرضتان بالأمر سرًا بينهما " .

قال بوارو :

" فى رأيك الشخصى ، ماذا سيكون تصرف ممثلى الادعاء ؟ " .

" أتقصد إن عثروا على آثار مادة المورفين فى جثة السيدة ويلمان ؟ " .

" نعم " .

قال بيتر لورد بتجهم :

" من المحتمل إنه إذا حدث وبُرئت إلينور من التهمة الحالية ، فسوف يقبضون عليها ويوجّهون لها تهمة قتل عمتها " .

قال هيركيول بوارو بتأمل :

" سوف تختلف الدوافع ؛ أقصد أنه فى قضية السيدة ويلمان سيكون الدافع هو *النفع المادى* ، أما فى قضية مارى جيرارد ، فسوف يكون الدافع هو *الغيرة* " .

" هذا صحيح " .

قال بوارو :

" ما هى الخطة التى ينوى محامى الدفاع اتخاذها ؟ " .

" يتبنى بالمر خطة ترمى للدفع بعدم وجود دافع لارتكاب الجريمة ، وسوف يحاول إقناع المحكمة أن الخطبة بين إلينور و رودريك كانت مجرد خطبة تقليدية ، تمت لأسباب عائلية بحتة ، من أجل إرضاء السيدة ويلمان ، وأنه ما إن توفيت السيدة العجوز ، حتى قامت إلينور بنفسها بفسخ الخطبة ، وسوف يشهد رودريك ويلمان مؤكدا تلك الملابسات ، بل إننى أعتقد أنه يكاد يصدق أن هذا هو ما حدث بالفعل ! " .

" يصدق أن إلينور لم تكن تحبه بشكل حقيقى ؟ " .

" نعم " .

قال بوارو : " وفى هذه الحالة لن يكون لديها دافع لقتل مارى جيرارد " .

" تماما " .

" لكن فى هذا الحالة ، مَنْ قتل مارى جيرارد ؟ " .

" من يدرى ... " .

هز بوارو رأسه فى حيرة وقال :

" *إنها مسألة عويصة* " .

قال بيتر لورد بحماس جارف :

" هذا هو السؤال المحير ! إذا لم تكن إلينور قد قتلت ماري جيرارد ، فمن فعل إذن ؟ هناك مسألة الشاى ؛ لكن كلا من مارى جيرارد والممرضة هوبكنز قد تناولتاه معًا ، وسوف يحاول الدفاع إقناع المحكمة أن مارى جيرارد قد تناولت المورفين بنفسها بعد أن غادرت إلينور والممرضة هوبكنز الغرفة - وأنها قد انتحرت بمحض إرادتها " .

" أكان لديها أى دافع للانتحار ؟ " .

" كلا ، على الإطلاق " .

" أكانت من الشخصيات المضطربة التى قد تميل إلى الانتحار ؟ " .

" كلا " .

قال بوارو :

" كيف كانت مارى جيرارد هذه ؟ " .

فكر بيتر لورد قليلاً ، ثم قال :

" لقد كانت .... حسنًا ، لقد كانت صبية لطيفة . نعم ، بالتأكيد كانت صبية لطيفة " .

تنهد بوارو وتمتم قائلاً :

" وهل سقط رودريك ويلمان فى هواها ؛ لأنها كانت صبية لطيفة ؟ " .

ابتسم بيتر لورد .

وقال : " أوه ، لقد فهمت ما تقصده . لقد كانت بلا شك جميلة الملامح " .

" ومادا عنك أنت ؟ ألم تشعر نحوها بأية مشاعر ؟ " .

حدق بيتر لورد النظر إليه .

وقال : " يا إلهى ، كلا " .

ظل هيركيول بوارو يفكر فى الأمر لدقيقة أو اثنتين ، ثم قال :

" يقول رودريك ويلمان إنه كانت هناك عاطفة بينه وبين إلينور كارليل ، لكنها لم تصل إلى درجة الحب . هل توافق على هذا الكلام ؟ " .

" وكيف لى أن أعلم ذلك بحق السماء ؟ " .

هز بوارو رأسه فى أسى .

وقال : " لقد أخبرتنى عندما دخلت إلى هذه الغرفة أن إلينور لديها ذوق سيئ جعلها تحب شابًا أحمق متكبرًا ، ذا أنف طويل . وهذا ـ على ما أعتقد ـ هو وصف لشخصية وملامح رودريك ويلمان ، إذن ، طبقا لما تقوله ، فهى تحبه بالفعل " .

قال بيتر لورد فى صوت خافت متهدج :

" إنها تحبه بالفعل ... تحبه بدرجة لا توصف " .

قال بوارو :

" إذن ، فقد كان هناك دافع للجريمة .... " .

أشاح بيتر لورد بوجهه عن بوارو ، وقد اشتعل وجهه غضباً .

ثم قال : " وهل يصنع ذلك أى فارق ؟ ربما تكون قد ارتكبت الجريمة بالفعل ! *وهذا لا يمثل أى اختلاف بالنسبة لى* " .

قال بوارو :

" هكذا ! " .

" لكنى لا أريدها أن تتعرض للشنق ! ماذا لو أنها أصيبت باليأس ؟ إن الحب أمر محير يصيب الناس باليأس ، وهو قادر على أن يحول الصعلوك إلى أمير متوج وأن يهوى بأعقل الرجال وأكثرهم اتزانًا إلى حضيض الأوحال ! لنفترض أنها قد ارتكبت الجريمة ، أليس فى قلبك أى رحمة أو شفقة ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" أنا لا أومن بتبرير جرائم القتل " .

حدق بيتر لورد النظر إليه ، ثم أشاح بنظره بعيدا ، ثم عاد يحدق النظر إليه مجددا ، وأخيرًا انفجر فى الضحك .

" من بين كل الكلمات التى كان يمكنك أن ترد بها ، لم تنتق سوى تلك الكلمات التى تدل على شخص متكبر ومتزمت أيضا ! من طلب منك أن تُقرّ أو تبرر أى شىء ؟ أنا لا أطلب منك أن تكذب ! الحقيقة هى الحقيقة ، ألست تدعى ذلك ؟ حسنا ، إذا وجدت شيئًا فى مصلحة المتهمة ، فهل من المفترض منك أن تخفيه لمجرد أنك تشعر أنها مذنبة ؟ " .

" كلا ، بالطبع " .

" إذن ، لماذا لا تستطيع أن تفعل ما أطلبه منك ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" أنا مستعد تمامًا للقيام بذلك يا صديقى .... " .

الفصل ٢

حـدق بـيتر لـورد النظـر إلى هيركيـول بـوارو ، ثـم أخرج منـديلاً ومسح بـه وجهـه ، وبعـد ذلـك ألقـاه فـوق المقعد .

وقال : " يا إلهى ! لقد أتعبتنى وحيرتنى للغايـة ! لم أكن أفهم على الإطلاق ما كنت ترمى إليه ! " .

قال بوارو :

" لقـد كنـت أستكـشف القـضية المرفوعـة ضـد إلينـور كارليل ، والآن صرت أعرف أبعادهـا . لقـد قُـدّم المـورفين إلى مارى جيرارد ، وحسبما فهمت ، لابـد أنـه قـد وضـع فى محتوى الشطائر ، ولا أحد قد مس تلك الشطائر سوى إلينور كارليل . ولقد كان لدى إلينـور كارليـل دافـع قـوى لقتل مارى جيرارد ، وهى ـ فى رأيـك الشخـصى ـ قـادرة على قتل مارى جيرارد ، وكل الاحتمالات تـشير إلى أنهـا قد قتلتها بالفعل ، ولست أرى أى سبب فـى تـصديق أى شىء بخلاف ذلك " .

ثم أضاف : " هذا ، يا صديقى ، جانب واحد من المسألة ، والآن سوف نتقدم إلى المرحلة التالية . سوف نستبعد كل هذه الاعتبارات من عقولنا وسوف ننظر إلى المسألة من زاوية عكسية : *إذا لم تكن إلينور كارليل قد قتلت مارى جيرارد ، فمن قتلها* ؟ أم أن مارى جيرارد قد انتحرت ؟ " .

وقف بيتر لورد ، وقد ظهر العبوس جليًا فى خطوط جبهته ، ثم قال :

" إنك لم تكن دقيقًا فيما قلته " .

" أنا ؟ لست دقيقًا ؟ " .

بدا وكأن بوارو قد شعر بالإهانة .

أكمل بيتر لورد كلامه فى قسوة :

" نعم ، لقد قلت إنه لا أحد قد مس الشطائر سوى إلينور ، لكنك لا تعلم ذلك يقينًا " .

" لم يكن هناك أحد آخر بالمنزل " .

" على حسب علمنا ، لكنك استبعدت مدة قصيرة من الوقت . *كانت هناك مدة زمنية قصيرة ذهبت خلالها إلينور إلى الكوخ* ، وخلال تلك المدة ، كانت الشطائر موضوعة على طبق فى حجرة المؤن ، وكان باستطاعة أى شخص أن يدس السم بها " .

التقط بوارو نفسًا عميقًا .

وقال :

" أنت على حق يا صديقى ، وأعترف لك بذلك . كانت هناك مدة زمنية يمكن لأحدهم أن يتسلل خلالها إلى المنزل ويدس السم فى طبق الشطائر . يجب علينا أن نحاول تكوين فكرة عمن يكون ذلك الشخص ؛ أقصد أى نوع من الناس .... " .

ثم توقف للحظة ، وأكمل يقول :

" دعنا نفكر فى مارى جيرارد ، لنقل إن هناك شخصًا - غير إلينور كارليل - يرغب فى موتها ، فما دوافعه ؟ أكان هناك من يستفيد من موتها ؟ هل تركت وراءها أموالا ؟ " .

هز بيتر لورد رأسه نفيًا .

وقال : " ليس الآن ، لكن كان سيصبح لديها ألفان من الجنيهات بعد شهر ، حيث إن إلينور كارليل منحتها ذلك المبلغ ؛ لأنها كانت تعتقد أن عمتها الراحلة كانت ترغب فى ترك بعض المال من أجل مارى ، لكن وفاة المرأة دون ترك وصية حالت دون ذلك " .

قال بوارو :

" إذن يمكننا استبعاد دافع المال . لقد كانت مارى جيرارد فتاة جميلة ، والجمال دائمًا ما يجلب بعض التعقيدات ، فهل كان لديها معجبون ؟ " .

" على الأرجح ، لكننى لا أعرف شيئًا عن الأمر " .

" ومن يمكنه أن يعرف ؟ " .

ابتسم بيتر لورد .

وقال : " من الأفضل أن أحيلك إلى الممرضة هوبكنز ، فهى مركز أخبار القرية المتنقل ، وتعرف كل صغيرة وكبيرة فى مقاطعة مادينسفورد " .

" كنت على وشك أن أطلب منك أن تعطينى رأيك حول الممرضتين " .

" حسنا ، الممرضة أوبريان من أصل أيرلندى ، وهى ممرضة جيدة وذات كفاءة ، سخيفة قليلاً ، وتتصرف بحقد فى بعض الأحيان ، وتميل إلى الكذب ـ أقصد أن لها مخيلة واسعة ، دون أن يصل الأمر إلى حد الخداع ، لكن يمكنك أن تقول إنها تحب اختلاق القصص من لا شىء " .

أومأ بوارو برأسه موافقاً .

أكمل بيتر لورد : " أما الممرضة هوبكنز فهى سيدة فى منتصف العمر ، ذات عقل راجح ودهاء فطرى ، تؤدى عملها بكفاءة وطيبة ، لكنها تدس أنفها كثيرا فى شئون الآخرين ! " .

" لو أن هناك متاعب بسبب أحد الشباب فى القرية ، أكانت الممرضة هوبكنز لتعرف بالأمر ؟ " .

قال بيتر لورد : " بالتأكيد " .

ثم أضاف ببطء :

" على العموم أنا لا أظن أن هناك أى شىء واضح فى هذا الاتجاه ، فمارى لم تكن موجودة بالقرية لمدة طويلة ، حيث إنها كانت تدرس فى ألمانيا لمدة عامين " .

" مـارى كانـت فـى الواحـدة والعـشرين ، ألـيس كذلك ؟ " .

" نعم " .

" ربما صادفتها بعض المتاعب فى ألمانيا " .

تهلل وجه بيتر لورد .

وقال بحماس :

" أتقـصد أن شـاباً ألمانيـاً كـان يحمـل لهـا بعـض الكراهية ؟ وربما يكون قد لحق بها إلى هنا ، وانتظر حتى تحـين اللحظـة المناسـبة ، ثـم ضـرب ضـربته ودس لهـا السم ؟ " .

قـال هيركيـول بـوارو بتـشكك : " يبـدو الأمـر أشـبه بالروايات البوليسية " .

" لكنه احتمال قائم ؟ " .

" احتمال غير مرجح " .

قال بيتر لورد :

" أنا لا أتفق معك ، ربمـا سـقط أحـدهم فـى هواهـا ، وأعمى الغضب عينيه عندما رفـضت تقربـه إليهـا ، ولعـل خياله المريض صور له أنها قد أسـاءت إليـه ، إنهـا فكـرة معقولة " .

" نعم ، إنها فكـرة معقولـة " هكـذا جـاء رد هيركيـول بوارو ، لكن نبرة صوته لم تكن مشجعة .

قال بيتر لورد فى استجداء :

"أكمل يا سيد بوارو " .

" إنك تريد منى أن أكون ساحرًا ، وأن أخرج الأرنب من القبعة الفارغة " .

" يمكنك أن تصف الأمر بهذه الطريقة " .

قال هيركيول بوارو : " هناك احتمالية أخرى " .

" أخبرنى بها " .

" لنقل إن شخصًا ما قام بسرقة أنبوبة المورفين من حقيبة الممرضة هوبكنز فى تلك الليلة التى توفيت فيها السيدة ويلمان فى شهر يونيو ، فهل من الممكن أن تكون مارى قد رأت ذلك الشخص ؟ " .

" كانت ستتحدث عن الأمر " .

" كلا يا صديقى ، كن عاقلاً . لو أن مارى رأت إلينور كارليل ، أو رودريك ويلمان ، أو الممرضة أوبريان ، أو حتى أحد الخدم يفتح حقيبة الممرضة هوبكنز ويأخذ منه أنبوبة زجاجية صغيرة ، ماذا كانت ستعتقد ؟ كانت ستظن أن الشخص المعنى قد تم إرساله بواسطة الممرضة هوبكنز لإحضار شيء من حقيبتها ، كانت مسألة كهذا لن تشغل بال مارى جيرارد لمدة طويلة ، لكن من المحتمل أنها سوف تتذكر المسألة فيما بعد ، وتذكرها أمام ذلك الشخص بطريقة عرضية ـ دون أن تتشكك فى أى شىء ، لكن تخيل تأثير ذلك التعليق على الشخص المذنب بقتل السيدة ويلمان ! لقد رأت مارى شيئًا لم يكن من المفترض أن تراه ، ولهذا يجب إسكات مارى بأى ثمن ! أؤكد لك يا صديقى أن من يرتكب جريمة قتل

مرة ، سيجد الأمر أكثر سهولة فى أن يرتكب الجريمة ثانية ! " .

قال بيتر لورد وقد عبس وجهه :

" لقد كنت أعتقد طوال الوقت أن السيدة ويلمان قد أنهت حياتها بنفسها .... " .

" لكنها كانت مشلولة ـ عاجزة ـ لقد كانت حينها مصابة بسكتة دماغية ثانية " .

" نعم ، أعلم ذلك . إن فكرتى تتلخص فى أنها قد وضعت الأنبوبة فى وعاء قريب من يديها بعد أن حصلت عليها بطريقة أو بأخرى " .

" لكن بهذه الطريقة يجب أن تكون قد حصلت على الأنبوبة قبل أن تصاب بالسكتة الدماغية الثانية ، رغم أن الممرضة لم تلحظ اختفاءها إلا فى وقت لاحق من توقيت تلك السكتة الثانية " .

" ربما تكون الممرضة هوبكنز قد لاحظت غياب تلك الأنبوبة فى صباح ذلك اليوم ، لكن عملية سرقة الأنبوبة قد تكون قد حدثت قبل عدة أيام ــ دون أن تلحظ غيابها " .

" وكيف يتسنى للسيدة العجوز الوصول لتلك الأنبوبة ؟ " .

" لا أدرى . ربما تكون قد رشت إحدى الخادمات لتسرقها من أجلها ، ولو أن ذلك قد حدث ، فلا أظن أن تلك الخادمة سوف تعترف بذلك " .

" ألا تعتقد أن أيًا من المرضتين كانت لتقبل رشوة ؟ " .

هز بيتر لورد رأسه نفياً وقال :

" هذا من رابع المستحيلات ! أولاً ؛ لأنهما تتعاملان بصرامة شديدة حيال أى شىء يتعلق بأخلاقيات مهنتهما - بالإضافة إلى أنهما كانتا لتشعران برعب شديد من أن تقدما على فعل شىء كهذا . وذلك لأنهما كانتا تعرفان المخاطر التى ينطوى عليها الأمر بالنسبة لهما " .

قال بوارو :

" هذا صحيح " .

ثم أضاف بتأمل :

" يبدو أننا سنعود إلى نقطة البداية ، أليس كذلك ؟ والسؤال الذى يطرح نفسه : من هو الشخص المرشح أكثر من غيره لسرقة تلك الأنبوبة ؟ والإجابة هى : إلينور كارليل . نستطيع أن نقول إنها أرادت أن تضمن أن ترث ثروة ضخمة ، وقد نكون أكثر كرما فنقول إن دافعها إلى ذلك كان الشفقة بعمتها المريضة - أقصد أنها قد أخذت المورفين وحقنته لعمتها بناء على رغبة عمتها وطلبها المتكرر ؛ لكنها أخذت المورفين بالفعل - ورأتها مارى وهى تفعل ذلك ، وهكذا نجد أنفسنا نعود مجددًا إلى الشطائر والمنزل الخاوى ، ونجد أنفسنا مجددًا أمام إلينور كارليل - لكن هذه المرة بدافع مختلف : أن تنقذ عنقها من حبل المشنقة " .

صاح بيتر لورد :

" هذا رائع للغاية . إننى أقول إنها ليست من ذلك النوع من البشر ! إن المال لا يعنى شيئاً بالنسبة لها - ويجب أن أعترف أنه لا يعنى شيئا بالنسبة لرودريك ويلمان ، فقد سمعتهما يتحدثان بخصوص هذا الأمر ! " .

" هل سمعتهما حقاً ؟ هذا أمر مثير للاهتمام ، إننى دائماً ما أتشكك بشدة فيما يسمعه الناس " .

قال بيتر لورد :

" تباً لك يا بوارو ، هل يجب أن تحرّف الأمور دائمًا حتى تعود إلى اتهام تلك الفتاة ؟ " .

" لست أنا من يحرّف الأمور ويغيرها : إن الأمور تعود إلى تلك الفتاة من تلقاء نفسها ، إن الأمر أشبه بمؤشر عجلة الحظ فى الملاهى ، حيث تجد المؤشر يدور ويدور ، ثم تجده فى كل مرة يعود لكى يتوقف ويشير إلى اسم واحد - *إلينور كارليل* " .

قال بيتر لورد :

" كلا ! " .

هز هيركيول رأسه فى أسى .

ثم قال :

" هل لدى إلينور كارليل أى أقارب ؟ أخوات ؟ أبناء عمومة ؟ والد أو والدة ؟ " .

" كلا ، إنها يتيمة — إنسانة وحيدة فى هذا العالم ... " .

" كم يبدو ذلك مثيرًا للتعاطف ، وأنا واثق أن محاميها بالمر سوف يتغنى بهذه المسألة كثيرًا ! إذن من يرث أموالها فى حالة وفاتها ؟ " .

" لا أدرى ، لم أفكر فى هذا الأمر " .

قال بوارو بنبرة تأنيب :

" يجب على المرء أن يفكر فى هذه المسائل دائمًا ، هل قامت مثلاً بترك وصية ؟ " .

تضرج وجه بيتر بحمرة الخجل ، وقال بتردد :

" لا .... لا أعلم " .

نظر هيركيول بوارو إلى السقف وشبك أطراف أصابعه . ثم قال :

" سيكون أمرًا جيدًا إذا أخبرتنى بما تعرف " .

" أخبرك بماذا ؟ " .

" كل ما يجول بخاطرك ـ مهما كنت تظن أنه سيضر بمصلحة إلينور كارليل " .

" وكيف تعرف أننى .... " .

" نعم ، نعم ، أعرف . هناك شىء ما ، *حادثة ما* تدور ملابساتها فى مخيلتك ! سيكون من الأفضل أن تخبرنى بها ، وإلا سوف أظن أن الأمر أسوأ مما هو بالفعل " .

" إنه شيء غير مهم ، مجرد .... " .

" سوف نتفق أنه شىء غير مهم حقاً ، لكن دعنى أسمع ما هو " .

وبيطه ، وضد رغبته ، سمح بيتر لورد للقصة بأن تتسلل من بين شفتيه - وقص على بوارو ذلك المشهد الذى وقفت خلاله إلينور تستند إلى حافة نافذة كوخ الممرضة هوبكنز ، وتضحك تلك الضحكة الغريبة .

قال بوارو متأملاً :

" إذن فقد قالت إلينور : " *إذن فأنت تكتبين وصيتك يا ماري؟ هذا غريب ... هذا غريب للغاية* " . وقد بدا واضحًا ما يدور في رأسها .... ربما كانت تفكر أن ماري لن تعيش طويلا ....." .

قال بيتر لورد :

" لا أدرى ، لعلى تخيلت ذلك فقط " .

قال بوارو :

" كلا ، إنه لم يكن مجرد تخيل بالنسبة لك .... " .

الفصل ٣

جلس هيركيول بوارو فى كوخ الممرضة هوبكنز .

كان الدكتور لورد قد أحضره إلى هناك ، وقدمه إلى الممرضة هوبكنز ، وعندها ـ وبإشارة من عين بوارو ـ تركه لكى يتحدث إلى الممرضة هوبكنز حديثاً منفرداً .

بعد أن تطلعت الممرضة هوبكنز إلى مظهره الأجنبى بطرف عينيها ورمقته ببعض نظرات الاستعلاء ، بدأت تتخلى عن تحفظها بسرعة .

ثم قالت بنبرة يكسوها قليل من الحزن :

" نعم ، إنه شىء فظيع ... بل هو أفظع الأشياء التى رأيتها فى حياتى . لقد كانت مارى من أجمل الفتيات اللاتى رأيتهن فى حياتى ، بل إننى أعتقد أنه كان بوسعها أن تعمل فى السينما إذا أرادت ! إلى جانب أنها كانت فتاة متزنة ولطيفة ، ولم يدفعها كل هذا الاهتمام الذى تلقته إلى أن تصبح إنسانة متكبرة أو متعجرفة " .

قال بوارو وهو يلقى إليها سؤالاً ماكرًا :

" أتقصدين الاهتمام الذى كانت توليه إياها السيدة ويلمان ؟ " .

" هذا ما أقصده تمامًا ، لقد كانت السيدة ويلمان شديدة الولع بها ... حقًا ، لقد كانت تهتم بها كثيرًا " .

تمتم هيركيول بوارو :

" بشكل يثير الاندهاش ، أليس كذلك ؟ " .

" هذا يتوقف على .... ربما كان الأمر طبيعيًا للغاية ، أقصد .... " عضت المرضة هوبكنز على شفتيها وبدت مرتبكة وهى تكمل : " ما أقصده هو أن مارى كان تتميز بخصال جميلة : فقد كان لها صوت ناعم لطيف وسلوك لطيف ، وفى رأيى الشخصى أن السيدة العجوز كانت تستمتع بصحبة تلك الفتاة الشابة " .

قال هيركيول بوارو :

" أظن أن الآنسة إلينور كارليل كانت تأتى من وقت لآخر لزيارة عمتها ، أليس كذلك ؟ " .

قالت المرضة هوبكنز بحدة :

" إن الآنسة إلينور كانت تأتى إلى هانتربيرى عندما يناسب المجىء مصلحتها " .

تمتم بوارو قائلاً :

" أنت لا تحبين الآنسة إلينور " .

صاحت المرضة هوبكنز :

" أتمنى من كل قلبى ألا أحبها أبداً ! إنها قاتلة ! قاتلة تدس السم بوحشية ودم بارد " .

قال بوارو : " أه ، أرى أنك قد حسمت رأيك حيال الأمر " .

قالت الممرضة هوبكنز بتشكك :

" ماذا تعنى ؟ ماذا تقصد بقولك هذا ؟ " .

" إنك تبدين واثقة من أنها من دست المورفين وقدمته إلى مارى جيرارد " .

" ومن غيرها كان بوسعه أن يفعل ذلك ؟ أتظن أننى من فعل ذلك ؟ " .

" لم أشك للحظة واحدة ،ولكن يجب أن تتذكرى أنه لم تثبت إدانتها حتى الآن " .

قالت الممرضة هوبكنز فى ثقة هادئة :

" لقد فعلتها بالفعل ، وبعيدًا عن كل الأدلة التى تدينها ، فإنك تستطيع أيضا أن ترى هذا فى ملامح وجهها . لقد كانت تتصرف بغرابة شديدة طوال الوقت ، ولقد جعلتنى أرافقها إلى الطابق العلوى وأبقتنى هناك - وعطلتنى أطول فترة ممكنة ، وعندما التفت إليها - بعد أن وجدت مارى على تلك الحالة - قرأت الأمر فى ملامح وجهها كأنما أقرأ فى كتاب مفتوح ، لقد كانت تعلم أننى عرفت بما فعلته ! " .

قال هيركيول بوارو بتأمل :

" إن تصور قيام شخص آخر بدس السم مسألة شديدة الصعوبة ، ما لم تكن هى من فعلت ذلك بنفسها " .

" ماذا تقصد بـ " هى من فعلت ذلك بنفسها " ؟ أتقصد أن مارى قد انتحرت ؟ أنا لم أسمع بهذا الهراء من قبل ! " .

قال هيركيول بوارو :

" إن المرء لا يمكنه أبداً تخمين تصرف كهذا ، وذلك أن قلب الفتيات الشابات دائمًا ما يكون حساسًا جدًا ورقيقاً للغاية " ثم توقف للحظة وأردف : " أظن أن المسألة ممكنة من الناحية النظرية ، أليس كذلك ؟ ربما كان باستطاعتها أن تدس السم فى الشاى دون أن تلاحظى ذلك ؟ " .

" أتقصد أن تضع السم فى قدح الشاى الخاص بها ؟ " .

" نعم . فإنك لم تبق عينيك عليها طوال الوقت " .

" كلا ، لم أكن أراقبها طوال الوقت . حسنًا ، أظن أنه كان باستطاعتها أن تقوم بذلك .... لكن كل ما تقوله مجرد لغو فارغ ! ولماذا تقدم على شىء كهذا ؟ " .

هز هيركيول بوارو رأسه مستعيداً أسلوبه المعتاد .

وقال : " إن قلب الفتيات الشابات ـ كما كنت أقول ـ شديد الحساسية ، ربما تحطم قلبها بسبب علاقة حب غير سعيدة ... " .

أطلقت الممرضة هوبكنز صيحة استهجان .

" الفتيات لا ينتحرن بسبب علاقة حب ـ على الأقل ما لم تقف عائلاتهن فى وجه ذلك الحب ـ ودعنى أقل لك إن مارى لم تكن من تلك النوعية من الفتيات ! " .

نطقت الممرضة هوبكنز بتلك الكلمات ، ثم رمقت بوارو بنظرة شرسة .

" ألم تكن مارى تحب أحدهم ؟ " .

" هذا ليس أسلوبها ، لقد كانت مارى ذات روح منطلقة ، تحب عملها بشدة وتستمتع كثيرا بحياتها " .

" لكن لابد أنه كان لديها معجبون ، بما أنها كانت فتاة فاتنة " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" لم تكن مارى واحدة من تلك الفتيات الاجتماعيات التى ترتاد الحفلات وتستهويها المغامرات العاطفية ، لقد كانت فتاة هادئة الطباع " .

" لكن لابد أنه كان هناك شبان فى داخل القرية معجبون بها " .

قالت الممرضة هوبكنز : " بالطبع ، كان هناك شاب معجب بها ، يدعى تيد بيجلاند " .

سأل بوارو الممرضة هوبكنز عدة أسئلة حتى يعلم بعض التفاصيل عن تيد بيجلاند .

قالت الممرضة هوبكنز : " لقد كان مغرماً بها للغاية ، ولكنها كانت ـ كما كنت أقول لها دائمًا ـ أعلى منه فى المستوى الاجتماعى " .

قال بوارو :

" لابد أن الغضب أصابه بشدة عندما لم تبادله مارى نفس مشاعر الحب ، أليس كذلك ؟ " .

قالت المرضة بنبرة اعتراف : " نعم ، لقد كان منزعجًا بسبب الأمر ، بل وألقى باللائمة عليّ أيضا " .

" هل كان يعتقد أنك السبب في ذلك ؟ " .

" هذا ما قاله ، لكنى أعلم أنه كان لدى كل الحق فى إسداء النصح لتلك الفتاة ، فأنا أكثر خبرة ودراية بهذا العالم على كل حال ، ولم أكن أريدها أن تضيع حياتها وشبابها سدى " .

قال بوارو برقة :

" ما الذى جعلك تهتمين كثيرا بأمر هذه الفتاة ؟ " .

" فى الواقع ، لا أدرى .... " ترددت المرضة هوبكنز فى استكمال الكلام ، وبدت خجلة ومحرجة ، ثم أردفت : " كان هناك شيء ما .... حسنًا .... شيء رومانسي يتعلق بـ مارى " .

غمغم بوارو :

" ربما يتعلق بها ، ولكن لا علاقة له بظروفها ، لقد كانت ابنة حارس الكوخ ، أليس كذلك ؟ " .

قالت المرضة هوبكنز :

" نعم .... نعم ، بالطبع . على الأقل .... " .

ترددت مجددًا ، ونظرت إلى بوارو ـ الذى كان يحدق النظر إليها فى نظرات تعاطف قوية .

ثم قالت المرضة هوبكنز ـ فى إحساس مفاجئ بالثقة : " فى الواقع ، لم تكن مارى ابنة الحارس

جيرارد على الإطلاق ، وقد أخبرنى هو بذلك على فراش الموت ، وقال إن أباها كان رجلاً نبيلاً " .

تمتم بوارو :

" فهمت .... وماذا عن والدتها ؟ " .

ترددت المرضة هوبكنز ، وعضت على شفتها السفلى ، ثم أكملت تقول :

" كانت أمها تعمل خادمة لدى السيدة ويلمان ، وقد تزوجت من جيرارد بعد ولادة مارى " .

" تماما كما قلت ، قصة رومانسية ....لكنها قصة رومانسية يغلفها الغموض " .

أضاء وجه الممرضة هوبكنز .

وقالت : " ألا تتفق معى فى ذلك ؟ إن المرء لا يستطيع منع نفسه من الاهتمام ببعض الأشخاص الذين يعرف عنهم ما لا يعرفه الآخرون . وبالمصادفة البحتة توصلت إلى معرفة الكثير عن هذه الفتاة ، فى الواقع ، لقد كانت الممرضة أوبريان هى من وضع قدمى على بداية الطريق ؛ لكن هذه قصة أخرى لا يتسع المجال لها الآن . لكنه من المثير ـ كما كنت تقول ـ معرفة التاريخ السابق لبعض الأشخاص ، إذ ربما هناك مأساة لم يعلم بها أو يسمع عنها أحد ... فنحن نعيش فى عالم تغلفه التعاسة ! " .

تنهد بوارو وهز رأسه .

ثم قالت الممرضة هوبكنز بنبرة يكسوها قلق مفاجئ :

" لكن ما كان يجب عليّ أن أتحدث معك في مثل هذه الأمور ، فإنني لا أرغب في أن يعلم أحد بكلمة عن هذا الموضوع مهما كان السبب ! وعلى كل حال ، فإن تلك المسألة لا ترتبط بالقضية التي بين أيدينا من قريب أو بعيد ، فالمعروف لدى الجميع هو أن ماري ابنة جيرارد ، ولا يجب أن يكون هناك أي تلميح إلى خلاف ذلك ، فإنني لا أرى أي فائدة ترجى من تلطيخ الفتاة بالعار بعد موتها ! لقد تزوج جيرارد من والدة ماري ، وهذا يكفي ! " .

تمتم بوارو :

" لكنك ربما تعرفين من هو والدها الحقيقي ؟ " .

قالت المرضة هوبكنز على مضض :

" حسنًا ، ربما أعلم من يكون ، وربما لا أعلم ... أقصد أنني لا أمتلك معلومة حقيقية ، وإنما مجرد تخمين ، فأخطاء الماضي البعيد لها ظلال واضحة للأعين - كما يقولون ! لكنني لست بالمرأة التي تخوض في مثل هذه الأمور ، ولن أنطق بكلمة أخرى في هذا الموضوع " .

تراجع بوارو ببراعة عن هجومه تجاه هذه النقطة وغير دفة الحديث إلى موضوع آخر .

" هناك مسألة أخرى .... موضوع حساس للغاية ، لكني على يقين أنني أستطيع الاعتماد على تكتمك " .

هدأت ملامح المرضة هوبكنز ، وتهلل وجهها بابتسامة عريضة .

أكمل بوارو يقول :

" إنننى أتحدث عن السيد رودريك ويلمان ، لقد سمعت أنه كان منجذباً إلى مارى جيرارد " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" بل قل مغرما بها ! " .

" على الرغم من أنه كان فى تلك الفترة مرتبطاً بالآنسة إلينور كارليل ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز : " لو أردت رأيى ، لقلت لك إنه لم يكن مطلقا مغرماً بإلينور كارليل - على الأقل ليس ما يمكننى تسميته بالحب " .

تساءل بوارو - مستخدمًا تعبيرًا قديمًا :

" هل شجعته مارى جيرارد على التقرب منها ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز بحدة :

" لقد كان سلوك مارى مثاليًا ، ولا يمكن لأحدهم أن يدعى أنها قد أغوته ! " .

قال بوارو :

" أكانت تحبه ؟ " .

ردت الممرضة هوبكنز بنبرة حادة :

" كلا ، لم تكن تحبه " .

" ولكنها كانت معجبة به ؟ " .

" أوه ، نعم ، كانت معجبة به إلى حد ما " .

" وأظن أنه بمرور الوقت ، كان ذلك الإعجاب ليتحول إلى حب ؟ " .

أقرت الممرضة هوبكنز بذلك قائلة :

" ربما كان ذلك ليحدث ، لكن مارى ما كانت لتتصرف بتهور أو تسرع ، ولقد قالت له هنا إنه لا يحق له أن يحدّثها فى مسألة كهذه ، ما دام مرتبطا بالآنسة إلينور . وعندما حضر لزيارتها فى لندن ، كررت له نفس الكلمات " .

تساءل بوارو بمسحة من الصراحة المشجّعة :

" وما رأيك أنت فى السيد رودريك ويلمان ؟ " .

" إنه شاب لطيف إلى حد كبير ، وإن كان عصبياً بعض الشىء ، وأظن أنه قد يصاب بأمراض عسر الهضم لاحقاً فى حياته ، فهؤلاء الأشخاص العصبيون غالبًا ما يصابون بتلك الأمراض " .

" أكان يحب عمته كثيرا ؟ " .

" أعتقد ذلك " .

" أكان يلازمها كثيرا فى أيامها الأخيرة ؟ " .

" أتقصد بعد أن أصيبت بالسكتة الدماغية الثانية ؟ فى الليلة التى سبقت موتها وبعد وصولهما إلى المنزل ؟ لا أعتقد أنه دخل إلى حجرتها على الإطلاق ! " .

" حقا ! " .

قالت الممرضة هوبكنز بسرعة :

" السيدة ويلمان لم تطلب دخوله ، ولم تكن لديه فكرة أن حياة السيدة قد اقتربت للغاية من نهايتها ، وهناك الكثير من الرجال على هذا النحو ، أقصد أنهم لا يحبون

التواجد فى غرف المرضى ، والأمر ليس بأيديهم ، ولا علاقة له بتحجر القلب أو برودة المشاعر المعروفين عن الرجال ، ولكنهم فقط يكرهون مشاعر الانزعاج والضيق " .

أومأ بوارو برأسه متفهمًا .

وقال متسائلاً :

" هل أنت واثقة أن السيد رودريك لم يدخل إلى حجرة عمته قبل موتها ؟ " .

" ليس خلال نوبتى ! لقد بدلت نوبة الخدمة مع الممرضة أوبريان فى تمام الثالثة فجرا ، وربما تكون قد استدعته السيدة ويلمان خلال نوبة خدمة الممرضة أوبريان ؛ ولكنها لم تخبرنى بشىء كهذا ـ إن كان قد حدث من الأساس ! " .

قال بوارو :

" ربما يكون قد دخل إلى غرفة عمته فى غيابك ؟ " .

صاحت الممرضة هوبكنز :

" أنا لا أترك مرضاى أبدًا يا سيد بوارو " .

" أعتذر بشدة ، أنا لم أقصد ذلك على الإطلاق ، وما عنيته هو أنه ربما تكونين قد ذهبت لغلى بعض الماء ، أو نزلت إلى الطابق السفلى لإحضار بعض المشروبات المنبهة الضرورية " .

قالت الممرضة هوبكنز وقد هدأت ثورتها :

" لقد ذهبت إلى الطابق السفلي لتغيير زجاجات المياه وإعادة ملئها ، حيث إنني كنت أعلم بوجود غلاية مياه فوق الموقد بالمطبخ فى الطابق السفلي " .

" هل غبت عن الغرفة لوقت طويل ؟ " .

" تقريبا خمس دقائق " .

" أوه ، إذن ربما يكون السيد رودريك قد ألقى نظرة سريعة على عمته ؟ " .

" لو كان قد فعل ، فلابد أن ذلك قد حدث بسرعة كبيرة جدًا " .

تنهد بوارو وقال :

" كما كنت تقولين من قبل ، الرجال يعانون خجلاً شديدًا من المرض ، لكن النساء هن من يمددن يد المساعدة ويفضن بالرحمة ، ماذا يمكننا أن نفعل بدونهن ؟ وخاصة النساء اللاتى يعملن فى مهنتك ... إنهن حقًا ملائكة الرحمة " .

قالت الممرضة هوبكنز ـ وقد احمر وجهها قليلاً :

" من اللطيف منك أن تذكر شيئاً كهذا ، رغم أنى لم أنظر إلى هذا الأمر من تلك الناحية أبداً ، فالعمل الشاق فى مجال التمريض قد صرف نظرى عن التفكير فى الجانب النبيل الذى يمثله " .

قال بوارو :

" أهناك شىء آخر تستطيعين أن تخبرينى به عن مارى جيرارد ؟ " .

تـرددت المرضـة هـوبكنز بـشكل ملحـوظ قبـل أن تجيب :

" أنا لا أعلم أى شيء آخر " .

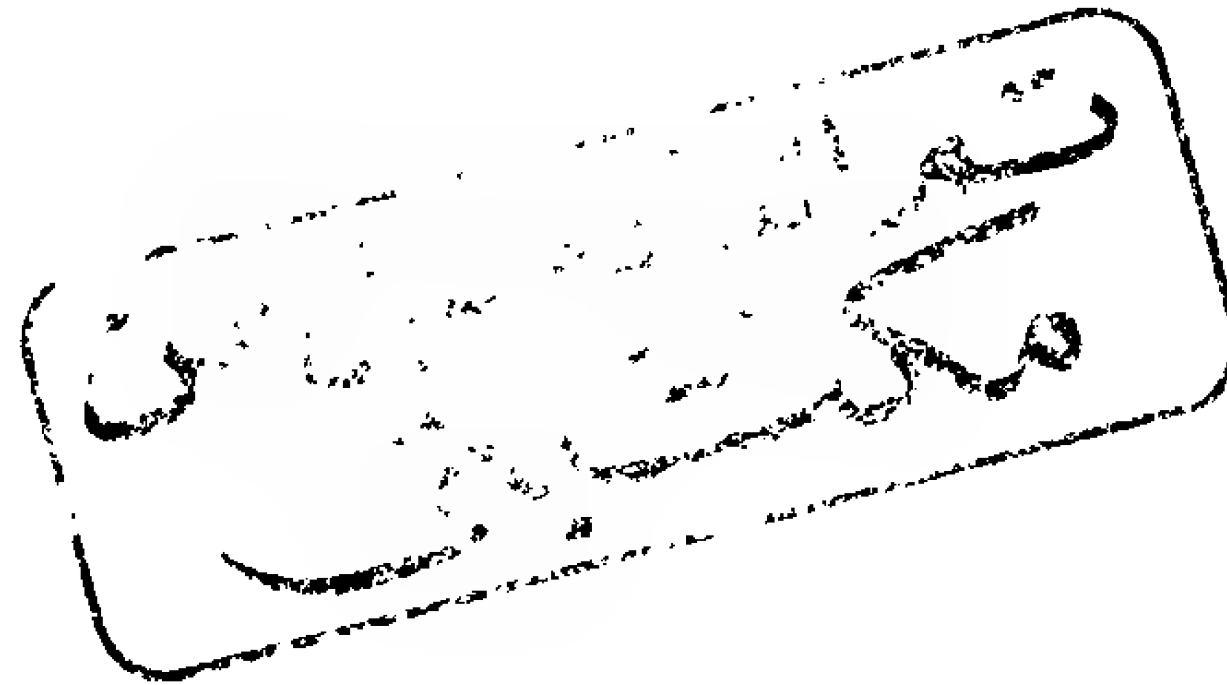
" هل أنت واثقة من ذلك ؟ " .

قالت المرضة هوبكنز بنبرة غير واضحة :

" أنت لا تفهم ... لقد كنت أحب مارى كثيراً " .

" أليس هناك شيء آخر تريدين إطلاعى عليه ؟ " .

" كلا ، لا يوجد أى شيء ... وهذا هو آخر مـا لـدىّ لأقوله " .



الفصل ٤

جلس هيركيول بوارو فى تواضع جم فى حضرة السيدة بيشوب المتشحة بثوبها الأسود .

كان دفع السيدة بيشوب للتخلى عن تحفظها المعتاد مسألة ليست هينة على الإطلاق ، فالسيدة بيشوب ـ وهى امرأة متحفظة فى عاداتها وآرائها ـ لم تكن تحب الأجانب أو ترحب بهم مطلقاً ، ولقد بدا واضحًا للغاية أن هيركيول بوارو أجنبى بكل ما تحمله الكلمة من معان ، ولهذا كانت استجاباتها جامدة وكانت تتطلع إليه بنظرات تحمل قدرا كبيرا من الامتعاض والتشكك .

ولم ينجح تقديم الدكتور لورد له فى التخفيف من برودة الموقف كثيرًا .

قالت السيدة بيشوب بعد مغادرة الدكتور لورد : " أنا على يقين أن الدكتور لورد طبيب ذكى وسليم النوايا ، ولقد عاش الدكتور رانسوم ـ سلفه ـ فى القرية لسنوات طويلة ! " .

وما قصدته السيدة بيشوب حقا هو أنها كانت تثق فـى حسن تصرف الدكتور رانسوم وقيامه بما هو مناسب ولائـق بمصلحة المقاطعة ، أما الدكتور لورد ـ ذلك الطبيب الشاب غير المسئول ، الذى حل محل الطبيـب رانـسوم ـ لم يكـن له سوى صفة واحدة جيدة فـى ميزانـه : " براعتـه " فـى أداء عمله .

وقد بدا واضحًا من سلوك السيدة بيشوب أنها تظـن أن البراعة والذكاء لا يكفيان .

كان هيركيول بوارو رجلاً شديد الإقناع ، وداهيـة حـاد الذكاء . لكن على الرغم مـن كـل حيلـه وبراعتـه ، بقيـت السيدة بيشوب متحفظة لا تلين .

كانت وفاة السيدة ويلمان مسألة محزنة للغايـة ، فلقـد كانت موضع احترام كبير بين أهالى المنطقـة ، أمـا القـبض على الآنسة إلينور فقد كان " فضيحة " كبيرة . وقد أقرت السيدة بيشوب أنها تعتقد أن السبب وراء ذلـك يرجـع إلى تلك " الأساليب الجديدة " التى يستخدمها رجال الـشرطة فى تحقيقاتهم ، وبالنسبة لرأى السيدة بيشوب حول مقتل مارى جيرارد فقد كانت غامضة إلى أبعد حـد وكـان ردهـا المعتاد على معظم الأسئلة هو : " لست واثقة من ذلك " .

وأخيرًا ألقى هيركيول بوارو بآخر أوراقه . حيـث ألقـى بوارو ـ بإحساس ساذج بـالفخر ـ علـى مـسامعها تفاصيل زيارته الأخيرة إلى قصر ساندرينجهام ـ المقر الصيفى لملكـة بريطانيـا ـ وتحـدث بإعجـاب عـن عظمـة العائلـة المالكـة

وبساطة تعاملها والراحة التى يحسها المرء بسبب الطيبة التى يتحلى بها الجميع هناك .

بدت السيدة بيشوب - والتى اعتادت على متابعة أخبار وتحركات العائلة المالكة يوميا - فى حالة انبهار حقيقى ، وعلى كل حال ، لو أن العائلة المالكة قد أرسلت تطلب حضور بوارو .... حسنًا ، بالطبع ذلك يجعل الموقف يختلف تمامًا ، وسواء كان الرجل أجنبيًا أم من أهل البلد ، فمن تكون إيما بيشوب لتحجم عن التعاون مع رجل دعته العائلة المالكة للزيارة ؟

وعلى الفور انخرطت هى والسيد بوارو فى محادثة لطيفة حول موضوع مثير للاهتمام - ألا وهو اختيار زوج المستقبل المناسب للأميرة إليزابيث .

وبعد أن انتهيا من تصنيف كل الرجال المحتملين وإعطائهم علامة " غير مقبول " بدأت المحادثة تتجه نحو موضوعات أقل أهمية .

قال بوارو فى تأمل :

" إن الزواج هذه الأيام صار أمراً تحيطه المتاعب والأخطار ! " .

ردت السيدة بيشوب :

" نعم بالفعل .... وخصوصا بعد السماح للزوجين بالحصول على الطلاق لأتفه الأسباب " ، بدت السيدة بيشوب وكأنما تشير إلى مرض معدٍ مثل الحصبة أو الجدرى .

قال بوارو : " أظن أن السيدة ويلمان قبل وفاتها كانت متلهفة على أن ترى ابنة أخيها مستقرة في بيت الزوجية ، أليس كذلك ؟ " .

أومأت السيدة بيشوب برأسها .

" نعم ، بالفعل . لقد كانت خطبة الآنسة إلينور والسيد رودريك مصدر ارتياح كبير لها ، فقد كان ارتباطهما أمرًا طالما تمنته المرأة العجوز " .

قال بوارو :

" يبدو أن الخطبة قد عُقدت بين الشابين رغبة فقط في إرضاء السيدة ويلمان ؟ " .

" أوه ، كلا ، ما كنت لأقول بذلك يا سيد بوارو . فلقد كانت الآنسة إلينور متفانية دائما في حب السيد رودريك ... لقد كانت تضعه نصب عينيها منذ كانت طفلة صغيرة جميلة الملامح ، إن الآنسة إلينور تمتلك طبيعة مخلصة ومتفانية للغاية ! " .

تمتم بوارو :

" وماذا عن السيد رودريك ؟ " .

ردت السيدة في عبوس :

" لقد كان السيد رودريك مخلصًا للآنسة إلينور " .

قال بوارو :

" ومع ذلك فقد فُسخت الخطبة ، أليس كذلك ؟ " .

تضرج وجه السيدة بيشوب بحمرة الغضب ، وقالت :

" يرجع الفضل فى ذلك إلى مؤامرة دبرتها حية رقطاء " .

قال بوارو ، وهو يرسم على وجهه علامات الانبهار :

" حقا ؟ " .

قالت السيدة بيشوب ، وقد ازداد وجهها توهجاً :

" هناك آداب يجب المحافظة عليها عند التحدث عن الموتى فى هذه البلاد يا سيد بوارو ، ولكن تلك الفتاة الشابة يا سيد بوارو كانت مخادعة وماكرة فى تصرفاتها " .

نظر إليها بوارو متأملاً للحظة .

ثم قال ـ متظاهرا بالسذاجة :

" لقد فاجأنى كلامك للغاية ، فلقد توصلت إلى انطباع ـ من خلال وصف الآخرين ـ أن مارى جيرارد كانت فتاة بسيطة ومتواضعة للغاية " .

ارتجف ذقن السيدة بيشوب قليلاً .

وقالت : " لقد كانت داهية فى خداعها يا سيد بوارو ، وكان الأمر ينطلى على الناس ـ تلك الممرضة هوبكنز على سبيل المثال ! وكذلك سيدتى العزيزة المسكينة ! " .

هز بوارو رأسه فى تعاطف ظاهر وزم شفتيه كناية عن عدم الرضا .

قالت السيدة بيشوب ـ وقد تحمست لتلك التعبيرات التى أظهرها بوارو : " نعم ، بالفعل . لقد كانت سيدتى

المسكينة في مرحلة ضعف ، واستطاعت تلك الشابة أن تتسلل إلى قلبها وتكسب ثقتها ، فقد كانت تعلم أقصر الطرق إلى قلب سيدتى ، فكانت تحوم حولها طوال الوقت ، وتقرأ لها ، وتحضر لها باقات الزهور . لقد كان لسان سيدتى لا ينقطع عن ذكر ما فعلته مارى هنا وما صنعته مارى هناك ، وكانت تسأل عنها طوال الوقت ! وهناك أيضا مسألة الأموال التى كانت تنفقها سيدتى على تلك الفتاة ، حيث أرسلتها إلى مدارس فخمة وجعلتها تسافر لتكمل تعليمها بالخارج - كل ذلك من أجل ابنة جيرارد ، حارس الكوخ ! ودعنى أقل لك إن والدها نفسه لم يكن مرتاحًا لهذا الأمر ، وكم اعتاد أن يشكو من تصرفاتها التى تشبه تصرفات النبلاء ، لقد كانت تلك الفتاة دائما ما تتصرف بطريقة لا تناسب مكانتها الاجتماعية الوضيعة " .

هز بوارو رأسه بقوة هذه المرة ، وقال بنبرة مواساة :

" رفقاً بنفسك سيدتى " .

أردفت السيدة بيشوب : " ثم جاء أمر إغوائها للسيد رودريك بهذه الطريقة الواضحة ! لقد كان الفتى أطيب من أن يرى حقيقة خططها الماكرة ، ولم تلاحظ الآنسة إلينور ما يجرى نظرا لطبيعتها النبيلة وقلبها الطيب ، لكن الرجال جميعهم على نفس الشاكلة : من السهل أن يقعوا فى حبائل امرأة لحلو حديثها وجمال ملامحها ! " .

تنهد بوارو .

وقال متسائلاً : " أظن أن مارى كان لها معجبون من داخل طبقتها الاجتماعية ؟ " .

" بالطبع كان لديها معجبون ، كان هناك تيد - ابن روفس بيجلاند - وهو شاب من ألطف ما يكون ، لكن مارى - سليلة الحسب والنسب - كانت ترى أنه لا يناسب مستواها ! كم أمقت هذه التكبر الزائف والأسلوب المتعالى ! " .

قال بوارو :

" ألم يكن ذلك الفتى - تيد - غاضبًا من طريقة تعاملها معه ؟ " .

" بالفعل كان غاضبًا ، ولقد اتهمها بأنها على علاقة بالسيد رودى ، وحيث إننى أعلم أنها كانت كذلك بالفعل ، فأنا لا ألوم الفتى على شعوره بالغضب ! " .

قال بوارو : " ولا أنا أستطيع لومه . إنك تثيرين اهتمامى كثيرا يا سيدة بيشوب ، فبعض الناس لديهم براعة فى تحليل الشخصيات بوضوح وقوة فى بضع كلمات قليلة ، إنها موهبة عظيمة ، ولقد صار لدىَّ الآن صورة واضحة لشخصية مارى جيرارد " .

قالت السيدة بيشوب : " أتمنى ألا تظن أننى أتحدث بالسوء عن تلك الفتاة ! أنا ما كنت لأفعل شيئًا كهذا - وهى فى قبرها - ولكنها بالفعل قد تسببت فى متاعب كثيرة ! "

غمغم بوارو :

" أتساءل ، كيف كان الأمر لينتهى ؟ " .

قالت السيدة بيشوب : " هذا ما أقصده ! ويمكنك أن تثق فيما أقوله ، وهو أنه لولا موت سيدتى فى هذا التوقيت - والذى أرى الآن أنه جاء رحمة بالجميع ، ورغم كل الصدمة التى أحسسناها - فلم يكن أحد ليعلم كيف كانت الأمور ستنتهى " .

تساءل بوارو فى لهجة مشجعة :

" ماذا تقصدين ؟ " .

قالت السيدة بيشوب بيقين :

" لقد رأيت الأمر يحدث أمام عينى مرات ومرات ، بل إن شقيقتى نفسها شاهدته فى بيت كانت تخدم فيه . فى إحدى المرات توفى الكولونيل راندولف وترك كل مليم يمتلكه إلى غانية لعوب تعيش فى مدينة ايستبورن ، تاركًا زوجته بلا شيء - وفى حادثة مشابهة ، تركت السيدة داكريس كل ثروتها لعازف كمان ممن يعلمون فى إحدى الجمعيات الخيرية ، رغم أنه كان لديها بنات وأبناء راشدون ومتزوجون " .

قال بوارو :

" أتقصدين أن السيدة ويلمان ربما كانت لتترك كل أموالها إلى مارى جيرارد ؟ " .

قالت السيدة بيشوب : " ما كان ذلك ليمثل لى أدنى مفاجأة ! بل إننى متأكدة أن ذلك هو ما كانت تسعى إليه وتدبر له تلك الفتاة ، ولو أننى نطقت حينها بكلمة

اعتراض ، فإننى واثقة أن السيدة كانت على استعداد لتطيح برأسى ، على الرغم من خدمتى لها طوال عشرين عامًا . إنه عالم جاحد يا سيد بوارو ، وكم من مرة تحاول أن تقوم فيها بواجبك ، فلا تجد أحدًا يقدر صنيعك هذا " .

تنهد بوارو قائلاً : " لا شك عندى فى صحة ذلك ! " .

قالت السيدة بيشوب : " لكن الشر لا ينتصر دائمًا يا سيد بوارو " .

قال بوارو :

" هذا صحيح ، فقد ماتت مارى جيرارد .... " .

قالت السيدة بيشوب بارتياح :

" لقد ذهبت إلى خالقها ، ولا يجب علينا أن نحاكمها نحن الآن " .

قال بوارو بدهاء :

" لكن الملابسات التى أحاطت بموتها تبدو عسيرة الفهم " .

قالت السيدة بيشوب : " تباً لرجال الشرطة هؤلاء وأساليبهم الجديدة ، هل من المعقول أن فتاة سليلة عائلة محترمة ، حسنة التربية ، يمكن أن تضع السم لأى شخص ؟ لقد حاولوا توريطى فى الأمر أيضًا ، قائلين إننى أخبرتهم بأن تصرفاتها كانت غريبة فى ذلك اليوم ! " .

" لكن ألم تكن تصرفاتها غريبة بالفعل ؟ " .

تنهدت السيدة بيشوب في نشاط مفاجئ وقالت : " وكيف لا تتصرف بغرابة ؟ إن الآنسة إلينور شابة ذات مشاعر جياشة ، وكانت متجهة للمنزل لإخلائه من متعلقات عمتها ـ وهذا أمر مؤلم للنفس " .

أومأ بوارو برأسه في تعاطف .

وقال :

" كان الأمر سيكون أهون عليها لو أنك رافقتها إلى المنزل " .

" لقد أردت أن أرافقها يا سيد بوارو ، لكنها رفضت طلبي بقوة ، وذلك لأن الآنسة إلينور كانت دائما شابة متحفظة وذات كبرياء ، ولكني أتمنى لو أنني كنت قد رافقتها على أي حال " .

تمتم بوارو :

" ألم تفكري بتتبعها إلى المنزل ؟ " .

رفعت السيدة بيشوب رأسها في شموخ .

وقالت : " أنا لا أذهب إلى مكان لا أكون مرغوبة فيه يا سيد بوارو " .

بدا بوارو مرتبكًا وهو يتمتم :

" إلى جانب أنه بالتأكيد كان لديك ـ بلا شك ـ أمور ذات أهمية تتطلب اهتمامك ، أليس كذلك ؟ " .

قالت : " أذكر أنه كان يوما حارًا جدًا ، وشديد الرطوبة " ، ثم تنهدت وأردفت : " لقد ذهبت إلى المقابر لكي أضع بعض الزهور على قبر السيدة ويلمان ، تحية

واحترامًا ، ثم استرحت هناك لمدة طويلة ، حيث إن الحرارة كانت قد أرهقتنى للغاية ، ثم وصلت إلى المنزل متأخرة عن موعد الغداء ، وعندما رأت شقيقتى الحالة التى كنت عليها ، انزعجت بشدة وقالت إنه ما كان ينبغى لى أن أذهب فى يوم شديد الحرارة كهذا ! " .

تطلع إليها بوارو بنظرات إعجاب .

وقال :

" إننى أحسدك يا سيدة بيشوب . إنه من اللطيف بالفعل ألا يكون هناك شيء يُؤنب المرء نفسه عليه بعد وفاة أحد أحبائه ، وإننى أتصور أن السيد رودريك ويلمان يلوم نفسه كثيرا الآن على عدم دخوله على عمته فى ليلتها الأخيرة - حتى إن لم يكن يعلم أنها سوف تنتقل قريبا إلى الدار الآخرة " .

" أوه ، لكنك مخطئ تمامًا فى هذا الأمر يا سيد بوارو ، وأستطيع أن أقول لك ذلك كحقيقة مؤكدة . لقد دخل السيد رودريك حجرة عمته فى ليلتها الأخيرة . لقد كنت أقف عند عتبة الدرج خارج حجرتها ، حيث إننى كنت قد سمعت وقع أقدام الممرضة وهى تهبط الدرج ، ورأيت أن أطمئن على أن سيدتى لا تحتاج إلى أى شيء - حيث إنك تعلم كيف هو حال الممرضات : دائما ما تجدهن يجلسن بالطابق السفلى من أجل الثرثرة مع الخادمات ، أو يطالبونهن بكل صغيرة وكبيرة ويجعلونهن دائمًا فى حالة قلق لا ينقطع . وأنا لا أقصد أن الممرضة

هوبكنز كانت سيئة مثل تلك المرضة الأيرلندية ، حمراء الشعر . فلقد كانت تلك الفتاة لا تنقطع عن الثرثرة وإثارة المتاعب ! لكنى - كما كنت أقول - رأيت أن أطمئن على أن الأمور على ما يرام ، وفى تلك اللحظة شاهدت السيد رودريك وهو يدخل إلى حجرة عمته بسرعة . لا أدرى إن كانت قد تعرفت عليه أم لا ؛ لكن لا أظن أن هناك ما يلوم نفسه من أجله ! " .

قال بوارو :

" أنا سعيد لذلك . فهو - كما تعلمين - ذو طبيعة عصبية " .

" إنه حساس تجاه توافه الأمور ، وهذه هى حاله منذ الصغر " .

قال بوارو :

" سيدة بيشوب ، من الواضح أنك امرأة ذات عقلية واسعة الفهم ، ولقد صار عندى تقدير كبير لحكمك على الأمور ، فماذا تعتقدين أنه السبب الحقيقى فى وفاة مارى جيرارد ؟ " .

أصدرت السيدة صوتاً مزعجاً .

وقالت : " أعتقد أن الحقيقة واضحة للغاية ! لقد كانت علب عجينة السمك التى أحضرتها الآنسة إلينور من متجر آبوت فاسدة . إنهم يتركون تلك العلب فوق الأرفف لشهور طويلة ! لقد تعرضت ابنة عمى لحالة

تسمم غذائى ، وكادت تلقى حتفها ، بسبب سمك معلَّب ! " .

قال بوارو باعتراض :

" وماذا عن آثار المورفين التى وجدوها فى جسدها ؟ " .

ردت السيدة بيشوب بكبرياء :

" أنا لا أدرى شيئًا عن ذلك المورفين ! لكنى أعلم كيف يتصرف الأطباء : أخبرهم أنك تبحث عن شيء ما ، وسوف يعثرون عليه ! ويبدو أن عجينة السمك الفاسدة ليست سبباً وجيهًا للوفاة فى نظرهم ! " .

قال بوارو :

" ألا تعتقدين أنه من المحتمل أن تكون الفتاة قد انتحرت ؟ " .

صاحت السيدة بيشوب بصوت مزعج : " تلك الفتاة ؟ على الإطلاق . ألم تكن قد عقدت العزم على الزواج من رودريك ويلمان ؟ فما الذى يجعلها تنتحر إذن ؟! " .

الفصل ٥

حيث إن اليوم كان يـوم الأحـد ، فقـد عثـر هيركيـول بوارو على تيد بيجلاند فى مزرعة أبيه .

لم تكـن هنـاك صـعوبة تـذكر فـى حمـل تيـد علـى الحديث ، فقد بـدا الفتـى مرحبًا بالفرصـة كمـا لـو أنهـا ستزيح عن صدره حملاً ثقيلاً .

قال تيد بتفكر :

" إذن فأنت تحاول معرفة من قتل مارى ؟ إنها بالفعل مسألة محيرة ولغز غير مفهوم " .

قال بوارو :

" إذن فأنت لا تعتقد أن الآنـسة إلينـور هـى مـن قتـل مارى ؟ " .

ظهر العبوس على وجه تيـد بيجلانـد ـ عبـوس مـتحير أشبه بذلك الذى يعترى ملامح طفل صغير .

وقال ببطء :

" إن الآنسة إلينور فتاة نبيلة . إنها من ذلك النوع من الناس الذين لا تعتقد أنهم قادرون على ارتكاب فعل كهذا ... أو أى فعل عنيف ، إذا كنت تفهم ما أقصده . وعلى كل حال ، فمن غير المحتمل أن تُقدم شابة لطيفة نبيلة الأصل مثل الآنسة إلينور على أمر كهذا ، ألا توافقنى ؟ " .

أومأ بوارو برأسه بهدوء .

وقال :

" بلى ، إنه أمر غير مرجح ، لكن عندما تتعلق الأمور بالغيرة .... " .

توقف بوارو عن الكلام ، متطلعًا إلى ذلك الشاب الضخم وسيم الملامح الواقف أمامه .

قال تيد بيجلاند :

" الغيرة ؟ أنا أعلم أن بعض الجرائم تحدث بهذه الطريقة ؛ لكن تناول الكحوليات والانفعال الزائد هما فى العادة ما يجعلان الرجال يتميزون غيظا ويقدمون على ارتكاب حماقات كهذه ، أما الآنسة إلينور - تلك الشابة اللطيفة الهادئة ، فإنها ليست من ذلك النوع .... " .

قال بوارو :

" *لكن مارى جيرارد قد ماتت* .... ولم يكن موتها نتيجة أسباب طبيعية . هل لديك أى فكرة .... أهناك ما يمكنك أن تقوله من أجل مساعدتى على معرفة من قتل مارى جيرارد ؟ " .

هز الفتى رأسه نفيًا ببطء .

وقال :

" لا يبدو الأمر معقولاً ولا محتملاً - إذا كنت تفهم قصدى - أن يقوم أحدهم بقتل مارى . لقد كانت ... لقد كانت أشبه بزهرة يانعة " .

وفجأة ، ومن وحى تلك اللحظة ، صار لدى هيركيول بوارو فكرة جديدة عن الفتاة الميتة .... وفى رأسه أخذت تلك العبارة تتردد : *" لقد كانت أشبه بزهرة يانعة "* .

٢

لقد صار لديه فجأة إحساس بأن شيئًا جميلاً قد فُقد ، وأن شيئًا رائعًا ونادرًا تعرض للتدمير ...

وفى داخل عقله ، بدأت العبارات تتوالى . مقولة بيتر لورد : *" كانت صبية لطيفة "* ووصف الممرضة هوبكنز : *" كان بوسعها أن تصبح نجمة سينمائية إذا أرادت "* . وعبارة السيدة بيشوب التى تفيض حقدا : *" لم أكن أطيق تعاليها وكبرياءها المزعوم "* والآن تلك العبارة التأملية الأخيرة ، والتى علت كل ما سبقها وأزاحته جانبًا : *" لقد كانت أشبه بزهرة يانعة "* .

قال هيركيول بوارو :

" لكن ، لماذا إذن .... ؟ " .

سكت بوارو ثم بسط ذراعيه في إشارة إلى قلة الحيلة .

أومأ تيد بيجلاند برأسه ، وكانت عيناه لا تزالان تحملان تلك النظرة الصامتة التى تشبه نظرات حيوان يتألم .

قال تيد :

" أعلم يا سيدى ، أعرف أن ما تقوله صحيح ، وأن موت مارى لم يكن طبيعياً ، لكننى كنت أتساءل .... " .

ثم توقف ولم يكمل .

فقال بوارو :

" ماذا ؟ " .

قال تيد بيجلاند ببطء :

" لقد كنت أتساءل عما إذا كان الأمر مجرد حادثة " .

" حادثة ؟ أى نوع من الحوادث تقصد ؟ " .

" أعلم يا سيدى أن الأمر لا يبدو مقنعًا أو معقولاً ، لكننى أظل أفكر وأفكر ، وفى كل مرة يبدو لى أن المسألة لابد أن تكون حادثة غير مقصودة ... شيء لم يكن من المفترض أن يحدث أو خطأ غير متعمد . مجرد .... مجرد حادث عارض ! " .

نظر الفتى إلى بوارو نظرات استعطاف ، خجلاً من ضعف حجته وقلة فصاحته .

ظل بوارو صامتاً للحظة أو اثنتين ، وقد بدت عليه إمارات التفكير العميق ، ثم قال أخيرا :

" من المثير أنك تشعر أن هذا هو ما حدث " .

قال تيد بيجلاند فى استهجان :

" أظن أن الأمر لا يبدو معقولا بنظرك يا سيدى ، وأنا لا أستطيع أن أثبت كيفية حدوث الأمر وأسبابه ، وإن ما أشعر به هو مجرد إحساس داخلى ! " .

قال هيركيول بوارو :

" أحيانا يكون الإحساس دليلاً مهماً ... وأتمنى أن تعذرنى إن تطرقت إلى نقطة مؤلمة ، لكنى علمت أنك كنت تحب الآنسة مارى جيرارد ، فهل هذا صحيح ؟ " .

تسلل العبوس إلى وجه الفتى الذى لوحته الشمس .

وقال تيد ببساطة :

" أعتقد أن جميع أهل القرية يعلمون ذلك " .

" أكنت تريد الزواج منها ؟ " .

" نعم " .

" لكنها لم ... لم تكن موافقة ؟ " .

اغبر وجه الفتى قليلاً ، وقال بمسحة من الغضب المكتوم :

" أحيانًا تكون نوايا الناس طيبة ، لكن لا يجب عليهم أن يفسدوا حياة الآخرين بتدخلاتهم . إن ذلك التعليم الراقى والسفر إلى الخارج ، والذى وفرته السيدة ويلمان من أجل مارى قد غيّرها ، وأنا لا أقصد بكلامى هذا أن التعليم قد أفسدها أو جعل منها إنسانة مغرورة متكبرة ــ فهى لم تكن كذلك ، لكنه ....لكنه أربكها

وشوش تفكيرها ، حتى إنها ما عادت تدرى من تكون وأين مكانها فى هذه الحياة ، لقد كانت مارى - بصراحة شديدة - أعلى مني مستوى ؛ لكنها لم تكن فى مستوى يناسب رجلا نبيلاً مثل السيد رودريك ويلمان " .

قال هيركيول بوارو وهو يراقبه :

" أنت لا تستلطف السيد رودريك ، أليس كذلك ؟ " .

قال تيد بيجلاند بشراسة ظاهرة :

" ولماذا يجب أن أستلطفه بحق السماء ؟ إن السيد رودريك رجل لا بأس به ، وأنا لا أحمل له ضغينة ، لكنه من الأساس لا يملأ عينى كرجل ، وأستطيع - إن أردت - أن أحمله بمنتهى البساطة وأحطمه بين يدى . أعلم أنه رجل متعلم وذكى .... لكن ذلك لن يفيده بشيء إن تعطلت سيارته على قارعة الطريق مثلا . ربما تكون لديه معرفة بطريقة عمل السيارة ؛ لكن ذلك لن يمنعه من الوقوف عاجزا كطفل صغير ، فى الوقت الذى لا يحتاج الأمر سوى أن يخرج ترسًا صغيرًا وينظفه " .

قال بوارو :

" أنت تعمل فى ورشة إصلاح السيارات ؟ " .

أومأ تيد بيجلاند موافقًا .

وقال : " فى ورشة هيندرسون ، عند أول الطريق " .

" هل كنت هناك فى الصباح الذى .... الذى شهد موت مارى جيرارد ؟ " .

قال تيد بيجلاند :

" نعم ، كنت أختبر سيارة أحد الرجال النبلاء . كان هناك عطل داخل المحرك ، ولم أستطع تحديد موضعه ، ولهذا تجولت بالسيارة قليلاً . كم يبدو الأمر غريبًا عندما أفكر به الآن ، لكنه كان يومًا رائعًا ، وكان هناك بعض من زهور سلطان الجبل لا تزال تتفتح خلف سياج الشجيرات ... كانت مارى تحب زهور سلطان الجبل ، ولقد تعودنا أن نقطفها معًا قبل أن تسافر إلى الخارج .."

ومجدداً ، ظهرت على وجهه تلك النظرة المتحيرة التى تشبه نظرات طفل مرتبك .

ظل هيركيول بوارو يتطلع إليه فى صمت .

استفاق تيد بيجلاند من غيبوبته بارتجاف واضح .

وقال :

" عفواً يا سيدى ، أتمنى أن تنسى ما قلته عن السيد رودريك . لقد كنت غاضباً ـ بسبب ملاحقته لمارى على هذا النحو ، ولقد كان حريا به أن يتركها وشأنها ، فهى لم تكن النوع الذى يناسبه على الإطلاق " .

قال بوارو :

" أتظن أنها كانت تهتم لأمره ؟ " .

تجهمت ملامح تيد بيجلاند .

وقال : " لا أظن ذلك ، ليس بشكل جاد . لكن لعلها كانت تهتم لأمره ، لست متأكدا من الأمر " .

تساءل بوارو :

" أكان فى حياة مارى رجل آخر ؟ شخص قابلته فى الخارج ، على سبيل المثال ؟ " .

" لا أعرف يا سيدى . لكنها لم تتحدث عن أى شخص آخر " .

" أكان لها أى أعداء ـ هنا فى مادينسفورد ؟ " .

" أتعنى إن هناك من يكن لها الكراهية ؟ " قالها تيد ثم هز رأسه نفياً وقال : " لم يكن هناك من يعرفها حق المعرفة ، لكن الجميع كانوا يستلطفونها " .

قال بوارو :

" هل كنت السيدة بيشوب ـ مديرة منزل هانتربيرى ـ تستلطف مارى ؟ " .

ظهرت على وجه تيد تكشيرة مفاجئة ، وقال :

" حسنًا ، لقد كانت تحقد عليها ! إن تلك العجوز لم يعجبها هذا الحب الذى كانت تظهره السيدة ويلمان تجاه مارى " .

تساءل بوارو :

" أكانت مارى سعيدة عندما كانت تعيش فى منزل هانتربيرى ؟ هل كانت تحب السيدة ويلمان ؟ " .

" أستطيع أن أقول إنها كانت سعيدة بشكل كبير ، ولو أن تلك المرضة تركتها لحالها ـ أقصد المرضة هوبكنز . فقد ظلت تملأ رأسها بأفكار عن العمل وكسب العيش والتدريب على ممارسة التدليك " .

" أكانت المرضة هوبكنز تحب مارى ؟ " .

" حسنًا ، لقد كانت تحبها دون شك ، لكن المرضة هوبكنز من ذلك النوع الذى يظن أنه يعرف ما هو الأفضل لكل الناس ! " .

قال بوارو ببطء :

" لنفترض أن المرضة هوبكنز تعرف شيئاً ما - دعنا نقل إنه شيء سيكشف أمرًا مخزياً يخص مارى - أتظن أنها قد تحتفظ بذلك السر لنفسها ؟ " .

نظر إليه تيد بيجلاند بفضول واضح .

وقال : " أنا لا أفهم قصدك يا سيدى " .

" هل تعتقد أن المرضة هوبكنز ستمسك لسانها إذا كانت تعلم شيئًا يمس سمعة مارى ؟ " .

قال تيد بيجلاند :

" أشك أن هذه المرأة تستطيع أن تمسك لسانها عن أى شيء ! إنها أكبر مصدر للنميمة فى القرية ، لكن لو أن هناك شخصًا تستطيع أن تمسك لسانها من أجله ، فسوف يكون من أجل مارى " ، ثم أردف تيد - وقد تمكن منه الفضول : " أود أن أعرف سبب سؤالك هذا " .

قال هيركيول بوارو :

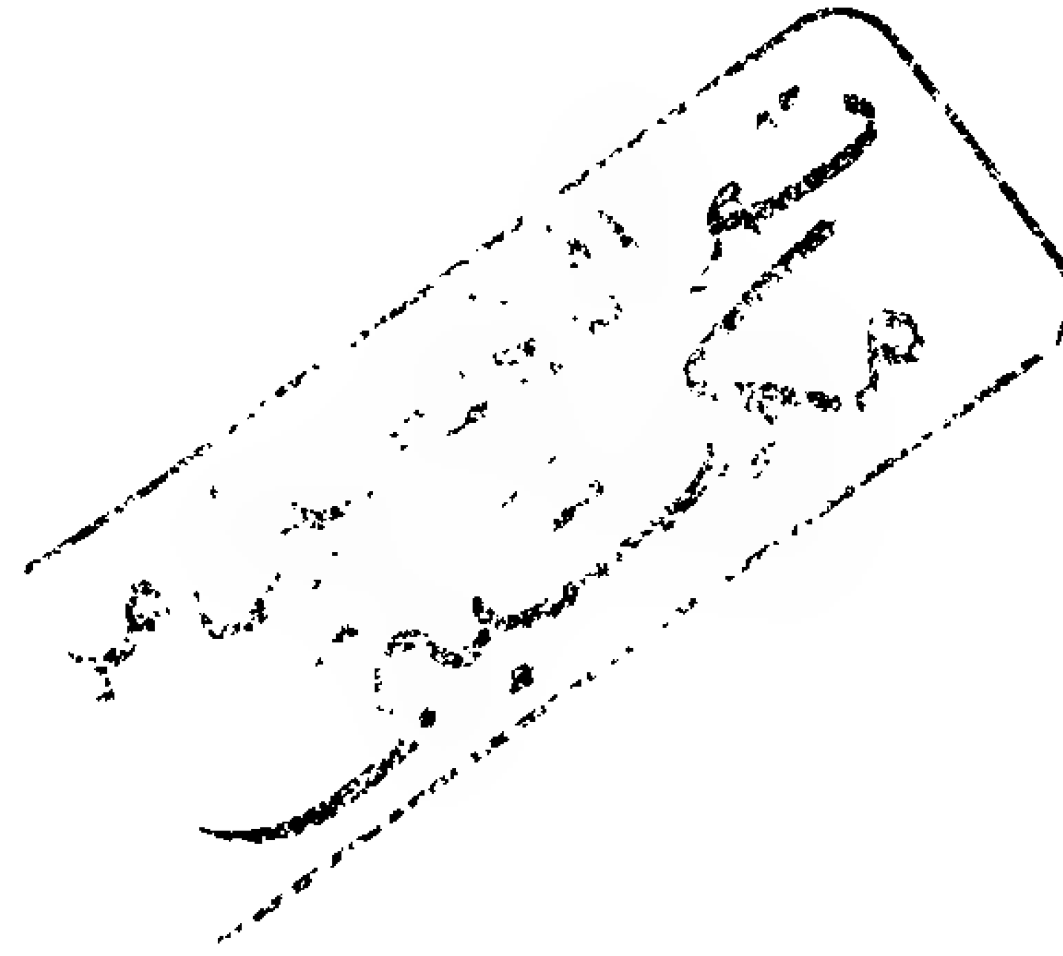
" إن المرء يتوصل - من خلال حديثه مع الناس - إلى انطباع محدد . لقد كانت المرضة تتحدث معى بتفتح وصراحة مطلقة فى كل الموضوعات ، لكنى كوّنت انطباعًا ما - بل قل انطباعًا قويًا - أنها كانت تحجب عنى *شيئًا* . قد لا يكون لهذا الشيء أية أهمية ، وربما لا يكون له

صلة بجريمة القتل ، *لكنها تعرف شيئا ولم تخبرنى به* . ولقد تكّون لدى أيضا انطباع أن ذلك الشيء ـ أيا كان ـ له آثار مضرة أو مدمرة بالنسبة لشخصية مارى جيرارد ... " .

هز تيد بيجلاند رأسه فى عجز .

تنهد بوارو وقال :

" حسناً ، سوف أعلم ما هو ذلك الشىء فى الوقت المناسب " .



الفصل ٦

تطلع بوارو باهتمام إلى رودريك ويلمان بوجهه الطويل وملامحه الحساسة .

كان من الواضح أن أعصاب رودى فى حالة يرثى لها ، حيث كانت يداه ترتعشان ، وعيناه محتقنتين بالدماء ، وكان صوته أجش متوترًا .

قال رودى وهو ينظر إلى بطاقة بوارو :

" بالطبع أعرف من تكون يا سيد بوارو ، ولكنى لست أفهم ماذا يظن بيتر لورد أنك قادر على فعله فى هذه القضية ! وما شأنه هو بالمسألة من الأساس ؟ لقد كان يتابع حالة عمتى ، ولم يعد له شأن بنا بعد ذلك . إننا ـ أنا و إلينور ـ لم نقابله مطلقا قبل زيارتنا إلى منزل هانتربيرى فى يونيو الماضى ، وأنا واثق أن المسئول عن متابعة كل هذه المسائل هو المحامى سيدون ! " .

قال هيركيول بوارو :

" هذا صحيح ، من الناحية القانونية " .

أكمل رودى كلامه بحزن :

" إن سلوك المحامي سيدون ـ هو الآخر ـ لا يشعرنى بالثقة ، فهو يبدو كئيباً بشكل مربك " .

" إنها عادة المحامين يا بنى " .

قال رودى بقليل من الابتهاج : " ومع ذلك فقد أوكلنا القضية إلى بالمر . من المفترض أنه من أفضل المحامين الجنائيين ، أليس كذلك ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" إن لديه سمعة جيدة فى تولى القضايا الميئوس منها " .

جفل رودى بشكل ملحوظ .

وأردف بوارو :

" أتمنى ألا تشعر بالاستياء إذا حاولت أن أقوم بمساعدة الآنسة إلينور ؟ " .

" كلا ، بالطبع ، ولكن .... " .

" ولكن ماذا يمكننى أن أفعل ؟ أليس هذا هو السؤال الذى كنت ستطرحه ؟ " .

ظهرت ابتسامة خاطفة فوق وجه رودى المهموم - ابتسامة ساحرة بشكل مفاجئ ، جعلت هيركيول بوارو يفهم سر الجاذبية الهادئة التى يتمتع بها ذلك الشاب .

قال رودى معتذرًا :

" يبدو السؤال وقحًا عندما أطرحه بتلك الطريقة ، لكن هذا هو المقصد بالفعل ، وأنا لن أحوم حول الموضوع كثيرا . ماذا تستطيع أن تفعل يا سيد بوارو ؟ " .

قال بوارو :

" يمكننى أن أبحث عن الحقيقة " .

" نعم . " بدا رودى متشككا قليلاً وهو ينطق بهذه الكلمة .

قال بوارو :

" ربما أكتشف بعض الحقائق التى قد تفيد المتهمة " .

تنهد رودى .

وقال : " يا ليتك تستطيع ذلك ! " .

أكمل هيركيول بوارو كلامه قائلاً :

" أتمنى من كل قلبى أن أكون مفيدًا لكم . هلا تساعدنى وتخبرنى بما تظنه حيال المسألة برمتها ؟ " .

هب رودى واقفا ، ثم راح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، وأخيرًا قال :

" ماذا يمكننى أن أقول ؟ إن المسألة كلها محض سخف وخيال لا يصدق ! إن مجرد فكرة أن إلينور ـ إلينور التى أعرفها منذ أن كانت طفلة صغيرة ـ تقدم على فعل شيء متهور كأن تضع السم لأحدهم ، لهى فكرة مضحكة وسخيفة ، ولكن كيف يمكننى أن أفسر ذلك للقاضى بحق السماء ؟ " .

قال بوارو ببرود :

" هل تعتبر أن قيام الآنسة إلينور بارتكاب فعل كهذا أمر مستحيل ؟ " .

" آوه ، تمامًا ، وبدون أى شك ! إن إلينور مخلوقة رائعة ـ متزنة وراجحة العقل ـ ولا يوجد أى أثر للعدوانية فى طبيعتها . إنها إنسانة عاقلة ، حساسة ، مجردة من كل صفات الشراسة والعنف . ولكن ضع اثنى عشر مغفلاً عديم الفهم فى منصة المحلفين ، والله وحده يعلم ماذا سيصدقون ! وعلى كل حال ، دعنا نكن واقعيين فى تصورنا : إن هؤلاء المحلفين لن يجلسوا هناك للحكم على شخصيتها ؛ وإنما سيجلسون لكى يفندوا الأدلة ، ويدرسوا الحقائق ... *الحقائق المجردة* ، وحقائق هذه القضية ليست فى صالح إلينور ! " .

أومأ بوارو برأسه فى تفكر .

وقال :

" إنك يا سيد رودريك شخص ذو ذكاء وحسن إدراك . إن الحقائق تدين الآنسة إلينور ، ومعرفتك بها تبرئها . فماذا تظن أنه *قد حدث بالفعل* ؟ كيف ترى الأمر من وجهة نظرك ؟ " .

بسط رودى يديه فى حنق وقال :

" هذا هو اللغز المحير ! ألا يمكن أن تكون الممرضة هى من فعل ذلك ؟ " .

" إنها لم تقرب الشطائر أبدا ، لقد دققت البحث فى ملابسات الحادث ، وتوصلت إلى أنها ما كانت لتستطيع

وضع السم فى داخل الشاى دون أن تتسمم هى الأخرى . ولقد تأكدت من ذلك بالفعل . وما الذى يدفعها إلى قتل مارى جيرارد ؟ " .

صاح رودى :

" ولماذا يقتل *أى شخص* مارى جيرارد ؟ " .

قال بوارو : " يبدو أن هذا هو السؤال الذى لا توجد له إجابة فى هذه القضية . لم يكن هناك من يرغب فى قتل مارى جيرارد . " (أضاف بوارو محدثاً نفسه : " *فيما عدا إلينور كارليل* ") ثم قال بصوت مرتفع : " ولذلك فإن الفكرة المنطقية التالية قد تبدو هكذا : مارى جيرارد لم تقتل ! لكن هذا - مع الأسف - ليس صحيحا . لقد قتلت مارى جيرارد ! " .

أضاف بوارو ، فى لهجة مسرحية :

" لكنها قد صارت داخل قبرها ، والحزن
صار رفيقى من بعدها ! " .

قال رودى : " عذرا ، ماذا تقول ؟ " .

قال بوارو موضحا :

" جزء من قصيدة للشاعر ويليام وردسورث . لقد قرأت الكثير من قصائده ، ولعل هذين البيتين يعبران عما تحس به الآن ؟ " .

" أنا ؟ " .

بدا رودى جامدا ومتحفظا .

فقال بوارو :

" أعتذر ... أعتذر بشدة ! من الصعب على المرء أن يكون تحرياً وشخصاً نبيلاً فى نفس الوقت ، وكما يقولون فى ثقافتكم الإنجليزية ، هناك أمور لا يجب على المرء أن يخوض فيها ، لكن رجل التحريات يجبر ـ مع الأسف ـ على التحدث عن تلك الأمور ، وعليه أيضًا أن يطرح أسئلة : عن شئون الناس الخاصة ، وعن مشاعرهم ! " .

قال رودى :

" أواثق أن كل هذه ضرورى ؟ " .

رد بوارو بسرعة وتواضع :

" لو أننى فقط فهمت الموقف بالكامل ، لصار بإمكاننا تخطى تلك النقطة الحساسة وألا نشير إليها مجددا . من المعروف لكثير من الناس أنك ـ يا سيد رودى ـ كنت معجبا بمارى جيرارد ، فهل هذا صحيح ؟ " .

وقف رودى مجددا ، وسار حتى توقف بجوار النافذة ، ثم أخذ يعبث بمصراعها ، وقال :

" نعم " .

" أكنت مغرمًا بها ؟ " .

" أظن ذلك " .

" أوه ، والآن صرت محطم القلب بسبب موتها ... " .

" أعتقد .... أعتقد ذلك .... أقصد ... بالفعل لقد تحطم قلبى يا سيد بوارو .... " .

ثم استدار ، وقد بدا كمخلوق حساس ، عصبى ، محاصر فى ركن ضيق .

قال هيركيول بوارو :

" لو أنك فقط تخبرنى - لو أنك توضح لى الأمر ، سيكون بإمكاننا أن نترك هذا الموضوع وراء ظهورنا " .

جلس رودى ويلمان فى مقعده ، وتحاشى النظر إلى بوارو ، ثم تحدث بكلمات وجلة مرتعشة .

" من الصعب أن أوضح . هل يجب أن نخوض فى هذه المسألة ؟ " .

قال بوارو :

" لا يجب على المرء أن يتحاشى منغصات الحياة دائمًا يا سيد رودريك ! أنت تقول إنك تعتقد أنك كنت تهتم بهذا الفتاة . إذن فأنت لست واثقًا من ذلك ؟ " .

أجاب رودى :

" لا أدرى .... لقد كانت فتاة جميلة للغاية ، أشبه ما تكون بالحلم .... أو هكذا تبدو الآن . حلم ! وليست حقيقة ! وكل ما حدث .... رؤيتى لها للمرة الأولى ... و... وولعى بها ... بل قل الجنون الذى أصابنى ! والآن انتهى كل شىء .... مضى دون رجعة .... وكأنه .... وكأنه لم يحدث أبداً " .

أومأ بوارو برأسه ....

وقال :

" نعم ، أنا أفهم ما تحس به ... " .

ثم أردف :

" أنت لم تكن فى إنجلترا فى وقت وفاتها ، أليس كذلك ؟ " .

" بلى ، لقد سافرت إلى الخارج يوم التاسع من يوليو وعدت فى الأول من أغسطس . لقد تنقلت برقية إلينور ورائى من مكان إلى آخر ، وعندما وصلتنى الأنباء أخيرا ، أسرعت بالعودة إلى الوطن " .

قال بوارو :

" لابد أن الأمر كان صدمة قوية بالنسبة لك . لقد كنت تهتم بهذه الفتاة كثيرا " .

قال رودى ـ وقد فاضت نبرة صوته بالمرارة والحنق :

" لماذا يجب أن تحدث هذه المأساة لى أنا ؟ إن المرء لا يتمنى أبدا أن يشهد مأساة كهذه ! إنها نقيض كل .... كل توقعات المرء فى هذه الحياة ! " .

قال هيركيول بوارو :

" أوه ، لكن الحياة تسير دوماً بهذه الطريقة ! إنها لا تسمح لك بأن تنظمها وترتبها كما تشاء ، ولن تسمح لك بأن تهرب من مشاعرك ، وأن تعيش فقط بذكائك وفكرك ! إنك لا تستطيع أن تقول : " سوف أشعر إلى قدر معين وبعدها لن أشعر بشيء . " إن الحياة يا سيد رودريك لا علاقة لها بالمعقول من قريب أو بعيد ! " .

تمتم رودريك ويلمان :

" هكذا يبدو الأمر .... " .

قال بوارو :

" وكل ما فى هذه الحياة ـ ذلك الصباح الربيعى الجميل ، ووجه فتاة جميلة ، والتسلسل المنتظم لأحداث الحياة ـ كل هذا مصيره إلى الزوال " .

أجفل رودى ، وأكمل بوارو كلامه :

" وأحيانا ما يكون الأمر أكبر بكثير من ....وجه جميل . ماذا كنت تعرف حقًا عن مارى جيرارد يا سيد رودى ؟ " .

قال رودى بشدة :

" ماذا كنت أعرف ؟ القليل جدًا ؛ هذا ما أراه الآن . لقد كانت فتاة لطيفة ـ على ما أظن ـ ورقيقة ؛ لكنى بالفعل لا أعرف شيئًا عنها .... وهذا هو السبب فى أننى لا أفتقدها ... " .

كانت عدوانيته واستياؤه قد اختفيا فى تلك اللحظة ، وصار يتكلم بطبيعية وبساطة . كان هيركيول بوارو قد نجح ـ كعادته دائما ـ فى اختراق دفاعات شريكه فى المحادثة ، وقد بدا أن رودى يشعر بارتياح واضح فى الكشف عن مكنون صدره .

قال رودى :

" كانت مارى فتاة جميلة ... رقيقة ... لا تتميز بذكاء كبير ، ولكن كانت حساسة وطيبة ، وكانت تمتلك أخلاقاً وتهذيبًا لا تتوقع أن تجدهما فى فتاة من طبقتها " .

" أكانت من ذلك النوع الذى قد يصنع لنفسه أعداء دون قصد منه ؟ " .

هز رودى رأسه نفيًا بقوة .

وقال : " كلا ، كلا . أنا لا أستطيع أن أتخيل أن أحدًا كان يكره مارى ... أعنى تلك الكراهية الشديدة . أما الحقد فهى مسألة مختلفة " .

قال بوارو بسرعة :

" الحقد ؟ إذن فأنت تعتقد أنه كان يوجد من يحقد عليها ؟ " .

أجاب رودى فى شرود :

" لابد من وجود شخص كهذا ... وإلا كيف يمكن تفسير مسألة الخطاب " .

قال بوارو بحدة :

" أى خطاب ؟ " .

احمر وجه رودى وبدا منزعجا ، ثم قال :

" أوه ، إنه أمر تافه " .

كرر بوارو سؤاله :

" أى خطاب ؟ " .

" خطاب جاء من مجهول " .

بدا أن رودى يتحدث على مضض .

فقال بوارو : " متى جاء ذلك الخطاب ؟ ولمن تم إرساله ؟ " .

شرح رودى مسألة الخطاب فى كراهة واضحة .

بعدها تمتم هيركيول بوارو :

" إنها مسألة مثيرة للاهتمام . هل يمكننى رؤية ذلك الخطاب ؟ " .

" أخشى أنك لن تستطيع رؤيته . فى الواقع ، لقد أحرقته ؟ " .

" ولماذا تفعل أمرًا كهذا يا سيد رودريك ؟ " .

قال رودى بتبلد :

" لقد بدا ذلك تصرفاً طبيعياً فى ذلك التوقيت " .

قال بوارو :

" وبسبب تسلمكما لذلك الخطاب ، هرعت أنت والآنسة إلينور إلى هانتربيرى ؟ " .

" نعم ، لقد ذهبنا إلى المنزل ، لكنى لست أفهم ماذا تقصد بكلمة " هرعت " " .

" أعنى أنكما كنتما تشعران بانزعاج ، أليس كذلك ؟ وربما أحسستما ببعض الخطر ؟ "

قال رودى وقد ازدادت نبرته جمودًا :

" ما كنت لأقر أننا أحسسنا بذلك " .

صاح هيركيول بوارو :

" لكن ذلك هو التصرف الطبيعى ! لقد كان ميراثكما - ذلك الذى وعدتكما به عمتكما - فى خطر شديد ، ومن الطبيعى أن يصيبكما الانزعاج والانشغال بشأن تلك المسألة ! إن المال أمر مهم للغاية ! " .

" ليس بهذه الأهمية التى تظنها " .

قال بوارو :

" إن عدم اهتمامكما بالأمور المادية شيء يثير الإعجاب ! " .

احمر وجه رودى خجلاً . وقال :

" أوه ، بالطبع كنا نهتم بأمر المال ، وليس الأمر هو أننا لم نكن نبالى به على الإطلاق ، لكن هدفنا الأساسى كان أن ... أن نرى عمتنا ونتأكد من كونها بخير " .

قال بوارو :

" لقد ذهبت إلى هانتربيرى بصحبة الآنسة إلينور ، وفى ذلك الوقت لم تكن عمتكما قد تركت وصيتها ، وبعد وقت قصير أصابتها السكتة الدماغية الثانية ، وحينها أرادت أن تترك وصيتها ، ولكن ـ ولحسن حظ الآنسة إلينور كارليل ـ توفيت عمتكما فى تلك الليلة قبل أن تتمكن من كتابة تلك الوصية " .

" ما الذى ترمى إليه بكلامك هذا ؟ " .

كان وجه رودى فى تلك اللحظة قد احتقن بالدماء .

لكن بوارو أجابه فى سرعة البرق :

" لقد أخبرتنى يا سيد رودريك ، فيما يتعلق بموت الآنسة مارى جيرارد ، أنك تعتقد أن دافع الجريمة الذى ينسبونه إلى الآنسة إلينور سخيف للغاية ـ وشدّدت على أنها ليست من النوع الذى قد يرتكب فعلة كهذه ، لكن صار لدينا الآن تفسير جديد . لقد كان لدى إلينور كارليل

سبب قوى يدعوها للخوف من أن تُحرم من ميراثها لصالح شخص غريب ، ولقد أنذرها الخطاب المجهول ـ وتلك الكلمات غير المفهومة التى كانت عمتها تنطق بها أكدت تلك المخاوف . ولقد كانت هناك حقيبة موضوعة فى نهاية الردهة تمتلئ بأدوية وعقاقير طبية متنوعة ، ومن السهل أن يستولى المرء على قنينة مورفين . وفى وقت لاحق ـ حسبما سمعت ـ *جلست إلينور بمفردها فى حجرة عمتها المريضة ، بينما كانت تتناول الطعام بصحبة الممرضتين* ... " .

صاح رودى :

" بحق السماء يا سيد بوارو ، ما الذى تقوله الآن ؟ أتقصد أن إلينور قد قتلت العمة لورا ؟ يا لها من فكرة سخيفة ومضحكة ! " .

قال بوارو :

" لكنك تعلم أن الادعاء قد استصدر أمراً بنبش جثة السيدة ويلمان وتشريحها ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، أعلم ذلك ، لكنهم لن يجدوا أى شىء ! " .

" لنفترض أنهم قد وجدوا شيئا ؟ " .

قال رودى بثقة : " لن يجدوا شيئا ! " .

هز بوارو رأسه نفيًا وقال :

" أنا لست متأكدًا مثلك . ولعلك لاحظت أن هناك شخصًا واحدًا هو المستفيد من موت السيدة ويلمان فى تلك الليلة ... " .

جلس رودى مجددًا ، وقد بدا وجهه باهتًا وكان يرتجف قليلاً وهو يحدق النظر إلى بوارو ، ثم قال :

" لقد ظننت أنك فى جانبها ... " .

قال هيركيول بوارو :

" أيًا كان الجانب الذى يتخذه المرء ، سيكون عليه أن يواجه الحقائق ! أظن يا سيد رودريك أنك كنت تعيش حياتك - حتى الآن - مفضلاً أن تتحاشى الحقائق المؤلمة طالما أمكنك ذلك " .

قال رودى :

" ولماذا يعذب المرء نفسه بالنظر إلى الجانب السيئ من الحياة ؟ " .

رد بوارو بجدية :

" لأن ذلك أمر ضرورى ... " .

صمت بوارو للحظة ثم أردف :

" دعنا نواجه احتمالية أن التشريح سيثبت أن سبب موت عمتك هو الحقن بعقار المورفين ، ماذا سيحدث حينها ؟ " .

هز رودى رأسه فى عجز .

وقال : " لا أدرى " .

" لكن لابد أن تحاول التفكير . من كان باستطاعته أن يحقن السيدة ويلمان بالمورفين ؟ عليك أن تعترف أن إلينور كارليل كانت تمتلك أفضل فرصة لفعل ذلك ، ألا تتفق معى ؟ " .

" ماذا عن الممرضتين ؟ " .

" بالتأكيد كان بإمكان أى منهما أن تفعل ذلك ، لكن الممرضة هوبكنز كانت تشعر بالقلق حيال فقد قنينة المورفين فى ذلك الوقت وذكرت الأمر أمام الجميع ، ولم تكن مضطرة إلى فعل ذلك ، فقد تم توقيع شهادة الوفاة بالفعل ، فلماذا تلفت الانتباه إلى قنينة المورفين المفقودة إذا كانت هى من ارتكب الجريمة ؟ إن ذلك كفيل لاتهامها بالإهمال حتى مع عدم علمها بالجريمة ، أما إذا كانت هى من سمّم السيدة ويلمان ، فسوف يكون من الغباء المحض أن تلفت الانتباه نحو المورفين المفقود . علاوة على ذلك ، ماذا يمكن أن تجنى الممرضة هوبكنز من وفاة السيدة ويلمان ؟ لا شيء . ونفس الشيء ينطبق على الممرضة أوبريان . لقد كان باستطاعتها أن تحقن السيدة ويلمان بالمورفين ، وكان باستطاعتها أن تسرقه من حقيبة الممرضة هوبكنز ؛ لكن يجب أن نسأل أنفسنا مجددا : *لماذا تفعل شيئا كهذا ؟* " .

هز رودى رأسه فى يأس .

وقال : " كل هذا حقيقى بالفعل " .

قال بوارو :

" ثم هناك أنت " .

حدق رودى النظر إليه بعصبية شديدة .

وقال : " أنا ؟ " .

" بالتأكيد . كان بإمكانك سرقة قنينة المورفين ، وكان بإمكانك حقن السيدة ويلمان به ! لقد كنت بصحبتها لفترة قصيرة فى تلك الليلة ، لكن السؤال نفسه يظل دون إجابة : *لماذا تفعل ذلك ؟* لو أن السيدة ويلمان قد عاشت لتكتب وصيتها ، فهناك احتمال كبير أنها كانت سوف تشملك فيها . أترى ، لا يوجد دافع لقيامك بالأمر . هناك شخصان فقط كان لديهما دافع لارتكاب الجريمة " .

تألقت عينا رودى بالابتهاج .

وقال : " شخصان ؟ " .

" نعم . هناك إلينور كارليل " .

" والشخص الآخر ؟ " .

قال بوارو ببطء :

" الشخص الآخرِ هو كاتب الخطاب المجهول " .

بدا رودى متشككا .

فقال بوارو :

" شخص ما كتب ذلك الخطاب ـ شخص كان يكره مارى جيرارد أو على الأقل لا يحبها ـ *شخص لم يكن يرغب فى أن تستفيد مارى من وفاة السيدة ويلمان* . والآن يا سيد رودريك ، ألديك أى فكرة عمن يكون هذا الشخص ؟ " .

هزّ رودى رأسه نفيًا .

وقال : " ليست لدى أدنى فكرة . لقد كان خطابًا كتبه شخص لا يحسن الكتابة ، وكان يمتلئ بالأخطاء الإملائية ، وكُتب فوق ورق رخيص الثمن " .

حرك بوارو يده وقال :

" هذا لن يوصلنا إلى شىء ، ولعله قد كتب بواسطة شخص متعلم أراد أن يخفى تلك الحقيقة ، وهذا هو السبب الذى جعلنى أتمنى لو أن الخطاب ما زال موجودا ، فالأشخاص المتعلمون الذين يكتبون خطابات بأسلوب يدل على الجهل عادة ما يكشفون عن أنفسهم " .

قال رودى بتأمل :

" لقد ظننت ـ أنا و إلينور ـ أن من كتب الخطاب ربما يكون أحد الخدم " .

" أكان لديكما أى فكرة عمن يكون ؟ " .

" كلا ، على الإطلاق " .

" أتظن أنه ربما تكون السيدة بيشوب ـ مدبرة المنزل ـ هى من أرسل الخطاب ؟ " .

بدا رودى مصدومًا .

وقال : " أوه ، كلا . إنها سيدة قمة فى الاحترام والأخلاق . وهى تكتب الخطابات بلغة جميلة وتزينها بكلمات طويلة ذات وقع موسيقى ، علاوة على أننى واثق أنها ما كانت .... " .

وعندما تردد رودى ، قاطعه بوارو قائلاً :

" إنها لم تكن تستلطف مارى جيرارد ! " .

" ربما لم تكن تستلطفها ، رغم أننى لم ألاحظ شيئًا كهذا " .

" لعلك يا سيد رودريك لا تلاحظ الكثير من الأمور ؟ " .

قال رودى ببطء :

" ألا تعتقد يا سيد بوارو أن عمتى ربما تكون قد حقنت نفسها بالمورفين ؟ " .

قال بوارو ببطء :

" إنها فكرة قائمة " .

قال رودى :

" لقد كانت عمتى تكره عجزها ، وكثيرا ما تمنت لو أنها تستطيع أن تنهى حياتها " .

قال بوارو :

" لكنها ما كانت لتستطيع أن تغادر سريرها ، وتهبط إلى الطابق السفلى وتسرق قنينة المورفين من حقيبة الممرضة هوبكنز ، ألا تتفق معى ؟ " .

قال رودى ببطء :

" بلا ، لكن ربما يكون أحدهم قد ساعدها " .

" ومن يكون ذلك الشخص ؟ " .

" حسنا ، إحدى الممرضتين " .

" كلا ، لن تفعل أى منهما ذلك ، فهما أكثر الناس معرفة بالمخاطر التى قد تتعرضان لها حال قيامهما بشيء كهذا ! إن الممرضتين هما آخر من يمكن الاشتباه به ..." .

" إذن ـ شخص آخر .... " .

همّ رودى بالحديث ، ففتح فمه ، ثم أغلقه ثانية .

قال بوارو بصوت خافت :

" لقد تذكرت شيئًا ، أليس كذلك ؟ " .

قال رودى بتشكك :

" نعم ... لكن ... " .

" لكنك تتساءل إذا كان يجب أن تخبرنى به ؟ " .

" حسنا ، نعم .... " .

قال بوارو ـ وقد ارتسمت على جانبى شفتيه ابتسامة فضول :

" متى أخبرتك الآنسة إلينور بذلك ؟ " .

التقط رودى نفسًا عميقًا وقال :

" يا إلهى ، وكأنك عرّاف يا سيد بوارو ! لقد أخبرتنى إلينور بذلك ونحن فى القطار ذاهبان إلى هانتربيرى ، كنا قد تلقينا البرقية التى أُخبرنا فيها بأن عمتنا أصيبت بسكتة دماغية ثانية . قالت إلينور إنها تشعر بالأسى من أجل عمتها ، وكيف أن عمتها المسكينة تكره شعورها بالمرض ، وأنها الآن سوف تصبح أكثر عجزًا مما سيجعل حياتها جحيمًا لا يطاق . وقالت إلينور : " إن المرء يشعر بأن المرضى يجب أن يعطوا الحرية فى التخلص من حياتهم ـ إذا أرادوا ذلك " .

" وماذا كان ردك ؟ " .

" وافقتها على ذلك " .

قال بوارو بجدية شديدة :

" منذ لحظات كنت ترفض باستهزاء احتمال قيام إلينور كارليل بقتل عمتكما من أجل الكسب المادى ، فهل ترفض أيضا احتمالية قيامها بقتل السيدة ويلمان بدافع الشفقة ؟ " .

قال رودى :

" أنا .... أنا لا أستطيع .... " .

خفض هيركيول بوارو رأسه .

وقال :

" نعم ، لقد ظننت - بل كنت متأكدًا أنك ستقول ذلك ...." .

الفصل ٧

أستُقبل هيركيول بوارو فى مكتب بلاثرويك وسيدون للمحاماة بحذر شديد أقرب إلى الارتياب .

لم يُظهر السيد سيدون أى انطباع واضح ، وظل ينظر إلى المحقق العجوز بعينيه الرماديتين الثاقبتين نظرات تقييم متمعن ، ثم قال وهو ينقر بإصبعه السبابة فوق ذقنه الحليق :

" إن اسمك معروف لدىّ يا سيد بوارو ، ولكنى لست أدرى ما هى علاقتك بالقضية " .

قال هيركيول بوارو :

" إننى أعمل يا سيدى من أجل مصلحة موكلتك " .

" آه ... حقاً ؟ ومن طلب منك التدخل فى هذه القضية ؟ " .

" أنا هنا بناء على طلب الدكتور لورد " .

ارتفع حاجبا السيد سيدون إلى أعلى .

" هكذا ! إن ذلك يبدو بالنسبة لى أمراً غير مألوف للغاية ... غير مألوف على الإطلاق ، فالدكتور لورد قد تم استدعاؤه من قبل المحكمة كشاهد اتهام " .

هز بوارو كتفيه فى لامبالاة وقال :

" وهل هذا يمثل فارقًا ؟ " .

قال السيد سيدون :

" إن مسالة الدفاع عن الآنسة إلينور كارليل هى مسئوليتنا نحن ، ولا أظن أننا بحاجة إلى أية مساعدات خارجية فى هذه القضية " .

تساءل بوارو :

" وهل ثقتك هذه نابعة من سهولة إثبات براءة موكلتك ؟ " .

جفل السيد سيدون ، ثم اجتاحه غضب ، ظهر جليا فى أسلوب حديثه الجاف .

حيث قال : " هذا سؤال غير لائق .... غير لائق على الإطلاق " .

قال هيركيول بوارو :

" إن القضية المقدمة ضد موكلتك قوية للغاية.." .

" لا أعتقد أن لك أية علاقة بالقضية يا سيد بوارو " .

قال بوارو :

" على الرغم من أننى قد استُدعيت من قبل الدكتور لورد ، إلا أن معى خطاب تزكية من السيد رودريك ويلمان أيضاً " .

ثم سلم بوارو الخطاب إلى السيد سيدون وهو يحنى رأسه تحية له .

قرأ السيد سيدون السطور القليلة التى يحويها الخطاب بإمعان ، ثم قال على مضض :

" إن هذا الخطاب يغير كثيرا من طبيعة الموقف . فالسيد ويلمان قد ألزم نفسه بمسئولية الدفاع عن الآنسة كارليل ، ونحن نتولى القضية بناء على طلبه " .

ثم أضاف بنفور واضح :

" إن مكتب المحاماة الخاص بنا لا يتولى القضايا الجنائية إلا نادراً ، لكننى شعرت بأنه من واجبى أن أتولى الدفاع عن ابنة شقيق عميلتى الراحلة ، ولقد أوكلنا القضية إلى السير إدوارد بالمر ـ المحامى الجنائى الشهير " .

قال بوارو وقد بدت ابتسامته ساخرة بشكل مفاجئ :

" أعلم أنكم لن تدخروا وسعًا أو تبخلوا بأية نفقات ، وهذا تصرف سليم ومناسب للغاية ! " .

قال السيد سيدون وهو ينظر من فوق نظارته :

" بالله عليك يا سيد بوارو ..." .

قاطع بوارو احتجاجه قائلاً :

" إن الخطابة واستجداء المشاعر لن ينقذ موكلتك ، فالأمر سوف يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك " .

قال السيد سيدون بجفاء :

" وما الذى تنصحنا به ؟ " .

" عليكم محاولة الوصول إلى الحقيقة " .

" هكذا ... " .

" لكن هل ستساعدنا الحقيقة فى هذه القضية ؟ " .

رد السيد سيدون بحدة :

" هذا تعليق آخر لا يليق يا سيد بوارو " .

قال بوارو :

" هناك أسئلة محددة أود أن أجد لها إجابات " .

قال السيد سيدون بحذر :

" أنا لا أستطيع طبعًا أن أجيب عن أية أسئلة دون الرجوع إلى موكلتى أولاً " .

" بالطبع ، أنا أتفهم ذلك " . قالها بوارو ثم صمت للحظة ثم قال : " هل لدى إلينور كارليل أى أعداء ؟ " .

أظهر السيد سيدون بعض الاندهاش .

وقال : " ليس لها أعداء ـ على قدر علمى " .

" هل قامت السيدة ويلمان الراحلة بكتابة وصية فى يوم من حياتها ؟ " .

" مطلقا . لقد كانت دائمًا ترجئ ذلك " .

" هل تركت إلينور كارليل وصية ؟ " .

" نعم " .

" فى وقت قريب ؟ أقصد بعد وفاة عمتها ؟ " .

" نعم " .

" لمن أوصت بممتلكاتها من بعدها ؟ " .

" هذه معلومة سرية يا سيد بوارو ، ولن أستطيع أن أبوح لك بها دون موافقة موكلتى " .

قال بوارو :

" إذن سيكون علىّ أن أستجوب موكلتك ! " .

قال السيد سيدون بابتسامة باردة :

" أخشى أن هذا الأمر لن يكون سهلاً " .

نهض بوارو وحياه بانحناءة من رأسه .

ثم قال : " كل شىء سهل أمام هيركيول بوارو " .

الفصل ٨

كان السيد مارسدين ـ المحقق العام ـ رجلاً دمث الخلق .

وقد قال : " حسناً يا سيد بوارو ، هل جئت لتصحح مسار التحقيق فى إحدى القضايا التى نعمل عليها ؟ " .

تمتم بوارو باستنكار :

" كلا ، كلا ، وإنما جئت لأرضى فضولى حول إحدى القضايا " .

" من دواعى سرورى أن أشبع فضولك . أى قضية تلك التى تشغلك ؟ " .

" قضية إلينور كارليل " .

" آه ، نعم ، تلك الفتاة التى دست السم للضحية مارى جيرارد . سوف تعقد محاكمتها خلال أسبوعين ... قضية مثيرة . بالمناسبة ، لقد قامت بقتل عمتها بنفس الطريقة أيضاً . رغم أن التقرير النهائى لتشريح الجثة لم يسلم إلى الادعاء بعد ، إلا أنه يبدو أنه لا يوجد شك فى

الأمر . لقد استعملت مادة المورفين في كلتا الحالتين ، وارتكبت جريمتيها بهدوء أعصاب تحسد عليه ، إلى درجة أنه لم تهتز لها شعرة عندما أُلقي القبض عليها ، ولم تعترف بأي شيء على الإطلاق ، لكن الأدلة المتوافرة لدينا تدينها دون شك ، مما سيجعلها عرضة لحبل المشنقة بلا ريب " .

" هل تظن أنها ارتكبت الجريمتين ؟ " .

بحكمة محقق خبير ، وهدوء رجل طيب القلب ، أومأ مارسدين برأسه إيجابًا .

وقال : " لا شك في الأمر . لقد وضعت السم داخل الشطائر ، مما يدل على أنها مجرمة رابطة الجأش " .

" أليس لديك أي شكوك ـ أي شكوك على الإطلاق ؟ " .

" آه ، كلا . أنا واثق من الأمر . إنه لشعور طيب عندما تكون متأكداً للغاية ، فنحن أكثر حرصاً على عدم ارتكاب الأخطاء عن بقية الناس ، ونحن لا نسعى وراء إدانة المتهمين فقط ، كما يعتقد البعض . وفي هذه القضية بالذات ، نستطيع أن نطالب بتطبيق أقصى العقوبة ونحن مرتاحو الضمير " .

قال بوارو ببطء :

" فهمت " .

نظر إليه محقق شرطة سكوتلانديارد بفضول قائلاً :

" أهناك أية أدلة في صف المتهمة ؟ " .

هزّ بوارو رأسه نفياً ببطء .

ثم قال : " لا شيء - حتى الآن ، وكل ما اكتشفته بشأن القضية حتى هذه اللحظة يشير إلى أن إلينور كارليل مذنبة لا محالة ! " .

قال المفتش مارسدين بسعادة شخص واثق :

" إنها مذنبة ، دون شك " .

قال بوارو :

" أود أن أتحدث إليها " .

ابتسم المفتش مارسدين بلطف وقال :

" أراهن أن لديك تصريحاً من وزير الداخلية نفسه ، أليس كذلك ؟ لن تكون زيارتك لها أمراً صعباً ، على أية حال " .

الفصل ٩

قال بيتر لورد :

" حسنا ؟ " .

أجاب هيركيول بوارو :

" كلا ، إن الأمر ليس حسنًا على الإطلاق " .

قال بيتر لورد بحدة :

" ألم تتوصل إلى أى شىء ؟ " .

رد بوارو ببطء :

" لقد قتلت إلينور كارليل مارى جيرارد بدافع الغيرة ... لقد قتلت إلينور كارليل عمتها كى ترث أموالها .... لقد قتلت إلينور كارليل عمتها بدافع الشفقة .... وعليك يا صديقى أن تتخير ما تشاء من تلك الدوافع ! " .

قال بيتر لورد :

" أنت تهذى بهراء فارغ ! " .

رد هيركيول بوارو :

" أحقا أفعل ذلك ؟ " .

ظهر الغضب على وجه بيتر لورد الممتلئ بالنمش ، وقال :

" ما كل هذا الذى تقوله ؟ " .

أجاب هيركيول بوارو :

" ألا تظن أن الأمر محتمل ؟ " .

" أى أمر هذا الذى أظنه محتملاً ؟ " .

" أن إلينور لم تستطع أن تتحمل رؤية عمتها وهى تتعذب من شدة المرض ، فساعدتها على التخلص من حياتها البائسة " .

" محض هراء ! " .

" هل هو هراء بالفعل ؟ لقد أخبرتنى بنفسك أن المرأة العجوز قد طلبت منك أن تساعدها فى ذلك " .

" لم تكن تعني حقاً ما تقول ، فهى تعرف أننى ما كنت لأفعل شيئاً كهذا " .

" ومع ذلك ، فإن الفكرة كانت تعتمل برأسها ، ولعل إلينور كارليل قد ساعدتها علي تنفيذها " .

ظل بيتر لورد يتحرك يميناً ويساراً ، ثم قال أخيراً :

" أنا لا أستطيع أن أنكر أن الأمر محتمل ، لكن إلينور كارليل شابة راجحة العقل ، متزنة الفكر ، ولا أظنها ستسمح للشفقة بأن تحجب عن عقلها خطورة أمر كهذا ، وأظن أنها كانت لتعرف تحديداً مخاطر القيام بفعلة كتلك ، حيث إنها كانت تدرك احتمالية أن تواجه اتهاماً بالقتل ، إذا تم اكتشاف المسألة " .

" إذن ، فأنت لا تعتقد أنها قادرة على القيام بذلك الأمر ؟ " .

قال بيتر لورد ببطء :

" أظن أن المرأة قد تقوم بشيء كهذا من أجل زوجها ؛ أو أحد أبنائها ؛ أو ربما من والدتها ، لكن لا أعتقد أنها قد تقوم به من أجل عمتها ، حتى إن كانت مغرمة بتلك العمة . وعلى أى حال ، فإننى أعتقد أنها ستفعل ذلك فقط إذا كان الشخص المريض يتعرض لآلام لا تحتمل " .

قال بوارو بتفكر :

" لعلك محق في ذلك " .

ثم أضاف قائلاً :

" هل تظن أن مشاعر رودريك ويلمان تجاه عمته قد تدفعه للقيام بأمر كهذا ؟ " .

أجاب بيتر لورد بنبرة احتقار :

" كانت ستعوزه الشجاعة للقيام بأمر كهذا ! " .

تمتم بوارو :

" أعتقد يا صديقى أنك تستخف بهذا الفتى بطريقة أو بأخرى " .

" أوه ، ما كنت لأنكر أنه ذكى ومثقف ، وكل هذه الأمور .... " .

قال بوارو : " تمامًا ، وهو أيضا يمتلك شخصية ساحرة .... نعم ، لقد شعرت بذلك عندما قابلته " .

" حقًا ؟ أنا لم أشعر بذلك مطلقاً " .

ثم قال بيتر لورد بجدية :

" اسمع يا سيد بوارو ، أليس هناك أى شىء يمكنك عمله ؟ " .

قال بوارو :

" إن تحرياتى لم تكلل بالنجاح حتى الآن ، وهى تقودنى دائما إلى نفس النقطة . لا أحد يمكنه أن يجنى أى شيء من موت مارى جيرارد . لم يكن هناك من يكره مارى جيرارد - سوى إلينور كارليل . لكن هناك سؤال واحد نستطيع أن نطرحه على أنفسنا . ربما يمكننا أن نقول : *أكان هناك من يكره إلينور كارليل* ؟ " .

هز بيتر لورد رأسه نفياً فى بطء .

وقال : " ليس على قدر علمى ... أتقصد أن .... أن أحدهم أراد الإيقاع بها فى هذه الجريمة ؟ " .

أومأ بوارو برأسه إيجابًا ، وقال :

" إنها فرضية بعيدة الاحتمال ، وليس هناك أى دليل يدعمها .... ربما سوى اكتمال القضية المحاكة ضدها " .

ثم قص على جليسه مسألة الخطاب المجهول .

وقال : " أترى ، هذا ما يجعل حبك قضية محكمة ضدها أمراً ممكناً . لقد تم تحذيرها أنها قد تُحرم تمامًا من وصية عمتها - وأن هذه الفتاة الغريبة قد تستولى على كل الثروة . ولهذا ، فإنه عندما طلبت عمتها محاميا - أثناء اشتداد مرضها - لم تخاطر إلينور مطلقا ، وأعدت خطتها لكى تتخلص من عمتها العجوز فى تلك الليلة ! " .

صاح بيتر لورد :

" ماذا عن رودريك ويلمان ؟ لقد كان معرضاً لخسارة إرثه أيضًا ! " .

هزّ بوارو رأسه نفيًا وقال :

" كلا ، لقد كان من مصلحته أن تترك عمته وصية ، وذلك لأنها لو توفيت دون أن تترك وصية ، فلن يرث من أموالها شيئاً ، وذلك لأن إلينور كانت الشخص الوحيد الذى يرتبط بصلة قرابة حقيقية مع المتوفاة " .

قال بيتر لورد :

" لكنه كان سيتزوج من إلينور ! " .

قال بوارو : " هذا صحيح ، لكن تذكر أن خطبتهما قد فُسخت بعد موت العمة تماماً ـ وأنه قد أظهر لإلينور رغبته فى التحرر من الخطبة " .

تأوه بيتر لورد ، ووضع رأسه بين يديه . ثم قال :

" إذن فالأمر يعود إلى إلينور مهما اختلفت الافتراضات ! " .

" نعم . إلا إذا .... " .

صمت بوارو للحظة ، ثم أضاف :

" هناك شيء ما ... " .

" ماذا ؟ " .

" شيء ما .... جزء ناقص من أجزاء اللغز ، وما أنا واثق منه هو أن ذلك الشيء يتعلق بمارى جيرارد . إنك يا صديقى ـ بحكم عملك كطبيب ـ تسمع الكثير من النميمة

والفضائح فى هذه الأنحاء ، فهل سمعت يوماً أى شىء يمس سمعة مارى ؟ " .

" يمس مارى جيرارد ؟ أتقصد يمس أخلاقياتها ؟ " .

" أى شىء ــ قصة قديمة تتعلق بها ؛ بعض التصرفات الطائشة من جانبها ؛ فضيحة من أى نوع ؛ شك فى أمانتها ؛ شائعة مغرضة تتعلق بها ؛ أى شىء ... أى شىء على الإطلاق ـ لكن من المهم أن يكون شيئًا *يضرها* بشكل محدد .... " .

قال بيتر لورد ببطء :

" أرجو ألا تكون تنوى أن تَنتهج هذه الطريقة الملتوية .... محاولاً تشويه سمعة شابة بريئة ومسالمة قد رحلت عن عالمنا ولا تستطيع الدفاع عن نفسها .... وعلى أى حال ، لا أظن أن بإمكانك فعل ذلك مهما حاولت ! " .

" أتريد أن تقول إنها كانت فتاة طاهرة ـ وإنها لم تخطئ ولو مرة فى حياتها ؟ "

" لقد كانت كذلك ، على قدر علمى ، ولم أسمع عنها أى شىء سوى ما قلته لك " .

قال بوارو برقة :

" لا تظن يا صديقى أننى أنوى أن ألوث سمعة تلك الفتاة الراحلة بغير وجه حق .... كلا ، كلا ، الأمر ليس كذلك مطلقاً ، لكن المرضة هوبكنز ليست خبيرة فى إخفاء مشاعرها ، ولقد كانت مغرمة بمارى ، وهناك شىء

يتعلق بمارى لا تريد الممرضة هوبكنز أن تخبرنى به ؛ أقصد أن هناك شيئًا يمس مارى ، وهى تخشى أن أكتشفه . هى لا تظن أن له علاقة بالجريمة ، كما أنها مقتنعة أن الجريمة ارتكبتها إلينور كارليل ، ومن الواضح أن هذه المعلومة - أياً كانت - لا علاقة لها بالآنسة إلينور كارليل ، لكن من المهم يا صديقى أن أعلم كل الحقائق - مهما كانت . وذلك لأن مارى ربما تكون قد ارتكبت خطأ تجاه شخص ثالث ، وفى هذه الحالة ، فإن هذا الشخص ربما يكون لديه دافع للتخلص منها " .

قال بيتر لورد :

" لكن فى هذه الحالة كانت الممرضة هوبكنز ستدرك ذلك أيضاً " .

قال بوارو :

" إن الممرضة هوبكنز امرأة ذكية ، ولكنّ ذكاءها لن يعادل مستوى ذكائى أنا بالطبع . وهى قد لا ترى أن هناك ما يربط بين الأمور المتفرقة ، لكن هيركيول بوارو سيرى الأمور من منظور مختلف ! " .

قال بيتر لورد ، وهو يهز رأسه نفيًا :

" آسف جدا ، لكنى لا أعرف شيئًا " .

قال بوارو بتفكر :

" وكذلك لا يعرف تيد بيجلاند أى شيء ، ولقد عاش طيلة حياته - وحياة مارى - فى هذه القرية ؛ وكذلك لا تعرف السيدة بيشوب أى شيء ؛ لأنها لو كانت تعلم أى

شيء مشين يمس مارى ، فما كانت لتطيق أن تغلق فمها عليه ! حسنا ، هناك أمل أخير " .

" ماذا ؟ "

" سوف أتحدث اليوم إلى الممرضة الأخرى ، الممرضة أوبريان " .

قال بيتر لورد ، وهو يهز رأسه :

" إنها لا تعلم الكثير عن هذه الأنحاء ، فلقد عملت هنا لشهر أو شهرين فقط " .

قال بوارو :

" أنا على علم بذلك ، لكن يا صديقى كلنا يعرف أن الممرضة هوبكنز هى زعيمة النميمة فى هذه القرية ، وهى لم تتحدث إلى أحد فى القرية بأى شيء وذلك حتى لا تضر بسمعة مارى جيرارد ، لكننى أشك فى كونها قد تمكنت من عدم البوح ، ولو بتلميح بسيط ، مما قد يدور برأسها إلى زميلة عمل ، وخاصة إذا كانت غريبة عن القرية ! إن الممرضة أوبريان قد تعرف شيئاً " .

الفصل ١٠

أزاحت المرضة أوبريان خصلات شعرها الأحمر واتسعت ابتسامتها وهى تنظر إلى الرجل الضئيل الحجم الذى يجلس أمامها على الطاولة .

ثم قالت لنفسها :

" يا له من شخص ضئيل مضحك ، وخاصة بعينيه الخضراوين اللتين تشبهان عينى القطة ، ومع ذلك فالدكتور لورد يقول عنه إنه محقق بارع الذكاء ! " .

قال هيركيول بوارو :

" من السعادة أن يقابل المرء شخصًا يمتلئ بالصحة والنشاط . لابد أن ذلك يؤثر إيجاباً على مرضاك ويُعجّل بشفائهم " .

قالت المرضة أوبريان :

" أنا لست من المرضات المتجهمات ، وإننى لمتنة لأن مرضاى لا يموت منهم الكثير وهم تحت رعايتى " .

قال بوارو :

" بالطبع كان الموت رحمة فى حالة السيدة ويلمان " .

" آه ، لقد كان كـذلك .... مـسكينة تلـك الـسيدة " .

بدت عينا الممرضة أوبريـان ثـاقبتين وهـى تنظـر إلى بـوارو وتتساءل :

" أهذا هو الموضوع الذى جئت تحـادثنى بـشأنه ؟ لقـد علمت أن الشرطة قد استخرجت جثتها " .

قال بوارو :

" ألم تنتبك أنت أية شكوك عند وفاتها ؟ " .

" كلا ، على الإطلاق ، رغم أنه كان يجب أن أتشكك فى الأمر ، خاصة بسبب التعـبيرات التـى ارتـسمت علـى وجه الدكتور لورد فى صباح ذلك اليوم ، وبـسبب إرسـاله لى هنا وهناك وفى كل مكان من أجل إحضار أشياء لم يكن يحتاجها على الإطلاق ، لكنه وقّع شهادة الوفاة رغـم كـل شىء " .

بدأ بوارو يتحدث قائلاً : " لقد كانت لديه أسبابه " .

لكن الممرضة أوبريان التقطت الكلمات من فمه :

" بالفعل ، ولقد كان على حق فيما فعله ، فلن يستفيد الطبيب شيئاً إذا استسلم لظنونه وأساء إلى عائلة المتـوفى ، ثم يتبين خطأ ظنه ، ويكون فـى ذلـك نهايتـه كطبيـب ، فلا أحد سيرغب فـى اسـتدعائه بعـد ذلـك ، إن الطبيـب يجب أن يتأكد من كل شىء ! " .

قال بوارو :

" هنـــاك احتمـــال أن تكـــون الـــسيدة ويلمـــان قـــد انتحرت " .

" تنتحر ؟ وهي ترقد في تلك الحالة من العجز ؟ إنهـا لم تكن تستطيع أن تفعل أى شيء سوى أن ترفـع إحـدى يديها ! " .

" لعل أحدهم قد ساعدها ؟ " .

" آه ، لقد فهمت الآن ماذا تقصد . لعلك تعني الآنـسة إلينور كارليل ، أو السيد رودريك ويلمان ، أو حتى مـارى جيرارد ؟ " .

" هذا أمر محتمل ، أليس كذلك ؟ " .

هزت الممرضة أوبريان رأسها نفياً وقالت :

" ما كان أحدهم ليجرؤ على ذلك " .

قال بوارو ببطء :

" ربما لا " .

ثم أضاف :

" متـــى اكتـــشفت الممرضـــة هـــوبكنز اختفـــاء قنينـــة المورفين ؟ " .

" في صباح يوم الوفاة ، لقد قالت إنها واثقة مـن أنهـا قد أحضرتها إلى هنا لكنك تعلم كيف تحدث تلك الأمور ، فبعد فترة يبدأ عقلك في التشوش ، وفـي النهايـة صـارت الممرضة هوبكنز واثقة من أنها قد تركتها في منزلها " .

تمتم بوارو :

" وحتى ذلك الوقت لم تنتبك الشكوك مطلقاً ؟ " .

" كلا ، على الإطلاق ! بالتأكيد لم يخطر ببالى ولو للحظة أن الأمور ليست فى نطاقها السليم ، وحتى الآن ليس لدى الشرطة سوى شكوك غير مثبتة " .

" ألم تشعرى ـ أنت أو الممرضة هوبكنز ـ بأى لحظة انزعاج بسبب فقدان قنينة المورفين ؟ " .

" حسنًا ، ما كنت لأقول ذلك .... إننى أتذكر أن الفكرة قد خطرت ببالى ـ وفى بال الممرضة هوبكنز أيضاً على ما أعتقد ـ لقد كنا نجلس معا فى مطعم (بلوتيت كافيه) فى ذلك اليوم ، وأحسست أن الفكرة قد انتقلت من رأسى إلى رأس الممرضة هوبكنز ، حيث قالت : " ليس هناك أى تفسير آخر سوى أننى قد وضعت القنينة على رف الموقد ، ثم تدحرجت وسقطت فى سلة المهملات ، أليس كذلك ؟ " وأجبتها قائلة : " نعم ، ليس هناك أى تفسير غير ذلك بالفعل " . ولم تتحدث إحدانا بما يدور برأسها من أفكار ، ولا عبّرنا عما يجيش بصدرينا من مخاوف " .

تساءل هيركيول بوارو :

" وماذا تعتقدين الآن ؟ " .

قالت الممرضة أوبريان :

" إذا اكتشفوا وجود آثار للمورفين فى جثة السيدة ويلمان ، فلن يكون هناك شك فى شخصية من سرق قنينة المورفين ، ولا فيما فعله بتلك القنينة ـ لكنى لن أصدق أن

الآنسة إلينـور قـد قتلـت عمتهـا إلا بعـد أن يثبـت وجـود المورفين فى جثة السيدة الراحلة " .

قال بوارو :

" أليست لديك أى شكوك فـى أن إلينـور كارليـل هـى من قتلت مارى جيرارد ؟ " .

" لا يوجد أى شك فـى الأمـر إذا أردت رأيـى ! فمـن غيرهـا كـان لديـه الـدافع أو الرغبـة فـى الـتخلص مـن مارى ؟ " .

قال بوارو : " هذا هو السؤال المهم " .

أكملت المرضة أوبريان حديثها بجدية :

" ألم أكن هناك فى تلـك الليلـة عنـدما كانـت الـسيدة ويلمان تحاول أن تنطق ، وكانت الآنسة إلينور تعدها بـأن كل الترتيبات سوف تتم بشكل لائق ووفقا لرغباتهـا ؟ أولم أر وجهها وهى تنظر إلى مارى جيرارد وهـى تهـبط الـدرج فى يوم ما ، وقد ظهرت الكراهية والحقد عليـه بوضـوح ؟ وكأن عقلها ـ فى تلك اللحظـة ـ لم يكـن يفكـر سـوى فـى التخلص من مارى جيرارد " .

قال بوارو :

" لو أن إلينور كارليل قتلت عمتها ، فلماذا فعلت ذلك فى رأيك ؟ " .

" لماذا ؟ من أجل المـال طبعًـا ... مائتـا ألـف جنيـه ، هذا هو المبلغ الذى حصلت عليه من خلال قتـل عمتهـا ، وهذا هو السبب فـى قيامهـا بـذلك ـ إذا كانـت قـد فعلتـه

بالفعل ، إنها شابة جريئة وذكية ، ولا يحوى جسدها ذرة من الخوف ، ولديها الكثير من الدهاء والحيلة " .

قال هيركيول بوارو :

" لو أن السيدة ويلمان قد عاشت حتى تترك وصية ، فلمن تعتقدين أنها كانت ستترك أموالها ؟ " .

قالت الممرضة أوبريان - وهى تحاول جاهدة ألا تفصح عما تظنه حقًا : " أوه ، ليس لى أن أفترض شيئاً كهذا ، لكنى أظن أنها كانت ستترك كل مليم من أموالها إلى مارى جيرارد " .

قال هيركيول بوارو :

" لماذا ؟ " .

بدا أن تلك الكلمة البسيطة ذات المقطع الواحد قد أزعجت الممرضة أوبريان كثيرًا فقالت :

" لماذا ؟ هل تسأل عن سبب قيامها بذلك ؟ حسنًا ... كل ما أستطيع قوله هو أن ذلك ما كان سيحدث بالفعل " .

تمتم بوارو :

" بعض الناس قد يقولون إن مارى جيرارد قد لعبت دورها ببراعة شديدة ، وأنها قد استطاعت أن تتسلل إلى قلب السيدة العجوز وتعزز مكانتها هناك ، حتى تجعلها تنسى روابط الدم والعاطفة الأسرية " .

قالت الممرضة أوبريان ببطء : " قد يقولون ذلك " .

تساءل بوارو :

" هل كانت مارى جيرارد فتاة ذكية وذات مكر ؟ " .

ردت الممرضة أوبريان ببطء :

" ما كنت لأعتقد ذلك فيها .... إن كل ما فعلته كان تصرفاً طبيعياً ، ودون تخطيط أو مكر . لم تكن مارى من ذلك النوع ، وأحيانا يكون هناك أسباب تدفع الناس لترك ثرواتهم لأشخاص غرباء ، لكنها أسباب لا يفضلون أن يعرفها أحد .... " .

قال بوارو بصوت خافت :

" أعتقد أنك امرأة كتومة للغاية يا سيدتى " .

" أنا لست ممن يتحدثون فى أمور لا تخصهم " .

قال بوارو وهو يراقب ملامحها جيدًا :

" أظن أنك اتفقت مع الممرضة هوبكنز على أن هناك بعض الأمور التى من الأفضل أن تظل سراً لا يعلمه أحد ، أليس كذلك ؟ " .

قالت الممرضة أوبريان :

" ماذا تقصد بقولك هذا ؟ " .

رد بوارو بسرعة :

" أشياء لا علاقة لها بالجريمة ـ أو الجريمتين ـ وإنما كنت أعنى المسألة الأخرى " .

قالت الممرضة أوبريان ، وهى تومئ برأسها :

" ما هى فائدة تعكير المياه الراكدة ونكء جراح الماضى التى عفى عليها الزمان ، فلقد كانت سيدة نبيلة ولا يوجد

في حياتها أى شيء مشين ، ولقد توفيت وهى محط احترام وإجلال كل من حولها " .

أومأ بوارو موافقًا ، وقال بحذر :

" كما تقولين ، لقد كانت السيدة ويلمان محط احترام وتقدير فى مادينسفورد " .

أدرك بوارو أن المحادثة قد اتخذت منعطفًا غير متوقع ، لكن ملامح وجهه لم تظهر أى تعبير عن المفاجأة أو الحيرة .

أكملت الممرضة أوبريان تقول :

" لقد حدث الأمر منذ زمن بعيد جدا ، وكل شيء قد انتهى وطواه النسيان . إننى ضعيفة حيال قصص الحب الرومانسية ، وكنت دائما أقول ـ وما زلت عند رأيى ـ أنه من الصعب على أى رجل تكون زوجته نزيلة مصحة عقلية أن يظل مرتبطاً بها طوال حياته دون شيء يحرره من ذلك القيد سوى الموت " .

تمتم بوارو ـ وهو لا يزال متحيرًا :

" نعم ، إن ذلك لأمر صعب .... " .

قالت الممرضة أوبريان :

" هل أخبرتك الممرضة هوبكنز كيف أن خطاب كل منا إلى الأخرى قد وصل فى نفس التوقيت ؟ " .

قال بوارو بصدق :

" لم تخبرنى بذلك تحديداً " .

" لقد كانت مصادفة غريبة ، لكن هذا هو ما يحدث دائما ، ما إن تسمع اسماً ما ، حتى تجد نفسك تتعرض له خلال يوم أو يومين ، وهكذا دواليك . كم هو غريب أن أرى نفس الصورة على بيانو فى المنزل الذى كنت أعمل به ، وفى نفس اللحظة تسمع الممرضة هوبكنز بالحكاية كلها من مدبرة منزل الدكتور " .

قال بوارو : " هذا أمر مثير للغاية " .

ثم تمتم مجرباً حظه :

" هل علمت مارى جيرارد شيئاً عن هذا الأمر ؟ " .

قالت الممرضة أوبريان : " ومن سيخبرها ؟ لست أنا ـ ولا الممرضة هوبكنز . فماذا يفيد الفتاة من معرفة ذلك ، على أى حال ؟ " .

أزاحت الممرضة أوبريان خصلات شعرها الحمراء إلى الخلف ، وحدقت النظر إلى بوارو بثبات .

فقال بوارو بتنهيدة :

" ماذا يفيدها بالفعل ؟ " .

الفصل ١١

إلينور كارليل ....

من الجانب الآخر من الطاولة التى تفصل بينهما ، نظر بوارو إليها ، باحثاً فى ملامحها عن إجابات ترضى حيرته وفضوله .

كانا يجلسان بمفردهما ، وكان هناك حارس يراقبهما عبر حائط زجاجى .

تطلّع بوارو إلى ذلك الوجه الذكى الحساس ، بجبهته البيضاء العريضة ، ودقة تشكيل الأنف والأذنين ، وتلك الملامح الراقية التى تعبر عن مخلوقة أبيّة وحساسة ، وتظهر حسن تربيتها ، وسيطرتها على مشاعرها والعجيب أن ملامحها كانت تشى كذلك بقدر كبير من العاطفة والشغف .

قال بوارو :

" أنا هيركيول بوارو ، ولقد أرسلنى الدكتور لورد ، ويبدو أنه يظن أن باستطاعتى مساعدتك " .

قالت إلينور كارليل :

" بيتر لورد .... " بدت نبرتها حافلة بالذكريات ، وللحظة ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزن ولهفة ، ثم أكملت حديثها بلهجة رسمية : " لقد كان ذلك تصرفاً لطيفاً من جانبه ، ولكننى لا أعتقد أن هناك ما يمكنك فعله " .

قال هيركيول بوارو :

" هلا أجبت عن بعض الأسئلة ؟ " .

تنهدت إلينور وقالت :

" صدقنى .... سيكون من الأفضل ألا تطرح تلك الأسئلة ، واعلم أننى بين أيدٍ أمينة ، فالسيد سيدون كان فى غاية اللطف معى ، ولدى محامٍ شهير للغاية " .

قال بوارو :

" إنه ليس فى مثل شهرتى ! " .

قالت إلينور فى وهن :

" لديه سمعة رائعة " .

" نعم ، فى الدفاع عن المجرمين ، وأنا لدىّ سمعة رائعة فى إظهار الحقيقة وتبرئة الأبرياء " .

رفعت إلينور عينيها أخيراً ، تلك العينين الزرقاوين اللتين تفيضان بالحيوية ، ونظرت بهما إلى بوارو مباشرة ، ثم قالت :

" هل تعتقد أننى بريئة ؟ " .

رد هيركيول بوارو :

" هل تؤمنين أنت بأنك بريئة ؟ " .

ابتسمت إلينور ابتسامة لاحت فيها بعض السخرية ، وقالت :

" أهذه عينة من أسئلتك ؟ أليس من السهل علىّ أن أجيب بـ" نعم " ؟ " .

قال بوارو بشكل مفاجئ :

" أنت متعبة للغاية ، أليس كذلك ؟ " .

اتسعت عيناها قليلاً ، وأجابت :

" نعم ، أشعر بتعب لا حدود له . لكن كيف عرفت ذلك ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" لقد عرفت .... " .

" سوف أشعر بالسعادة عندما .... عندما ينتهى الأمر " .

نظر إليها بوارو فى صمت لدقيقة كاملة ، ثم قال :

" لقد رأيت .... قريبك ، السيد رودريك ويلمان ، فهلا أطلب منه الحضور لساندتك معنويًا ؟ " .

تسللت الدماء إلى ذلك الوجه الأبيض المتكبر ببطء ، وعلم بوارو حينها أن أحد أسئلته قد أُجيب دون أن يضطر إلى طرحه .

قالت إلينور وصوتها يرتجف قليلاً :

" هل رأيت رودى ؟ " .

قال بوارو :

" إنه يفعل كل ما يستطيع من أجلك " .

" أعلم ذلك " .

كان صوتها سريعًا وخافتًا .

قال بوارو :

" أهو غنى أم فقير ؟ " .

" رودى ؟ ليس لديه الكثير من المال " .

" وهل هو مسرف ؟ " .

قالت إلينور فى شبه شرود :

" لم يكن الأمر يمثل أهمية لأى منا ، فقد كنا نعلم أننا فى يوم ما سوف .... " .

ثم سكتت ولم تكمل .

قال بوارو بسرعة :

" كنتما تعولان على إرثكما ؟ هذا أمر مفهوم " .

ثم أردف يقول :

" ربما تكونين قد سمعت بنتائج تشريح جثة عمتك . لقد ماتت نتيجة التسمم بالمورفين " .

قالت إلينور كارليل ببرود :

" أنا لم أقتلها " .

" هل ساعدتها على قتل نفسها ؟ " .

" هل ساعدتها ؟ آه ، فهمت ماذا تقصد . كلا ، لم أفعل شيئًا كهذا " .

" أكنت تعلمين أن عمتك لم تترك وصية ؟ " .

" كلا ، لم يكن لدىّ فكرة عن ذلك " .

صار صوتها فاتراً فى تلك اللحظة وكئيباً . وقد جاءت إجابتها ميكانيكية ، غير مبالية .

قال بوارو :

" وأنت ، هل تركت وصية ؟ " .

" نعم " .

" وهل قمت بإجراءات الوصية فى اليوم الذى حدثك عنها الدكتور لورد ؟ " .

" نعم " .

ومرة أخرى تصاعد اللون الأحمر إلى وجنتيها .

قال بوارو :

" وكيف قمت بتقسيم ثروتك يا آنسة كارليل ؟ " .

قالت إلينور بصوت خافت :

" لقد تركت كل شىء باسم رودى ـ أقصد رودريك ويلمان " .

قال بوارو :

" وهل يعرف السيد رودريك ذلك ؟ " .

ردت إلينور بسرعة :

" بالطبع لا " .

" ألم تناقشى الأمر معه ؟ " .

" كلا ، بالطبع ، كان سيشعر بإحراج شديد ، وكان سينزعج بشدة مما أفعله " .

" من غيرك يعرف بمسألة الوصية هذه ؟ " .

" لا أحد سوى السيد سيدون وكاتبه " .

" وهل قام السيد سيدون بكتابة الوصية من أجلك ؟ " .

" نعم . لقد كتبت إليه فى نفس الليلة ـ أقصد فى الليلة التى حدثنى فيها الدكتور لورد بشأن الوصية " .

" هل أوصلت الخطاب الذى أرسلته إلى السيد سيدون إلى مكتب البريد بنفسك ؟ " .

" كلا . لقد وُضع فى صندوق البريد الخاص بالمنزل مع بقية الخطابات الأخرى " .

" أتقصدين أنك كتبته ، ثم وضعته فى مظروف ، وأغلقت المظروف ووضعت فوقه طابع بريد ، ثم وضعته فى صندوق البريد الخاص بالمنزل ـ بهذه البساطة ؟ ألم تتمهلى للتفكير فى الأمر ؟ لكى تراجعى قراءته مرة أخرى ؟ " .

قالت إلينور وهى تحدق النظر إليه :

" نعم ، لقد قرأته ملياً ، ثم ذهبت لأحضر بعض الطوابع ، وعندما أحضرت الطوابع وعدت إلى المكتب ثانية ، أعدت قراءة الخطاب لكى أتأكد من أننى قد كتبت كل شيء بوضوح وبشكل سليم " .

" أكان هناك شخص آخر فى الغرفة ؟ " .

" فقط رودى " .

" هل كان يعلم ماذا تفعلين ؟ " .

" لقد أخبرتك بأنه لم يكن يعلم " .

" هل من الممكن أن يكون أحدهم قد قرأ الخطاب وأنت خارج الغرفة ؟ " .

" لا أدرى ... أتقصد أحدًا من الخدم ؟ أظن أنـه كـان بإمكانهم ذلك لو تصادف دخول أحـدهم إلى الغرفـة عنـدما تركتها " .

" وقبل أن يدخلها السيد رودريك ؟ " .

" نعم " .

" وربما كان بإمكانه أن يقرأه هو الآخر ؟ " .

بدا صوت إلينور واضحاً ، وهى تقول فى لوم :

" أستطيع أن أؤكد لك يا سـيد بـوارو أن " قريبـى " ـ كما تسميه ـ لا يقرأ خطابات الآخرين " .

قال بوارو :

" أعلم أن هذه ربما تكون الصفة المعروفة عنـه ، لكنـك قد تندهشين كم من الناس قد يفعلـون أحيانًـا تلـك الأمـور التى لا يجب أن تصدر منهم " .

هزت إلينور كتفيها فى عدم اكتراث .

قال بوارو فى صوت عادى :

" هل كان ذلك هو اليوم الذى خطرت ببالك فيه فكـرة قتل مارى جيرارد ؟ " .

وللمـرة الثالثـة ، تـصاعدت الـدماء إلى وجـه إلينـور كارليـل ، لكنهـا كانـت تعـبر عـن موجـة شـديدة مـن الغضب . فقالت :

" أقال لك بيتر لورد ذلك ؟ " .

قال بوارو برقة :

" إذن فقد حدث ذلك يومها ، أليس كذلك ؟ عندما نظرت من خلال نافذة الكوخ ورأيت مارى جيرارد تكتب وصيتها ؛ لقد كان ذلك هو الوقت الذى خطر ببالك كيف أنه سيكون من الغريب ـ والملائم أيضا ـ لو أن مارى جيرارد تموت فجأة .... " .

قالت إلينور فى صوت خفيض مختنق :

" لقد علم ... لقد نظر إلىّ وعلم ما أفكر فيه .... " .

قال بوارو :

" إن الدكتور لورد يعرف الكثير من الأمور .... إن ذلك الرجل ذا الوجه الذى يملؤه النمش والشعر الأحمر ليس مغفلاً .... " .

قالت إلينور فى صوت خفيض :

" أصحيح أنه قد أرسلك .... من أجل مساعدتى ؟ " .

" صحيح يا آنستى " .

تنهدت إلينور وقالت :

" أنا لا أفهم ، أنا لا أفهم أى شىء " .

قال بوارو :

" استمعى إلى يا آنسة كارليل . من المهم أن تخبرينى بالتفصيل عما حدث فى ذلك اليوم الذى قتلت فيه مارى جيرارد : أين ذهبت ، وماذا فعلت ؛ وأكثر من ذلك ، أريد حتى أن أعرف فيما كنت تفكرين " .

حدقت إلينور النظر إليه ، ثم ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة ، وقالت :

لابد أنك رجل بسيط التفكير لدرجة لا تصدق ، ألا تدرك كم هو من السهل أن أكذب عليك ؟ " .

قال هيركيول بهدوء :

" هذا لا يهم مطلقًا " .

بدت إلينور متحيرة وقالت :

" مهما كذبت عليك ؟ " .

" لا يهم ؛ لأن الأكاذيب يا آنسة تخبر المستمع بنفس القدر من المعلومات الذى قد يستخلصه من الحقيقة ، والآن هيا ، قصى علىّ ما حدث ، لقد قابلت مدبرة منزلك القديم ، السيدة بيشوب ، وقد أرادت أن تأتى إلى المنزل لمساعدتك ، لكنك لم تقبلى بذلك ، فلماذا ؟ " .

" أردت أن أكون بمفردى " .

" لماذا ؟ "

" لماذا ؟ لماذا ؟ لأننى أردت أن ... أن أفكر " .

" بل أردت أن تغرقى فى خيالاتك وحدك ـ حسنًا ، ماذا فعلت بعد ذلك ؟ " .

قالت إلينور وقد ارتفع ذقنها فى تحد واضح :

" اشتريت بعض المعجنات لعمل بعض الشطائر " .

" علبتين ؟ " .

" نعم ، علبتين " .

" ثم ذهبت إلى منزل هانتربيرى ، فماذا فعلت هناك بعد وصولك ؟ " .

" لقد صعدت إلى حجرة عمتى ، وبدأت أُقلّب فى متعلقاتها " .

" وماذا وجدت ؟ " .

عبس وجهها وهى تجيب : " ماذا وجدت ؟ ملابس ؛ خطابات قديمة ؛ صور فوتوغرافية ؛ مجوهرات " .

قال بوارو :

" ألم تجدى أية أسرار ؟ " .

" أسرار ؟ لا أفهم ماذا تعنى " .

" دعينا نكمل . ماذا حدث بعد ذلك ؟ " .

قالت إلينور :

" نزلت إلى الطابق السفلى وتوجهت إلى حجرة المؤن لتقطيع الشطائر ... " .

قال بوارو بصوت خافت :

" وبماذا كنت تفكرين ؟ " .

تألقت عينا إلينور الزرقاوان فجأة ، وقالت :

" كنت أفكر فى المرأة التى سمّيت على اسمها ، الملكة إلينور ـ زوجة الملك هنرى الثانى ... " .

قال بوارو :

" أفهم تمامًا ما تقصدين " .

" أحقًا تفعل ؟ " .

" أوه ، نعم . أنا أعرف القصة جيدًا . لقد منحت فاير روساموند ـ عشيقة الملك هنرى ـ الخيار فى أن تنتحر

بـالخنجر أو بكـأس مـسمومة ، فاختـارت روسـاموند أن تموت بالسم .... " .

لم تنطـق إلينـور بـشيء ، لكـن شـحوب وجههـا كـان معبراً بما يكفي .

قال بوارو :

" لكن ربما لا يكون هناك خيار هـذه المـرة .... أكملـى يا آنسة ، ماذا فعلت بعد ذلك ؟ " .

قالت إلينور :

" وضعت الشطائر التى أعددتها فوق طبـق وذهبـت إلى الكوخ ، كانت الممرضة هـوبكنز هنـاك ـ بـصحبة مـارى ، فأخبرتهما أن لدىّ بعض الشطائر الشهية فى المنزل " .

كان بوارو يراقب ملامحها ، ثم قال بصوت خافت :

" حسنًا ، ثم ذهبتن جميعًا إلى المنزل ، أليس ذلك هـو ما حدث ؟ " .

" نعم . لقد تناولنا الشطائر فى القاعة الصباحية " .

قال بوارو بنفس النبرة الخافتة :

" نعـم ، نعـم ـ وكنـت لا تـزالين تـشعرين كأنـك فـى حلم ... وماذا بعدها .... " .

قالت إلينور : " بعدها ؟ لقد تركت مارى ـ وهى تقـف بجوار النافذة ، وذهبت إلى حجـرة المـؤن ، كنـت لا أزال أشعر كأنى فى حلم ـ كما تحب أن تقول . كانت الممرضـة هوبكنز تغسل الأطباق .... فأعطيتها علبة المعجنات " .

" حسنًا ـ حسنًا ، ماذا حدث بعد ذلك ؟ ما الذى فكرت فيه بعدها ؟ " .

قالت إلينور فى نبرة صوت حالمة :

" كان هناك أثر جرح على معصم الممرضة هوبكنز ، فسألتها عنه ، فأجابتنى أنه بسبب شوكة زهرة برية غُرست فى معصمها عند الكوخ ، الزهور البرية عند الكوخ الصيفى .... لقد تشاجرت أنا ورودى مرة ـ منذ زمن بعيد ـ بسبب حرب الزهور . كنت أمثل عائلة لانكستر (وشعارها وردة حمراء) وكان رودى يمثل عائلة يورك (وشعارها وردة بيضاء) كان رودى يحب الزهور البيضاء أما أنا فكنت أقول عنها أنها غير حقيقية ـ ولا رائحة لها ! كنت أحب الزهور الحمراء ، فهى ضخمة وداكنة اللون ، وتفيض بالحيوية وتشتم فيها رائحة الصيف .... وهكذا ظللنا نتشاجر بطريقة شديدة الحماقة . لقد عادت تلك الذكريات إلى عقلى ـ هناك فى حجرة المؤن ـ ثم تكسر شىء ما .... تلك الكراهية السوداء التى كانت تحتل قلبى ـ لقد تلاشت حينها ـ عندما تذكرت كيف كنا نقضى الوقت معا عندما كنا صغاراً ، ولم أعد أشعر بالكراهية تجاه مارى على الإطلاق ، ولم أعد أريدها أن تموت ... " .

صمتت إلينور للحظة ، ثم قالت :

" لكن لاحقًا ، عندما عدنا إلى القاعة الصباحية ، كانت مارى تحتضر .... " .

توقفت إلينور عن الكلام ، وكان بوارو يحدق النظر إليها بتمعن ، وعندها احمر وجه إلينور وقالت :

" هل ستسألنى مجددًا إذا كنت قد قتلت مارى جيرارد ؟ " .

هب بوارو واقفًا ، وقال بسرعة :

" لن أسألك عن أى شيء ، فهناك أشياء لا أريد أن أعرفها .... " .



الفصل ١٢

كان الدكتور لورد فى استقبال القطار عند محطة السكة الحديدية ، كما طُلب منه ذلك .

نزل هيركيول بوارو من القطار ، وقد بدا كأحد ساكنى مدينة لندن ، وكان يرتدى حذاءً جلدياً مستدق الحافة .

حاول بيتر لورد أن يستقرئ ملامح وجه بوارو بتلهف ، لكن ملامح بوارو لم تكن تفصح عن أى شىء .

قال بيتر لورد :

" لقد حاولت قدر استطاعتى لكى أحصل على إجابات عن أسئلتك . أولاً ، لقد غادرت مارى جيرارد لندن فى اليوم العاشر من شهر يوليو . ثانياً ، ليس لدى مدبرة منزل ـ هناك خادمتان شابتان تتوليان أمور منزلى ، وأظنك كنت تقصد السيدة سلاترى ، مدبرة منزل الدكتور رانسوم ، الذى كان طبيب المقاطعة من قبلى . أستطيع أن آخذك إليها هذا الصباح ، إذا أردت ، فقد تأكدت من وجودها فى منزلها " .

قال بوارو :

" نعم ، أظن أنه من الأفضل أن أراها أولا " .

" قلت إنك تريد الذهاب إلى منزل هانتربيرى ، وباستطاعتى أن أصحبك إلى هناك . ما أستغربه حقا هو لماذا لم تذهب إلى المنزل من قبل ، ولست أجد تفسيراً لعدم ذهابك إلى هناك عندما كنت فى القرية من قبل ، ولقد ظننت أن أول شىء يفعله المحقق فى قضية كهذه هو تفقد مسرح الجريمة " .

تساءل بوارو وهو يميل برأسه قليلا جهة اليمين :

" ولماذا أفعل ذلك ؟ " .

بدا بيتر لورد مرتبكا بسبب السؤال ، ثم أجاب قائلا : " لماذا ؟ أليس هذا هو التصرف المعتاد ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" إن المحقق الجيد لا يمارس أعمال التحقيق طبقا لكتيب تعليمات ، وإنما عليه أن يستخدم مواهبه وذكاءه الطبيعى " .

قال بيتر لورد :

" ربما تجد دليلاً ما هناك " .

تنهد بوارو وقال :

" أنت تقرأ الكثير من الروايات البوليسية ، إن رجال الشرطة فى انجلترا مشهود لهم بالكفاءة ، وليس لدىّ شك فى أنهم قد فتشوا المنزل والحدائق المحيطة به تفتيشاً جيداً " .

" فتشوه بحثا عن أدلة تدين إلينور كارليل ، وليس عن أدلة تبرئ ساحتها " .

تنهد بوارو وقال :

" إن رجال الشرطة ــ يا صديقى العزيز ــ ليسوا وحوشاً ! ولقد تم القبض على إلينور كارليل نظراً لأن الأدلة التى اكتشفت كانت تكفى لإقامة قضية ضدها ، بل قضية قوية للغاية إذا أردت رأيى . ولقد كان مضيعة للوقت أن أذهب وأفتش المنزل بعد أن قام رجال الشرطة بذلك من قبل " .

قال بيتر معترضًا : " لكنك تريد الذهاب الآن ، أليس كذلك ؟ " .

أومأ هيركيول بوارو برأسه موافقًا ، وقال :

" نعم ، الآن صار من الضرورى أن أذهب ، وذلك لأننى الآن صرت أعلم تحديداً ما الذى سوف أبحث عنه ، وعلى المرء أن يفهم الأمور بعقله جيدًا قبل أن يستخدم عينيه " .

" إذن فأنت تعتقد أنه ربما يكون هناك بعض الأدلة هناك ؟ " .

قال بوارو برقة :

" نعم ، لدىّ انطباع أننا سوف نجد شيئا هناك " .

" شيئا يثبت براءة إلينور كارليل ؟ " .

" آه ، أنا لم أقل ذلك " .

توقف بيتر لورد فى مكانه مذهولاً ، وقال :

" هل تقصد أنك ما زلت تعتقد أنها مذنبة ؟ " .

قال بوارو بجدية :

" يجب أن تنتظر يا صديقى قبل أن تحصل على إجابة لسؤالك هذا " .

٢

تناول بوارو طعام الغداء بصحبة الدكتور لورد فى غرفة لطيفة مربعة ، بها نافذة تطل على الحديقة .

قال بيتر لورد :

" هل حصلت على المعلومات التى كنت تريدها من السيدة سلاترى ؟ " .

أومأ بوارو إيجابًا وقال :

" نعم " .

" ما الذى كنت تريده منها ؟ " .

" بعض النميمة ! حديث عن الماضى . بعض الجرائم يكون لها جذور فى الماضى ، وأظن أن هذه الجريمة تنتمى لهذه النوعية " .

قال بيتر لورد بانزعاج :

" أنا لا أفهم كلمة واحدة مما تقول " .

ابتسم بوارو وقال :

" هذا السمك طازج ولذيذ " .

قال بيتر لورد بنفاد صبر :

" أستطيع تأكيد ذلك ، فقد اصطدته بنفسى قبل تناول الإفطار هذا الصباح . اسمع يا بوارو ، هل ستخبرنى بما تعنى ؟ لماذا تصرّ على إخفاء المعلومات عنى ؟ " .

هز بوارو رأسه نفيًا وقال :

" لأنه حتى الآن لا يوجد أى أمل ، ولأننى دائمًا ما أصطدم بحقيقة أنه لا يوجد أحد لديه سبب يدفعه لقتل مارى جيرارد ـ سوى إلينور كارليل " .

قال بيتر لورد :

" لا يمكنك أن تتأكد من ذلك ، فقد عاشت مارى جيرارد فترة خارج البلاد " .

" نعم ، نعم ، لقد تحريت عن هذا الأمر " .

" هل ذهبت إلى ألمانيا بنفسك ؟ " .

قال بوارو : " بنفسى ، لا " . ثم أضاف ضاحكا : " لكن لدى جواسيسى " .

" هل يمكنك أن تعتمد على الآخرين ؟ " .

" بالتأكيد . فليس من المفترض لشخص مثلى أن ينطلق هنا وهناك ، لكى أقوم ـ بشكل غير احترافى ـ بتلك الأشياء التى يستطيع أن يؤديها شخص أقل شأناً منى ولكن بشكل أكثر احترافية . أستطيع أن أؤكد لك يا عزيزى أن لدىّ الكثير من المساعدين المفيدين ـ أحدهم لص سابق " .

" وما هى الأعمال التى تستخدمه لأدائها ؟ " .

" المرة الأخيرة التى استعنت فيها بخدمات ذلك الشخص كانت من أجل إجراء بحث دقيق لشقة السيد رودريك ويلمان " .

" وما الذى كان يبحث عنه ؟ " .

قال بوارو :

" إن المرء يود دائما أن يعرف بالتحديد حجم الأكاذيب التى تقال له " .

" وهل كذب عليك رودريك ويلمان " .

" بالتأكيد " .

" ومن كذب عليك أيضًا ؟ " .

" كل الناس ، على ما اعتقدت : لقد كذبت على الممرضة أوبريان لسبب عاطفى ؛ والممرضة هوبكنز بسبب العناد ؛ والسيدة بيشوب بداعى الحقد ، أما أنت .... " .

قاطعه بيتر لورد بجفاء قائلا : " يا الهى ! أنت لا تظن أننى قد كذبت عليك ، أليس كذلك ؟ " .

قال بوارو معترفًا : " ليس بعد " .

استرخى بيتر لورد مرة أخرى فى مقعده وقال :

" أنت رجل كثير الشكوك يا سيد بوارو " .

ثم أردف :

" إذا كنت قد انتهيت من تناول طعامك ، فهلا انطلقنا إلى منزل هانتربيرى ؟ لدىّ زيارات لبعض المرضى فى وقت لاحق ، وكذلك يجب أن أمر على العيادة " .

" أنا رهن إشارتك يا صديقى " .

انطلق الرجلان سيرا على الأقدام ، فدلفا إلى منطقة الحدائق عبر البوابة الخنفية ، وفى منتصف الطريق قابلا شاباً صغير السن ، وسيم الملامح ، يجر عربة يدوية ، فرفع الفتى قبعته تحية للدكتور لورد .

قال بيتر لورد : " صباح الخير يا هورليك ، هذا هو هورليك ـ البستانى ـ يا سيد بوارو ، لقد كان يعمل فى الحديقة فى صباح ذلك اليوم " .

قال هورليك :

" نعم يا سيدى . لقد رأيت الآنسة إلينور ذلك الصباح وتحدثت إليها " .

قال بوارو :

" وما الذى قالته لك ؟ " .

" لقد أخبرتنى أن المنزل قد تم بيعه ، وقد فاجأنى ذلك كثيرا يا سيدى ؛ لكن الآنسة إلينور قالت إنها سوف تتحدث إلى الميجور سومرفيل ، وأنه قد يستبقينى هنا كبيرًا للبستانيين ـ إذا لم يعتقد أننى صغير السن لتولى هذه المهمة ـ خاصة وأننى تدربت جيدًا على يد السيد ستيفنس ، كبير البستانيين السابق " .

قال بيتر لورد :

" هل بدت الآنسة إلينور فى حالتها المعتادة يا هورليك ؟ " .

" نعم يا سيدى ، غير أنها كانت تبدو منفعلة قليلاً ـ وكأنه كان هناك أمر يشغل بالها " .

قال هيركيول بوارو :

" أكنت تعرف مارى جيرارد " .

" أوه ، نعم يا سيدى ، لكن ليس معرفة وثيقة " .

قال بوارو :

" كيف كانت تبدو ؟ " .

" تبدو ؟ أتقصد كيف كانت ملامحها ؟ " .

" ليس تمامًا ، أقصد أى نوع من الفتيات كانت ؟ " .

" أوه ، حسنًا يا سيدى ، لقد كانت فتاة رفيعة الشأن ، وكانت تحسن الحديث وتجيد أخلاقيات بنات العائلات النبيلة ، وأستطيع أن أقول إنها كانت تعتقد أنها فتاة مميزة ، وذلك لأن السيدة ويلمان كانت تهتم بها كثيراً ، مما جعل والدها يستشيط غضبا ، وكان هذا الأمر بالنسبة له أشبه بصداع لا ينقطع " .

قال بوارو :

" لقد سمعت بكل هذه الأمور ، وعلمت أن ذلك الرجل كان حاد الطباع ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، بالفعل ، لقد كان كذلك وكان دائم الزمجرة والضجيج ، ونادرا ما كانت تخرج من فمه كلمة رقيقة " .

قال بوارو :

" لقد كنت بمنطقة الحدائق فى ذلك اليوم ، فأين كنت تعمل بالتحديد ؟ " .

" غالب الوقت فى حديقة المطبخ يا سيدى " .

" هل بمقدورك أن ترى المنزل من هناك ؟ " .

" كلا يا سيدى " .

قال بيتر لورد :

" لو أن أحدهم قد تسلل إلى المنـزل عـبر نافـذة حجـرة المؤن ، أكان باستطاعتك أن تراه ؟ " .

" كلا ، لم أكن لأستطيع ذلك " .

" قال بيتر لورد :

" متى ذهبت لتناول غدائك ؟ " .

" فى تمام الواحدة يا سيدى " .

" ولم تر أى شـيء ـ شـخص يحـوم حـول المكـان ـ أو سيارة تقف خارج المنزل ـ أى شيء كهذا ؟ " .

ارتفع حاجبا الشاب فى تفاجؤ بسيط ، وقال :

" خارج البوابة الخلفية يا سيدى ؟ لقد كانت سـيارتك فقط هى التى تقف هناك ، ولا شىء غيرها " .

صاح بيتر لورد :

" سيارتى : لم تكن سيارتى تقـف هنـاك . لقـد كنـت فى مقاطعة ويزنبورى فى صباح ذلـك اليـوم ، ولم أعـد إلا بعد الساعة الثانية " .

بدت الحيرة واضحة على ملامح هورليك .

وقال فى تشكك : " ولكننى تأكدت أنها كانت سيارتك يا سيدى " .

قال بيتر لورد بسرعة :

" حسنًا ، هذا لا يهم الآن ، إلى اللقاء يا هورليك " .

ثم سار وبصحبته بوارو بعيدا ، وقد ظل هورليك يحدق النظر خلفهما لدقيقة أو اثنتين ، ثم تابع دفعه للعربة اليدوية .

قال بيتر لورد فى صوت خافت يملؤه الكثير من الانفعال :

" أخيرا وجدنا شيئاً سيارة مَنْ تلك التى كانت تقف هناك فى ذلك الصباح ؟ " .

قال بوارو :

" ما هو طراز سيارتك يا صديقى ؟ " .

" فورد ، لونها أخضر ، وهو طراز شائع للغاية بالطبع " .

" هل أنت واثق أنها لم تكن سيارتك ؟ ربما تكون قد أخطأت اليوم ؟ " .

" بالتأكيد أنا واثق ، لقد كنت فى مقاطعة ويزنبورى ، وعدت فى وقت متأخر ، وتناولت غداء سريعاً ، ثم جاءنى اتصال بشأن مارى جيرارد ، فأسرعت بالانطلاق إلى هانتربيرى " .

قال بوارو بصوت خافت :

" إذن يبدو يا صديقى أننا أخيراً قد توصلنا إلى دليل مادى " .

قال بيتر لورد :

" *شخص ما كان هنا فى صباح ذلك اليوم* ....شخص غير إلينور كارليل ، ومارى جيرارد ، والمرضة هوبكنز .." .

قال بوارو :

" هذا أمر مثير للغاية ، هيا نستكمل تحقيقاتنا . دعنا نر ، على سبيل المثال ، إذا كان هناك رجل - أو امرأة - يريد أن يتسلل إلى المنزل دون أن يراه أحد ، فكيف يا ترى سيفعل ذلك ؟ " .

فى منتصف الطريق المؤدى إلى المنزل ، كان هناك ممر فرعي تحيط به بعض الشجيرات ، فسارا فيه ، وعند أحد المنعطفات ، أمسك بيتر لورد بذراع بوارو بقوة ، وهو يشير إلى إحدى النوافذ قائلاً :

" هذه هى نافذة حجرة المؤن التى كانت إلينور تعد الشطائر بداخلها " .

تمتم بوارو :

" ومن هنا ، كان بإمكان أى شخص أن يراها وهى تُعد الشطائر ، فقد كانت النافذة مفتوحة ، إذا كانت ذاكرتى قد أسعفتنى ؟ " .

قال بيتر لورد :

" لقد كانت مفتوحة على مصراعيها ، حيث إنه كان يوم حارًا للغاية " .

قال بوارو بتأمل :

" إذن لو أن أحدهم أراد أن يرى ما يحدث هنا دون أن يراه أحد ، فهذا المكان مناسب للغاية " .

أخذ الرجلان يتفقدان المكان ، ثم قال بيتر لورد :

" هناك موضع هنا ـ خلف تلك الشجيرات ، لقد داس أحدهم بقدمه تلك النباتات ، وقد عادت النباتات للنمو مرة أخرى ، لكنك تستطيع أن ترى أثر قدميه بوضوح " .

انضم إليه بوارو ، وقال بتفكر :

" نعم ، هذا موضع مناسب ، فهو مخفى عن الممر بواسطة هذه الشجيرات ، وتلك الفتحة التي تفصل الأشجار عن بعضها تعطى للمرء مجالاً جيداً لمراقبة النافذة ، والآن ، ماذا فعل صديقنا الذى كان يقف هنا ؟ ربما قام بتدخين سيجارة ؟ " .

انحنى الرجلان إلى أسفل ، يتفحصان الأرض ويزيحان أفرع الشجر وأوراقه المتساقطة .

وفجأة أطلق هيركيول بوارو صيحة قصيرة .

فاعتدل بيتر لوَرد واقفًا وقال :

" ماذا هناك ؟ " .

" علبة ثقاب يا صديقى . علبة ثقاب فارغة ، مغروسة بعمق داخل الأرض ، وقد تشبعت بالماء حتى تحللت " .

التقط بوارو علبة الثقاب بدقة وحذر ، ثم أخرج دفتر من جيبه دفتر ملاحظات ، ووضع علبة الثقاب فوق ورقة انتزعها منه .

قال بيتر لورد :

" إنها أجنبية ، يا إلهى ! *علبة ثقاب ألمانية* ! " .

قال هيركيول بوارو :

" وقد عادت مارى جيرارد قريبا من ألمانيا ! " .

قال بيتر لورد بحماس :

" لقد توصلنا إلى شىء الآن ! لا يمكنك أن تنكر ذلك " .

قال هيركيول بوارو ببطء :

" ربما .... " .

" اللعنة يا رجل ! من الذى يستخدم ثقاباً أجنبيًا فى هذه الأنحاء ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" أعرف ـ أعرف " .

وكانت عيناه ، تلك العينان الزائغتان ، تتطلعان إلى تلك الفتحة التى بين الأشجار ومنظر النافذة من خلفها .

وقال :

" ليس الأمر بهذه البساطة التى تعتقدها ، هناك صعوبة كبيرة فى الأمر ، ألا ترى بنفسك ؟ " .

" ماذا ؟ أخبرنى " .

تنهد بوارو وقال :

" إذا كنت لا تراها بنفسك .... حسناً تعال ، دعنا نستكمل سيرنا " .

استكملا سيرهما إلى المنزل ، ثم فتح بيتر لورد الباب الخلفى بمفتاح كان معه .

ثم تقدم الطريق عبر حجرة الغسيل وحتى المطبخ ، عابراً بهواً طويلاً تتوسطه إلى اليمين حجرة تعليق المعاطف والى اليسار حجرة المؤن ، ثم دلف الرجلان إلى حجرة المؤن .

كانت الحجرة تحتوى على الخزانات المعتادة ذات الأبواب الزجاجية المنزلقة والخاصة بالكئوس الزجاجية والأطباق الصينى ، كان هناك موقد غاز وغلايتان كهربائيتان وكانت هناك أوعية كتب عليها " شاى " و " قهوة " موضوعة فوق الرف العلوى ، إلى جانب وجود حوض غسيل ورف تجفيف صحون ووعاء لغسل الآنية ، كما كانت هناك طاولة موضوعة أمام نافذة الحجرة .

قال بيتر لورد :

" لقد كانت هذه هى الطاولة التى أعدت عليها إلينور الشطائر ، وقد وجد جزء من الورقة اللاصقة التى على قنينة المورفين فى شق موجود فى الأرضية ، أسفل حوض الغسيل " .

قال بوارو بتفكر :

" رجال الشرطة يبحثون بحرص شديد ، وهم لا يغفلون عن الكثير " .

قال بيتر لورد بعنف :

" لا يوجد دليل على أن إلينور قد أمسكت أو لمست قنينة المورفين ! ودعنى أقل هذا ، لقد كان أحدهم يراقبها من وراء الشجيرات بالخارج ، وعندما انطلقت

إلينور إلى الكوخ ، انتهز الفرصة وتسلل إلى الداخل ، ثم نزع غطاء قنينة المورفين ، ثم أخرج منها بعض أقراص المورفين وطحنها ثم وضع المسحوق داخل الشطائر " .

أكمل بيتر لورد يقول : " ولم يلاحظ قط أنه قد نزع جزءا من الورقة اللاصقة الموجودة على قنينة المورفين ، وأن ذلك الجزء قد سقط داخل أحد الشقوق الموجودة فى الأرضية . ثم انطلق بسرعة إلى الخارج ، وأشعل محرك سيارته ، وغادر المكان مرة أخرى " .

تنهد بوارو قائلاً :

" ولكنك تتفق معى أنه من الغريب أن شخصاً ذكياً قد يتصرف على نحو ساذج للغاية " .

تساءل بيتر لورد بغضب :

" أتريد أن تقول إنك لا تصدق أن شخصًا ما كان يقف خلف أكمة الأشجار ، مراقباً تلك النافذة ؟ " .

قال بوارو :

" نعم أصدق ذلك ... " .

" إذن علينا أن نكتشف من هو ذلك الشخص ! " .

تمتم بوارو :

" أظن أننا لن نبحث كثيرًا " .

" أتقصد أنك تعرف من يكون ؟ " .

" لدىّ فكرة محددة عن المسألة " .

قال بيتر لورد ببطء :

إذن فجواسيسك الذين قاموا بعمل التحريات فى ألمانيا قد جلبوا لك معلومات محددة .... " .

قال بوارو ، وهو ينقر فوق جبهته :

" يا صديقى العزيز ، كل شيء موجود هنا داخل رأسى .... هيا نلق نظرة على بقية المنزل " .

٣

وأخيرا توقفا داخل الغرفة التى ماتت فيها مارى جيرارد .

كان هناك جو غريب فى المنزل : حيث بدا المكان حياً ومليئاً بالذكريات والهواجس .

فتح بيتر لورد إحدى النوافذ .

وقال وهو يرتجف قليلاً :

" هذا المكان أشبه ما يكون بالقبر .... " .

قال بوارو :

" لو أن تلك الحوائط تتكلم .... لقالت كل شيء حدث فى هذا المنزل ـ وخاصة بداية هذه القصة " .

صمت بوارو للحظة ، ثم أردف بصوت خافت :

" لقد ماتت مارى جيرارد فى هذه الغرفة تحديدًا " .

قال بيتر لورد :

" لقد وجدوها تجلس فوق هذا المقعد القريب من النافذة .... " .

قال هيركيول بوارو بتأمل :

" فتاة شابة - جميلة - رومانسية ؟ أكانت تضع الخطط وتنصب الشراك ؟ أكانت فتاة متعالية صنعت لنفسها مظهرًا خارجيًا مزيفًا ؟ أكانت فتاة رقيقة ولطيفة ، بلا أى لمحة من المكر والدهاء .... مجرد فتاة صغيرة فى مقتبل عمرها .... فتاة أشبه بزهرة ؟ .... " .

قاطعه بيتر لورد : " أيا كانت شخصيتها ، لقد أراد أحدهم موتها " .

تمتم بوارو :

" حقاً ؟ " .

حدق بيتر لورد النظر إليه وقال :

" ماذا تقصد ؟ " .

هز بوارو رأسه نفيًا وقال :

" لا شىء " .

ثم قال مغيراً الموضوع :

" لقد قمنا بتفتيش المنزل بالكامل ، ورأينا كل ما يمكن رؤيته هنا ، والآن دعنا نتجه إلى الكوخ " .

وفى داخل الكوخ كان كل شىء مرتباً : كانت الغرف يعلوها التراب ، لكنها كانت مرتبة وخالية من أى متعلقات شخصية ، وقد ظل الرجلان بالداخل لعدة دقائق ، وعندما خرجا إلى ضوء الشمس بالخارج ، لمس

بوارو أوراق الورد المتسلّقة التى ارتفعت لأعلى ، مكوّنة سقيفة ظليلة . كانت الزهور قرنفلية اللون وذات رائحة جميلة " .

ثم تمتم يقول :

" هل تعلم اسم تلك الوردة ؟ إن اسمها هو زيفيرين دروهين يا صديقى " .

قال بيتر لورد بضيق :

" وماذا فى ذلك ؟ " .

قال هيركيول بوارو :

" عندما قابلت إلينور كارليل ، حدثتنى عن الورد ، وحينها بدأت أرى ـ ليس نور الصبح ، لكن تلك اللمحات الخاطفة من الضوء التى يراها المرء عندما يكون داخل قطار ويكون ذلك القطار على وشك مغادرة نفق مظلم ، لم يكن ما قالته لى يمثل أملاً جديداً ، ولكن مجرد وعد بوجود أمل " .

قال بيتر لورد بحدة :

" ما الذى قالته لك ؟ " .

" لقد أخبرتنى عن طفولتها ، وعن لعبها فى تلك الحديقة ، وكيف أنها ـ هى و رودريك ويلمان ـ كانا على جانبين مختلفين ، بل كانا عدوين ، حيث إن رودى كان يفضل الوردة البيضاء ـ رمز عائلة يورك ، والتى تمثل البرود والصرامة ، وكانت هى ـ كما أخبرتنى ـ تفضل الوردة الحمراء ، رمز عائلة لانكستر ، والتى تمتلئ

بالرائحة واللون والعاطفة والدفء ، وهذا ـ يا صديقى ـ هو الفرق بين إلينور كارليل و رودريك ويلمان " .

قال بيتر لورد :

" وهل يفسر هذا أى شىء ؟ " .

قال بوارو :

" إنه يفسر شخصية إلينور كارليل ، تلك الفتاة العاطفية المعتدة بذاتها ، والتى أحبت رجلا لم يكن قادراً على أن يبادلها الحب .... " .

قال بيتر لورد :

" لست أفهم ما تقول .... " .

قال بوارو :

" لكننى أفهمها جيدا .... بل أفهمهما كليهما . والآن يا صديقى ، سوف نعود إلى تلك الفتحة بين الشجيرات بالخارج " .

سارا إلى الخارج فى صمت ، وكان وجه بيتر لورد المليء بالنمش يعبر عن الانزعاج والغضب .

وعندما وصلا إلى ذلك الموضع ، وقف بوارو ساكنا لبعض الوقت ، وكان بيتر لورد يشاهده فى صمت .

وفجأة أطلق المحقق العجوز تنهيدة طويلة .

وقال :

" إن الأمر حقاً بسيط للغاية ، ألا ترى يا صديقى تلك الهفوة القاتلة فى افتراضك ؟ طبقا لنظريتك ، فإن شخصًا ما ـ رجل على وجه التحديد ـ كان قد قابل مارى جيرارد

فى ألمانيا ، قد حضر إلى هنا ناوياً قتلها ، لكن انظر يا صديقى . انظر ! استخدم عينى جسدك ، بما أنه لا يبدو أن عينى عقلك تفيدانك بشىء . ما الذى تراه من هنا : نافذة ، أليس كذلك ؟ ووراء تلك النافذة ـ فتاة . فتاة تعد الشطائر ، وأعنى إلينور كارليل . لكن فكر لدقيقة فيما سأقوله : *كيف عرف ذلك الرجل أن تلك الشطائر سوف تقدم إلى مارى جيرارد ؟ لم يكن هناك من يعلم ذلك سوى إلينور كارليل نفسها . لا أحد غيرها كان يعلم ذلك* ! ولا حتى مارى جيرارد ، أو الممرضة هوبكنز .

" إذن ماذا حدث بعد ذلك ـ إذا كان هناك رجل يقف هنا يراقب النافذة ، ثم تسلل بعد ذلك وقفز إلى الداخل عبر النافذة ، ودس السم داخل الشطائر ، فماذا كان يظن ويعتقد ؟ لقد اعتقد ، بل كان متأكداً *أن تلك الشطائر سوف تتناولها إلينور كارليل بنفسها* ... " .

الفصل ١٣

طرق بوارو باب كوخ الممرضة هوبكنز ، ففتحت له الباب وفمها ممتلئ بالكعك المحلى .

وقالت بحدة :

" حسنًا يا سيد بوارو ، ماذا تريد الآن ؟ " .

" هل يمكنني الدخول ؟ " .

تراجعت الممرضة هوبكنز إلى الوراء على مضض ، مفسحة له الطريق إلى داخل الكوخ . عبّرت الممرضة هوبكنز عن حسن استقبالها بأن أعدت إبريقاً من الشاى ، وبعد دقيقة ، كان بوارو ينظر إلى قدح الشاى الأسود نظرات حملت قليلاً من الفزع .

قالت الممرضة هوبكنز : " لقد أعددته للتو ـ وهو قوى ومنعش ! " .

حرك بوارو الملعقة داخل قدح الشاى بحذر ، ثم ارتشف منه جرعة كبيرة .

وقال :

" ألديك أى فكرة عن سبب مجيئى إلى هنا اليوم ؟ " .

" لا أستطيع أن أقول ذلك تأكيداً حتى تخبرنى أنت ، فأنا لا أمتلك القدرة على قراءة الأفكار " .

" لقد جئت أطلب منك أن تخبرينى بالحقيقة " .

نهضت المرضة هوبكنز فى ثورة غضب وقالت :

" وما هو معنى كلامك هذا ؟ لقد كنت دائمًا مثال المرأة الصادقة ، وما كذبت يوما لأنجى نفسى من أى موقف ، ولقد أخبرتهم فى التحقيق بأمر قنينة المورفين المفقودة ، رغم أن كثيرا من المرضات فى نفس موقفى هذا ، كن ليخفين الأمر ويلتزمن السكوت ، ولقد فعلت ذلك رغم إدراكى التام أننى قد أتعرض للانتقاد نظير إهمالى وتركى للمريض دون مرافق ؛ رغم أن ما حدث كان من الممكن أن يحدث مع أى ممرضة أخرى ، ولقد تعرضت للوم من أجل ما فعلت ـ وأستطيع أن أقول لك إن أمراً كهذا سوف يضر سمعتى كممرضة ، لكن حتى ذلك لم يجعلنى أتصرف بصورة مختلفة ! لقد كنت أعلم شيئًا له علاقة قوية بالقضية ، ولذلك صرحت بما أعرفه . ولسوف أكون ممتنة لك يا سيد بوارو لو احتفظت بتلميحاتك المشينة لنفسك ، فليس هناك شىء عن موت مارى جيرارد لم أتحدث فيه معك بصراحة ووضوح ، وإذا كنت تظن غير ذلك ، فإننى أستحثك على أن تظهر ما لديك من أدلة تؤيد ما تقوله ، فأنا لم أخف أى شىء .... أى شىء على

الإطلاق ، وأنا مستعدة أن أحلف القسم وأقف فوق منصة الشهود فى المحكمة لأعيد ما قلته لك بالحرف " .

لم يحاول بوارو مطلقا أن يقاطع الممرضة هوبكنز ، فقد كان يعلم جيدا الطريقة المثلى للتعامل مع امرأة غاضبة ، ولهذا فقد سمح للممرضة هوبكنز بأن تنفث الغضب الذى يعتمل بصدرها ، ثم تحدث بصوت خافت ونبرة هادئة ، قائلاً :

" أنا لم أقل إنك قد أخفيت عنى أى شىء يتعلق بالجريمة " .

" إذن أود أن أعرف عما تتحدث عنه إذن " .

" لقد طلبت منك أن تخبرينى بالحقيقة ـ ليس فيما يتعلق بموت مارى جيرارد ، ولكن فيما يتعلق بحياتها " .

بدا وكأن الممرضة هوبكنز قد ارتبكت للحظة ، ثم قالت : " إذن فهذا هو ما ترمى إليه ؟ لكن لا علاقة لهذا الأمر بجريمة القتل " .

" أنا لم أقل إن له علاقة بجريمة القتل ، وإنما قلت إنك تخفين معلومات تتعلق بمارى جيرارد " .

" ولماذا لا أفعل ذلك ـ ما دامت لا تمس القضية من قريب أو بعيد ؟ " .

هز بوارو كتفيه فى لامبالاة وقال :

" ولماذا يجب أن تخفيها ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز وقد احمر وجهها :

" لأن ذلك هو التصرف الأخلاقى اللائق ! لقد مات كل من يشملهم الأمر ، وصارت المسألة لا تخص أى شخص آخر على قيد الحياة " .

" إذا كان ما تعرفينه مجرد ظنون ، لكان ما تقولينه صحيح ، لكن لديك معرفة حقيقية بالأمر ، وهذا يختلف كثيرًا " .

قالت الممرضة هوبكنز ببطء :

" لست أفهم تحديداً ماذا تقصد .... " .

قال بوارو :

" دعينى أساعدك . لقد حصلت على بعض التلميحات من الممرضة أوبريان ، وكان لى حديث طويل مع السيدة سلاترى ، والتى لديها ذاكرة قوية للأحداث التى جرت منذ عشرين عامًا ، وسوف أخبرك تماماً بما علمته . حسنًا ، منذ ما يقرب من عشرين عاماً مضت كانت هناك قصة حب بين رجل وامرأة ، وكانت المرأة هى السيدة ويلمان ، التى كانت أرملة منذ عدة سنين وكانت تتمتع بقدرة كبيرة على الحب والعاطفة ، أما الرجل فكان السيد لويس ريكروفت ، والذى كان تعيس الحظ حيث حظى بزوجة مجنونة ومودعة داخل مصحة عقلية ، وفى تلك الأيام كان القانون لا يعطى الحق للرجل فى تطليق زوجته فى مثل هذه الحالات ، وكانت السيدة ريكروفت فى صحة جسدية ممتازة وقد تعيش حتى تبلغ التسعين من العمر . كانت هناك بعض الشائعات التى أحاطت بعلاقة

هذين الشخصين ، لكن كليهما كان كتوماً وحريصاً على المحافظة على مظهره الخارجى . ثم توفى السيد ريكروفت فى أثناء الحرب " .

قالت المرضة هوبكنز : " وماذا بعد ؟ " .

قال بوارو : " لقد خمنت أن السيدة ويلمان قد وضعت مولودة بعد وفاة السيد ريكروفت ، وأن هذا المولودة هى مارى جيرارد " .

قالت المرضة هوبكنز :

" يبدو أنك تعرف كل شىء عن الأمر " .

قال بوارو :

" هذا هو ما أعتقده ، لكن من المحتمل أن يكون لديك دليل قاطع على هذه المسألة " .

جلست المرضة هوبكنز فى صمت لدقيقة أو اثنتين ، وقد عبس وجهها تماماً ، ثم هبت واقفة بشكل مفاجئ ، وسارت إلى الناحية الأخرى من الغرفة ، وفتحت أحد الأدراج ، وأخرجت منه مظروفاً ، وقدمته إلى بوارو " .

وقالت :

" سوف أخبرك كيف وقع هذا المظروف فى يدى ، لكن ضع فى اعتبارك أنه كانت لدىّ شكوك منذ فترة . كانت الطريقة التى تنظر بها السيدة ويلمان إلى تلك الفتاة ، وكذلك أقوال النميمة التى سمعتها ، كافية لأن تثير الشكوك فى عقلى . وكذلك فقد أخبرنى العجوز جيرارد وهو فى شدة المرض أن مارى ليست ابنته " .

" حسناً ، بعد وفاة مارى ، انتهيت من إخلاء الكوخ من متعلقات والدها ، وفى أحد الأدراج التى تحتوى على بعض أغراضه ، عثرت على هذا الخطاب . انظر ما هو المكتوب فوقه " .

قرأ بوارو عنوان الرسالة والذى كتب بحبر باهت :

" من أجل مارى . يسلم إليها بعد وفاتى" .

قال بوارو :

" هذه الرسالة ليست حديثة ؟ " .

قالت الممرضة هوبكنز موضحة : " لم يكن جيرارد هو من كتب تلك الرسالة ، وإنما كتبتها والدة مارى التى توفيت منذ أربعة عشر عاماً مضت ، لقد أرادت لمارى أن تستلم تلك الرسالة ، لكن العجوز جيرارد احتفظ بها بين متعلقاته ، وهكذا لم ترها مارى مطلقاً - وأنا ممتنة أنها لم تفعل ، لقد عاشت حياتها إلى النهاية وهى مرفوعة الرأس ، ولم يكن لديها سبب يجعلها تشعر بالخزى والعار " .

صمتت للحظة ثم قالت :

" حسنًا ، لقد كانت الرسالة مغلقة ومختومة ، لكننى أعترف أننى عندما وجدتها ، قمت بفتح المظروف وقراءة الرسالة ، وحينها تمنيت لو أننى لم أفعل ذلك ، لكن مارى كانت قد توفيت ، وخمنت بطريقة أو بأخرى

محتوى تلك الرسالة ، ولم أر أن الأمر يمثل أهمية لأى شخص آخر ، على أى حال ، لم أرد حرق الرسالة ، لأنني شعرت أنه ليس من حقى أن أفعل ذلك . لكن من الأفضل أن تقرأها بنفسك " .

أخرج بوارو ورقة ، كُتِبَ فوقها بخط بارز صغير :

هذه هى الحقيقة ، وقد سجلتها هنا فى حال دعت الحاجة إليها ، لقد كنت وصيفة السيدة ويلمان ، سيدة منزل هانتربيرى ، وقد كانت شديدة الطيبة معى . لقد تعرضت لبعض المتاعب عندما حملت طفلا من علاقة مُحرمة كانت لى مع أحد الرجال ، فوقفت السيدة بجانبى وأعادتنى إلى العمل لديها عندما انتهت متاعبى ؛ لكن الجنين ولد ميتا . كانت سيدتى تحب السيد لويس ريكروفت كثيرا ، لكنهما لم يستطيعا الزواج ؛ لأن السير ريكروفت كان متزوجًا بالفعل وكانت زوجته مودعة بإحدى المصحات العقلية . لقد كان السيد ريكروفت رجلاً نبيلاً ذا أخلاقيات مميزة ، وكان مخلصاً فى حب السيدة ويلمان ، لكنه لقى مصرعه فى الحرب ، وأخبرتنى سيدتى بعد ذلك بوقت قصير أنها قد حملت منه وسوف تضع طفلاً ، وبعد ذلك رحلت إلى اسكتلندا وأخذتنى معها . ولقد ولدت الطفلة هناك . فى مستشفى أردلوشير . كان بوب جيرارد . الذى تركنى وحيدة ونفض يده منى عندما علم بنبأ حملى من رجل آخر . قد عاد ليكتب إلى مجددا . وقد تم الاتفاق على أن نتزوج ونعيش فى الكوخ ، وكان بوب جيرارد يعتقد أن تلك الطفلة التى ولدت هى ابنتى أنا . وإذا كنا سنعيش فى

الكوخ الذى تملكه السيدة ويلمان ، فإنه سيبدو من الطبيعى أن تهتم السيدة ويلمان بهذه الطفلة وتتولى أمر تعليمها وتثقيفها . وقد رأت السيدة ويلمان أنه من الأفضل ألا تعرف مارى الحقيقة أبداً ، ولقد أعطتنا السيدة ويلمان مبلغاً كبيراً من المال ؛ لكنى كنت لأساعدها دون مقابل . لقد عشت سعيدة مع بوب جيرارد ، لكنه لم يحب مارى مطلقًا ، ولقد حفظت لسانى ولم أخبر أحدًا من الناس يوماً بشىء عن هذا الأمر ، لكنى أعتقد أنه من الأفضل أن أكتب هذه الرسالة قبل أن أقابل ربى .

آليزا جيرارد (المولودة باسم آليزا رايلى)

التقط هيركيول بوارو نفسًا عميقًا وطوى الرسالة مرة أخرى .

قالت الممرضة هوبكنز بلهفة :

" ماذا تنوى أن تفعل بشأن هذه المسألة ؟ لقد ماتوا جميعاً ، وليس من المفيد تعكير الماء الراكد ، فلقد كان الجميع فى هذه الأنحاء يتطلعون إلى السيدة ويلمان بعين التقدير والإجلال ؛ ولم يمس سمعتها شيء طوال هذه السنين ، وإن تلويث سمعتها بسبب حادثة فى الماضى لهو شيء شديد القسوة ـ ونفس الحال بالنسبة إلى مارى ، لقد كانت فتاة لطيفة ، فلماذا يجب أن يعرف الناس أنها كانت ابنة غير شرعية ؟ دع الموتى يرتاحوا فى قبورهم ... هذا هو ما أوصيك به " .

قال بوارو :

" على المرء أن يضع اعتباراً للأحياء " .

قالت الممرضة هوبكنز :

" لكن هذه المسألة لا علاقة لها بجريمة القتل " .

قال هيركيول بوارو بجدية :

" ربما كان لها علاقة مباشرة " .

ثم سار إلى خارج الكوخ ، تاركا الممرضة هوبكنز تحدق النظر وراءه .

سار بوارو لبعض الوقت قبل أن يحس بوقع أقدام مترددة تسير وراءه ، فتوقف واستدار للخلف .

وجد أمامه هورليك ، البستاني الشاب الذى يتولى حدائق هانتربيرى ، وقد كان هورليك صورة مجسمة للإحراج ، وكان يدير قبعته فى يده مرة بعد مرة .

" عذرا سيدى ، هل لى بكلمة معك ؟ " .

كان هورليك يتحدث وهو لا يكاد يزدرد ريقه .

قال بوارو : " بالطبع . ماذا هناك ؟ " .

أخذ هورليك يدير القبعة بسرعة أكبر ، ثم قال ، وهو يشيح ببصره وملامحه تعبر عن الشقاء والحرج :

" إن الأمر يتعلق بالسيارة " .

" تلك السيارة التى كانت تقف أمام البوابة الخلفية فى ذلك الصباح ؟ " .

" نعم يا سيدى ، لقد قال الدكتور لورد إن تلك السيارة لم تكن سيارته ، لكنها كانت سيارته بالفعل " .

" وهل أنت موقن من ذلك ؟ " .

" نعم يا سيدى ، وذلك لأننى رأيت رقم لوحتها . لقد كانت تحمل رقم " إم . إس . إس ٢٠٢٢ " وكما ترى ، فنحن فى القرية نعرف هذه السيارة جيدا ، ودائما ما نطلق عليها اسم " ميس توتو " أنا واثق مما أقول يا سيدى " .

قال بوارو بابتسامة باهتة :

" لكن الدكتور لورد قال إنه كان فى مقاطعة ويزنبورى فى ذلك الصباح " .

قال هورليك بانزعاج :

" نعم يا سيدى ، لقد سمعته ، لكن أنا متأكد أنها كانت سيارته .... وسوف أقسم على ذلك " .

قال بوارو برقة :

" شكرًا لك يا هورليك ، وربما قد يتحتم عليك أن تقسم على ذلك بالفعل " .



الجزء ٣



الفصل ١

هل كان الجو شديد الحرارة داخل قاعة المحكمة ؟ أم كان شديد البرودة ؟ لم تكن إلينور كارليل متأكدة تماماً ، فأحيانًا كانت تشعر بالحر الشديد ، كما لو أنها تعانى من حمى قاسية ، وبعدها بلحظة يبدأ جسدها فى الارتجاف بشدة .

لم تكن قد سمعت نهاية مرافعة الادعاء ، لكن عقلها كان قد عاد إلى الماضى ـ عاد يتذكر الحكاية كلها منذ بدايتها ، منذ ذلك اليوم الذى جاءها فيه ذلك الخطاب المشئوم ، وحتى سمعت صوت ذلك الشرطى ذى الوجه الحليق وهو يقول بلهجة مرعبة :

" إلينور كاثرين كارليل . معى مذكرة بالقبض عليك بتهمة قتل مارى جيرارد عن طريق دس السم لها فى صباح السابع والعشرين من يوليو الماضى ، ولابد أن أحذرك من أن أى كلمة تنطقينها سوف تسجل وتستخدم كدليل ضدك فى محاكمتك " .

كان يتحدث بطلاقة بشعة ومخيفة .... وقد شعرت إلينور أنها عالقة فى ماكينة تدور بسرعة رهيبة ـ ماكينة وحشية تخلو من أى مشاعر إنسانية .

وها هى الآن ، تقف فى قفص الاتهام ، علانية وفى وضح النهار ، وتحيط بها مئات العيون الناظرة إليها ، تفتك بجسدها من شدة التحديق ....

إلا أن المحلفين هم الوحيدون الذين لم ينظروا إليها قط . ولشعورهم بالإحراج ، ظلوا يشيحون بأبصارهم دائماً بعيدا عنها .... مما جعلها تقول لنفسها :

" إنهم يفعلون ذلك لأنهم ـ قريبًا ـ سيعلمون ماذا سيقولون بحقى .... " .

٢

كان بيتر لورد يدلى بشهادته ، أكان ذلك هو بيتر لورد ـ ذلك الطبيب الشاب المرح ذو الوجه المنمش والذى كان لطيفاً جداً وودوداً للغاية فى منزل هانتربيرى ؟ إنه الآن متصلب للغاية ، ويتحدث بطريقة مهنية ، وجاءت إجاباته رتيبة : لقد تم استدعاؤه بالهاتف إلى منزل هانتربيرى ؛ ولم يكن هناك ما يمكنه عمله ؛ فقد توفيت مارى جيرارد بعد دقائق من وصوله ؛ وكان سبب الوفاة ـ

فى رأيه المهنى ـ هو التسمم بالمورفين فى أحد أشكاله غير المعتادة ـ أو ما يعرف باسم (عرض فودرويانت) .

وقف السيد إدوارد بالمر لاستجواب الشاهد .

" هل كنت الطبيب الملازم للسيدة ويلمان الراحلة ؟ " .

" نعم " .

" خلال زياراتك لمنزل هانتربيرى فى يونيو الماضى ، هل رأيت المتهمة بصحبة مارى جيرارد ؟ " .

" عدة مرات " .

" ماذا يمكنك أن تقول عن طريقة تعامل المتهمة مع مارى جيرارد ؟ " .

" كانت تعاملها بطريقة طبيعية وبلطف شديد " .

قال السيد بالمر بابتسامة ساخرة :

" ألم تر قط أى بوادر تنم عن تلك " الكراهية والغيرة " التى سمعنا الكثير عنهما ؟ " .

قال بيتر لورد بحزم :

" كلا " .

قالت إلينور فى نفسها :

" لكنه راى وشاهد . لقد راى بالفعل .... لقد كذب من أجلى .... لقد كان يعلم ..." .

تلا بيتر لورد فى الشهادة محقق الوفيات ، وكانت شهادته أطول وأكثر تفصيلاً ، وكان ملخص تقريره الطبى هو أن الوفاة قد حدثت نتيجة التسمم بالمورفين فى إحدى حالاته غير الشائعة والمعروفة باسم (عَرَض فودرويانت)

وعندما طلب منه نائب الادعاء أن يوضح للمحكمة معنى هذا المصطلح ، قام بذلك وقد بدت عليه آثار الاستمتاع قال محقق الوفيات إن الموت بتسمم المورفين قد يحدث بعدة أشكال مختلفة ، والحالة الأكثر شيوعًا هى أن المريض يمر بحالة من الانفعال الشديد لفترة قصيرة ، ثم يتبعها شعور بالنعاس والخدر ، ويتبعه انكماش لبؤبؤ العين . وهناك شكل آخر غير معتاد ، وقد أطلق عليه الأطباء الفرنسيون اسم (فودرويانت) وفى هذه الحالات يكون هناك نوم عميق لفترة قصيرة من الوقت - حوالى عشر دقائق ، وعادة ما يتمدد بؤبؤ العين ....

٣

أعقب ذلك فترة استراحة ثم انعقدت المحكمة مجدداً ، وقد انقضت عدة ساعات فى الاستماع إلى الشهادات الطبية للخبراء .

أدلى الدكتور آلان جارسيا - المحلل الطبى المعروف - بشهادته التى امتلأت بالمصطلحات الطبية ، وكان يتحدث بدقة شديدة عن محتويات معدة القتيلة : كانت المعدة تحوى خبزاً ، عجينة السمك ، شاياً ، ومقدارًا من المورفين .... ثم تبع ذلك مزيد من المصطلحات الطبية والنسب المئوية . وكانت الكمية التى تناولتها القتيلة قد

قدرت بنحو أربع حبات ، والجرعة الكافية لقتل شخص قد لا تتعدى الحبة الواحدة .

وقف السيد بالمر ، وتحدث بلطف شديد لكى يستوجبه .

قال : " أحب أن أستوضح أمراً ما . أنت لم تجد بالمعدة سوى الخبز ، والزبد ، وعجينة السمك ، والشاى ، والمورفين . أليس هناك أية أطعمة أخرى ؟ " .

" كلا " .

" ومعنى كلامك هو أن القتيلة لم تتناول سوى شطائر السمك والشاى لفترة طويلة ، أليس كذلك ؟ " .

" هذا صحيح " .

" وهل هناك دليل يُظهر فى أى مُركّب غذائى تحديداً تم دس المورفين ؟ " .

" لست أفهم ما تقصده " .

" سوف أُبسّط لك السؤال . كان من الممكن أن يتم دس السم فى عجينة السمك ، أو فى الخبز ، أو فى الزبد الذى وضُع فوق الخبز ، أو الشاى ، أو فى اللبن الذى أُضيف إلى الشاى ، أليس كذلك ؟ " .

" بالتأكيد " .

" ولا يوجد أى دليل مادى يؤكد أن المورفين قد وضع فى عجينة السمك على وجه الخصوص ، أليس كذلك ؟ " .

" كلا ، لا يوجد " .

" وربما يكون المورفين قد تم تناوله بشكل مستقل - أقصد أنه لم يوضع فى أى مركب غذائى على الإطلاق ؟ فربما تكون الفقيدة قد تناولته على هيئة أقراص قامت بابتلاعها ؟ " .

" هذا احتمال وارد بالتأكيد " .

جلس السيد بالمر بعد انتهى من استجواب الشاهد .

وأعاد السيد صامويل ممثل الادعاء استجواب الشاهد قائلاً :

" ومع ذلك فإنك مقتنع أن المورفين - أيا كانت الوسيلة التى أعطى بها - قد تم تناوله فى نفس الوقت مع بقية الأطعمة والمشروبات ؟ " .

" نعم " .

" شكراً لك " .

٤

أدى المفتش بريل القسم بصورة ميكانيكية ، وقد وقف فوق منصة الشهود ، وقفته العسكرية الثابتة ، وأخذت الأدلة تنساب من بين شفتيه بسهولة مطلقة .

قال المفتش : " لقد اُستدعيت إلى المنزل .... وقالت المتهمة : " لابد أنها كانت عجينة سمك فاسدة " .... ثم قمت بتفتيش المكان .... كانت هناك علبة عجينة سمك

فارغة فوق نضد التجفيف بحجرة المؤن ، وأخرى نصف ممتلئة .... ثم قمت باستكمال التفتيش بالمطبخ ..." .

" وما الذى عثرت عليه ؟ " .

" فى أحد الشقوق التى تفصل ألواح الأرضية خلف الطاولة ، عثرت على قصاصة صغيرة من الورق " .

بعدها تم تمرير الدليل على هيئة المحلفين .

إيه . أى . سى . أقراص
هيدروكلوريد المورفين
نصف جرام

" وما الذى فهمته من هذه القصاصة ؟ " .

" جزء مقطوع من لصاقة ـ مثل تلك اللصاقات التى تلصق على العلب التى تحتوى على أقراص المورفين " .

نهض محامى الدفاع بهدوء .

وقال :

" هل وجدت تلك القصاصة فى أحد الشقوق الموجودة بأرضية المطبخ ؟ " .

" نعم " .

" وهى جزء من لصاقة دواء ؟ " .

" نعم " .

" هل عثرت على بقية اللصاقة ؟ " .

" كلا " .

" ألم تعثر على أى قنينة أو زجاجة دواء كانت هذه الرقعة ملصقة به ؟ " .

" كلا " .

" كيف كانت حالة قصاصة الورق عندما وجدتها ؟ أكانت نظيفة أم قذرة ؟ "

" لقد كانت جديدة للغاية " .

" ماذا تعنى بـ " جديدة للغاية " ؟ " .

" لقد كانت هناك بعض ذرات التراب فوقها ، لكنها كانت نظيفة للغاية " .

" أليس من المحتمل أن تكون بداخل الشق منذ مدة طويلة ؟ " .

" كلا ، لقد انحشرت داخل الشق فى وقت قريب " .

" إذن فأنت تعتقد أنها قد انحشرت داخل الشق فى نفس اليوم الذى وجدتها فيه ؟ " .

" نعم " .

جلس السيد إدوين بالمر وهو يطلق زفيراً مزعجاً .

٥

وقفت الممرضة هوبكنز فوق منصة الشهود ، وقد احمر وجهها وعبرت ملامحها عن ثقة كبيرة بالنفس .

على أى حـال ، لم تعتقـد إلينـور أن المرضـة هـوبكنز مخيفة مثل المفـتش بريـل ، فلقـد كانـت وحـشية المفـتش بريل هى مـا تخيـف إلينـور لدرجـة تجعلـها عـاجزة عـن التفكير ، ولقد بدا واضحا أن المفتش بريل يتصرف كما لـو كان جزءًا من ماكينة عظيمة ، أما المرضة هوبكنز فكانـت تمتلك عواطف بشرية .

" هل اسمك هو جيسى هوبكنز ؟ " .

" نعم " .

" هل أنت ممرضة المقاطعة المعتمدة ومحـل إقامتـك هـو كوخ روس ، التابع لضيعة هانتربيرى ؟ "

" نعم " .

" أين كنت فى الثامن والعشرين من يونيو الماضى ؟ " .

" كنت فى منزل هانتربيرى " .

" هل تم استدعاؤك ؟ " .

" نعم . فقد تعرضت الـسيدة ويلمـان لـسكتة دماغيـة .. لثانى مرة ، وقد ذهبت لمساعدة المرضة أوبريان حتى يتم العثور على ممرضة أخرى " .

" هل أخذت معك حقيبة أدوية صغيرة ؟ " .

" نعم " .

" أخبرى هيئة المحلفين بمحتويات الحقيبة " .

" ضمادات ، قطع شاش ، حقن تحت الجلد و بعض الأدوية ، بما فيها قنينة تحتوى على أقراص هيدروكلوريد المورفين " .

" لأى غرض كانت تلك القنينة ؟ " .

" إحدى الحالات المرضية بالقرية كانت تحتاج لقرص مورفين صباحاً ومساء " .

" وما هى محتويات قنينة المورفين ؟ " .

" كانت تحتوى على عشرين قرصاً ، كل منها يقدر بنصف جرام من هيدروكلوريد المورفين " .

" وماذا فعلت بحقيبة الأدوية ؟ " .

" وضعتها فى الردهة " .

" كان هذا فى عشية يوم الثامن والعشرين من يونيو متى واتتك الفرصة لتفقد الحقيبة مجددا ؟ " .

" فى حوالى التاسعة من صباح اليوم التالى ، عندما كنت أتأهب لمغادرة المنزل " .

" أكان هناك شيء مفقود ؟ " .

" كانت قنينة المورفين مفقودة " .

" هل أخبرت أحدًا بفقد تلك القنينة ؟ " .

" لقد تحدثت إلى المرضة أوبريان ، وهى المرضة المسئولة عن متابعة المريضة " .

" كانت حقيبة أدويتك موضوعة فى الردهة ، حيث يمر عليها كل الموجودين بالمنزل ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم " .

توقف السيد صامويل للحظة ، ثم تابع يقول:

" هل كنت تعرفين الفتاة الميتة ، مارى جيرارد ، معرفة وثيقة ؟ " .

" نعم " .

" وما هو رأيك فيها ؟ " .

" لقد كانت فتاة لطيفة للغاية ـ ومطيعة أيضا " .

" أكانت فتاة سعيدة ومبتهجة ؟ " .

" كانت سعيدة للغاية " .

" أكانت تعانى من أية متاعب ـ على قدر علمك ؟ " .

" كلا " .

" فى وقت وفاتها ، أكان هناك ما يقلقها أو يجعلها غير سعيدة حيال المستقبل ؟ " .

" كلا ، مطلقا " .

" أكان لديها أى سبب يدفعها للانتحار ؟ " .

" كلا ، على الإطلاق " .

واستمرت القصة المشئومة تُتلى مرة بعد مرة . كيف رافقت الممرضة هوبكنز مارى جيرارد إلى الكوخ ، ظهور إلينور كارليل ، أسلوبها الانفعالى الغريب ، الدعوة إلى تناول الشطائر ، الطبق الذى قُدِّم أولا إلى مارى ، إصرار إلينور على غسل كل الأطباق ، وإلحاحها على الممرضة هوبكنز كى تصعد معها إلى الطابق العلوى لترتيب ملابس السيدة ويلمان .

كانت هناك مقاطعات واعتراضات متكررة من السيد بالمر محامى الدفاع .

قالت إلينور لنفسها :

" نعم ، إن كل ما تقوله حقيقى ـ وهى تصدق كل كلمة فيه . إنها واثقة أننى قد قتلت مارى ، وكل كلمة تخرج من فمها هى الحقيقة ـ هذا هو ما يجعل الأمر بشعاً . إن كل ما تقوله هو الحقيقة " .

ومرة أخرى ، وبينما كانت تنظر فى أرجاء المحكمة ، رأت وجه هيركيول بوارو وهو يراقبها بتأمل ـ بل يكاد ينظر إليها بتعاطف . *فهو يراها بعين عقله التى تعرف الكثير عن تلك المسألة* ....

ثم قُدّمت للممرضة هوبكنز قطعة من الكرتون ، ووضعت فوقها قصاصة الورق المنزوعة من لصاقة الدواء .

" هل تعرفين ما هذه ؟ " .

" إنها جزء من لصاقة توضع فوق الأدوية " .

" هل يمكنك أن تخبرى هيئة المحلفين أى نوع من الدواء تمثله تلك اللصاقة ؟ " .

" نعم ـ إنها جزء من لصاقة قنينة هيدروكلوريد المورفين ، تحتوى على أقراص مورفين نصف جرام ـ تماماً مثل القنينة التى فقدتها " .

" هل أنت واثقة من ذلك ؟ " .

" بالطبع أنا كذلك . لقد قُطعَت تلك القصاصة من قنينة المورفين التى فقدتها " .

قال القاضى :

" أهنـاك أى علامـة مميـزة تجعلـك واثقـة أن تلـك القـصاصة قـد انتزعـت مـن لـصاقة قنينـة المـورفين التـى فقدتها تحديداً ؟ " .

" كلا يا سيدى ، لكن لابد أنها اقتطعت من نفس نوع القنينة " .

" فى الواقع ، إن كل ما تستطيعين أن تـشهدى عليـه هو أنها تماثلها تماماً ، أليس كذلك ؟ " .

" حسنا ، نعم ـ هذا هو ما كنت أعنيه " .

ثم أرجئت المحكمة لمرة ثانية .



الفصل ٢

انعقدت المحكمة في يوم آخر .

كان السيد بالمر واقفاً على قدميه يستجوب الشهود ، وقد تخلى عنه هدوؤه المعتاد وابتسامته الساخرة ، وكان يتحدث بحدة قائلاً :

" حقيبة الأدوية التى سمعنا الكثير بشأنها ، أكانت ملقاة فى الردهة الأمامية لمنزل هانتربيرى طوال ليلة الثامن والعشرين من يونيو الماضى ؟ " .

ردت الممرضة هوبكنز :

" نعم " .

" ألا تظنين أن هذا التصرف يعد نوعاً من الإهمال ؟ " .

احمر وجه الممرضة هوبكنز وقالت :

" نعم ، أظن أنه كان كذلك " .

" أهى عادة عندك أن تتركى الأدوية الخطيرة ملقاة هكذا بحيث يستطيع أى شخص الوصول إليها ؟ " .

" بالطبع لا " .

" أوه ، فأنت لا تفعلين ذلك عـادة ؟ لكنـك قـد فعلتـه فى تلك المناسبة ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم " .

" أولم يكن بإمكان أى شخص فى المنـزل سـرقة قنينـة المورفين إذا أراد ذلك ؟ " .

" نعم ، أفترض ذلك " .

" ليس هناك مجال للافتراضات ، أكان بإمكانهم ذلـك أم لا ؟ " .

" حسنًا .... نعم " .

" إذن فلـم تكـن الآنـسة إلينـور وحـدها هـى مـن كـان باستطاعته سرقة تلك القنينـة ؟ أى فـرد مـن الخـدم كـان يـستطيع ذلـك ، أو الـدكتور لـورد ، أو الـسيد رودريـك ويلمان ، أو الممرضة أوبريان ، أو مارى جيرارد نفسها " .

" نعم ـ أعتقد ذلك " .

" الأمر كذلك ، صحيح ؟ " .

" نعم " .

" أكان هناك مـن يعلـم أن بحوزتـك مـورفين فـى تلـك الحقيبة ؟ " .

" لا أدرى " .

" حسناً ، هل تحدثت إلى أى شخص بشأنه ؟ " .

" كلا " .

" إذن فلم يكن بمقدور الآنسة إلينور أن تعرف أن تلـك الحقيبة تحتوى على مورفين ؟ " .

" ربما ألقت نظرة على محتويات الحقيبة " .

" هذا احتمال غير مرجح ، أليس كذلك ؟ " .

" لا أدرى ، أنا لست متأكدة " .

" كان هناك أشخاص آخرون من المرجح أنهم يعلمون بوجود المورفين داخل الحقيبة أكثر من الآنسة إلينور . الدكتور لورد ، على سبيل المثال . كان بإمكانه أن يعرف ذلك ، فلقد كنت تعطين هذا المورفين للمريضة بناء على تشخيصه وأوامره ، أليس كذلك ؟ " .

" بالطبع " .

" كانت مارى جيرارد أيضا تعلم بوجود المورفين داخل الحقيبة ، أليس كذلك ؟ " .

" كلا ، لم تكن تعلم " .

" لقد كانت كثيرة التواجد داخل كوخك ، أليس كذلك ؟ " .

" ليس بالقدر الذى تظنه " .

" أنا ألمح إلى أنها كانت كثيرة التواجد فى كوخك ، وأنها ـ من بين جميع الأشخاص بالمنزل ـ كانت الأكثر قدرة على تخمين وجود مورفين فى حقيبتك " .

" أنا لا أتفق معك فى هذا " .

سكت السيد بالمر لدقيقة ، ثم قال :

" لقد أخبرتِ الممرضة أوبريان فى صباح اليوم التالى أن قنينة المورفين مفقودة ؟ " .

" نعم " .

" دعينى أذكرك أن ما قلته لها هو : " لقد نسيت قنينة المورفين بالكوخ ، وسوف أضطر للعودة إلى هناك كى أحضرها " .

" كلا ، لم أقل هذا " .

" ألم تصرحى بأنك قد نسيت قنينة المورفين فوق رف المستوقد بكوخك ؟ " .

" حسنًا ، عندما لم أعثر على القنينة داخل الحقيبة ، ظننت أن هذا هو ما حدث " .

" فى الواقع ، أنت لم تعرفى على وجه اليقين ماذا فعلت بتلك القنينة " .

" كلا ، كنت أعرف ، لقد وضعتها فى حقيبتى " .

" إذن لماذا صرحت فى صباح التاسع والعشرين من يونيو أنك نسيت قنينة المورفين بالكوخ ؟ " .

" لأننى ظننت أن هذا هو ما حدث " .

" دعينى أقل لك إنك امرأة مهملة للغاية " .

" هذا غير صحيح " .

" إنك تقولين أشياء غير دقيقة فى بعض الأحيان ، أليس كذلك ؟ " .

" كلا ، لا أفعل ، أنا حريصة جداً فيما أقوله " .

" هل تحدثت إلى أحدهم بشأن شوكة غرست فى يدك من شجرة مزهرة فى صباح السابع والعشرين من يوليو - اليوم الذى توفيت فيه مارى جيرارد ؟ " .

" أنا لا أفهم ما علاقة هذا بما نتحدث فيه " .

قال القاضى :

" ألهذا علاقة بالقضية يا سيد بالمر ؟ " .

" نعم سيدى القاضى ، إنه جزء أساسى من الدفاع ، وأنا أنوى استدعاء شاهد ليؤكد أن تلك المقولة مجرد كذب محض " .

ثم استكمل السيد بالمر كلامه :

" هل ما زلت تصرين على أن شوكة قد غرست فى معصمك من إحدى الأشجار فى السابع والعشرين من يوليو الماضى ؟ " .

" نعم ، هذا ما حدث " .

بدت الممرضة هوبكنز مصممة للغاية .

قال السيد بالمر : " ومتى حدث ذلك ؟ " .

" قبل أن أغادر الكوخ وانطلق إلى منزل هانتربيرى فى صباح السابع والعشرين من يوليو " .

قال السيد بالمر بتشكك :

" وأى نوع من الأشجار كانت ؟ " .

" شجرة لبلاب مزروعة خارج الكوخ ، ولها أزهار قرنفلية اللون " .

" هل أنت واثقة من ذلك ؟ " .

" أنا واثقة تمام الثقة " .

سكت السيد بالمر للحظة ثم سأل :

" أنت تصرين على أن قنينة المورفين كانت فى حقيبة أدويتك عندما حضرت إلى منزل هانتربيرى يوم الثامن والعشرين ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، لقد أحضرتها معى " .

" لنفترض أن الممرضة أوبريان سوف تقف لاحقاً فوق منصة الشهود وتقسم أنك قد قلت لها إنك نسيت القنينة بالكوخ ، فماذا ستقولين عندها ؟ " .

" لقد كانت فى حقيبتى ، أنا واثقة من ذلك " .

تنهد السيد بالمر وقال :

" ألم تشعرى مطلقاً بعدم الراحة بسبب غياب قنينة المورفين ؟ " .

" بعدم الراحة - كلا " .

" إذن فقد كنت تشعرين براحة ، على الرغم من اختفاء كمية كبيرة من دواء خطير ؟ " .

" لم أظن حينها أن أحدهم قد أخذها " .

" فهمت . أنت فقط لم تستطيعى حينها تذكر ماذا فعلت بقنينة المورفين تلك ، أليس كذلك ؟ " .

" كلا على الإطلاق . لقد كانت فى حقيبتى " .

" عشرون قرصًا من المورفين ، مقدار كل قرص نصف جرام - وهذا يعنى أن تلك القنينة تحتوى على عشرة جرامات من المورفين ، وهى كمية تكفى لقتل عدد كبير من الناس ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم " .

" لكنك لم تشعرى بالانزعاج ـ بل إنك حتى لم تبلغى السلطات عن فقدان تلك القنينة ؟ " .

" ظننت أن الأمور على ما يرام " .

" دعينى أخبرك بما أعتقده ، لو أن المورفين فُقِد بالطريقة التى ذكرتها ، لأصبحت ملزمة ـ كشخص مسئول يتمتع بأخلاقيات مهنته ـ أن تبلغى الأمر إلى السلطات المختصة " .

قالت الممرضة ـ وقد ازداد احمرار وجهها :

" حسنا ، أنا لم أفعل ذلك " .

" إن ذلك بالتأكيد نوع من الإهمال الجسيم من جانبك ، ألا تتفقين معى ؟ ويبدو أنك لا تهتمين كثيرا بمسئوليات وظيفتك . هل تعودت على فقدان تلك الأدوية الخطيرة ؟ " .

" لم يحدث هذا من قبل " .

واستمر ذلك المشهد لبضع دقائق ، وقد ظلت الممرضة هوبكنز ـ التى زاد ارتباكها واحمرار وجهها ـ تناقض نفسها .... حتى صارت فريسة سهلة أمام مهارة السيد بالمر .

قال السيد بالمر : " أليس حقيقياً أنه فى يوم الخميس ، السادس من يوليو ، كتبت الفتاة الميتة ، مارى جيرارد ، وصيتها ؟ " .

" نعم ، لقد فعلت ذلك " .

" ولماذا فعلت شيئًا كهذا ؟ " .

" لأنها ظنت أن ذلك هو التصرف المناسب ، وقد كـان ذلك بالفعل " .

" هل أنت واثقة أنها لم تفعل ذلك لشعورها بالاكتئاب وعدم الاطمئنان إلى المستقبل ؟ " .

" هذا هراء محض ".

" لكن تصرفها هذا يظهر أن فكرة الموت كانت حاضرة فى مخيلتها ـ وأنها كانت تفكر فى الموضوع كثيراً " .

" على الإطلاق . لقد ظنت فقط أن ذلـك هـو التـصرف اللائق والمناسب " .

" هل هذه هى الوصية ؟ مذيلة بتوقيع مارى جيرارد ، والتى شهد عليهـا كـل مـن إميلـى بيجـز و روجـر وايـد ـ مساعدى الحلوانى ـ والتى تركت فيها مارى كل مـا تملـك فــى وقــت وفاتهــا إلى مــارى رايلــى ـ شــقيقة إليزابيــث رايلى ؟ " .

" هذا صحيح " .

سلِّم الحاجب الوصية إلى هيئة المحلفين .

قال الـسيد بـالمر : " طبقـا لمعلوماتـك ، أكانـت مـارى تمتلك ـ فى ذلك الوقت ـ أية ممتلكـات يمكـن تركهـا فـى وصيتها ؟ " .

" كلا ، لم تكن تمتلك شيئاً بعد " .

" لكنهــا كانــت ســتحظى بــبعض المــال فــى وقــت قريب ؟ " .

" نعم " .

" أليس صحيحًا أن هناك مبلغاً كبيراً من المال ـ ألفين من الجنيهات تحديداً ـ كانت ستحصل عليها مارى عطية من الآنسة إلينور كارليل ؟ " .

" نعم " .

" أليس صحيحاً أنه لم يكن هناك أى إلزام على الآنسة إلينور لتفعل ذلك ؟ وأنها قد فعلت ذلك بدافع من كرمها الشخصى فقط ؟ " .

" نعم ، لقد فعلت ذلك بمحض إرادتها " .

" لكنها ، إذا كانت تكره مارى ، ما كانت لتعطيها مبلغا كهذا عن طيب خاطر " .

" ربما يكون هذا صحيحاً " .

" ما الذى تقصدينه بإجابتك هذه ؟ " .

" أنا لا أقصد أى شيء " .

" تماماً ، والآن ، هل سمعت أى شائعات تدور فى القرية حول وجود علاقة بين مارى جيرارد والسيد رودريك ويلمان ؟ " .

" لقد كان مغرماً بها " .

" ألديك أى دليل يثبت ذلك ؟ " .

" لقد كنت أعرف ذلك فقط " .

" آوه ـ لقد " كنت تعرفين ذلك " . أخشى أن هذا ليس مقنعاً بالنسبة للمحلفين ، ألم يحدث أنك قلت ـ فى مناسبة ما ـ أن مارى لن تربطها به أى علاقة لأنه كان

مرتبطاً بالآنسة إلينور ، وأن مارى قد قالت له نفس الكلمات فى لندن ؟ " .

" هذا ما قالته لى " .

عاد السيد صامويل آتنبورى ، ممثل الادعاء ، لاستجواب الشاهدة :

" عندما كانت مارى جيرارد تناقش معك صيغة وصيتها ، هل نظرت المتهمة إليكما من خلال نافذة الكوخ الصيفى ؟ " .

" نعم ، لقد فعلت ذلك " .

" وما الذى قالته ؟ "

" قالت : " إذن فأنت تكتبين وصيتك يا مارى . يا له من أمر غريب " ثم ضحكت ، واستمرت فى الضحك " .

ثم أردفت المرضة هوبكنز بشراسة : " وفى رأيى الشخصى أن الفكرة قد واتتها فى تلك اللحظة ـ فكرة قتل مارى جيرارد ! لقد كان القتل هو الفكرة المسيطرة على عقلها وقلبها فى تلك اللحظة " .

قال القاضى بحدة :

" عليك أن تلتزمى بالإجابة عن الأسئلة التى توجه إليك فقط . يتم شطب الجزء الأخير من إجابتها .... " .

أخذت إلينور تفكر :

" كم هو غريب .... عندما يتحدث أحدهم بالحقيقة ، يقومون بشطب ما قاله .... " .

وراودتها الرغبة فى أن تضحك بشكل هستيرى .

٢

كانت الممرضة أوبريان هى التالية على منصة الشهود .

" فى صباح يوم التاسع والعشرين من يونيو ، هل أخبرتك الممرضة هوبكنز بشىء ؟ " .

" نعم ، لقد أخبرتنى أن هناك قنينة هيدروكلوريد المورفين مفقودة من حقيبتها " .

" وماذا فعلت أنت ؟ " .

" لقد ساعدتها فى البحث عنها " .

" لكنكما لم تستطيعا العثور عليها ؟ " .

" كلا ، لم نجد لها أثرًا " .

" حسب معلوماتك ، هل كانت حقيبة الأدوية متروكة فى الردهة طيلة الليل ؟ " .

" نعم ، كانت كذلك " .

" لقد كان السيد رودريك ويلمان والمتهمة يقيمان فى المنزل فى وقت وفاة السيدة ويلمان ـ أى خلال يومى ٢٨ و ٢٩ يونيو ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم " .

" هلا أخبرت المحكمة بحادثة وقعت فى التاسع والعشرين من يونيو ـ فى اليوم التالى على وفاة السيدة ويلمان ؟ " .

" لقد رأيت السيد رودريك ويلمان بصحبة مارى جيرارد وكان يخبرها أنه يحبها ، ثم حاول تقبيلها " .

" وكان فى ذلك الوقت مرتبطاً بالمتهمة ؟ " .

" نعم " .

" ماذا حدث بعد ذلك ؟ " .

" لقد قالت له مارى إن تصرفه مخز للغاية ، وأن عليه أن يفكر فى ارتباطه بالآنسة إلينور " .

" فى رأيك الشخصى ، كيف كانت مشاعر المتهمة تجاه مارى جيرارد ؟ " .

" لقد كانت تكرهها . كانت تنظر إليها وكأنها تريد أن تفتك بها " .

هبَّ السيد بالمر من فوق مقعده .

وقالت إلينور لنفسها : " لماذا يتجادلون حيال هذا الأمر ؟ وأى فارق يصنعه ذلك الآن ؟ " .

بدأ السيد بالمر فى استجواب الشاهدة .

" أليس حقيقيًا أن الممرضة هوبكنز قالت إنها تعتقد أنها قد تركت قنينة المورفين بالكوخ ؟ " .

" حسنا ، أترى ، لقد جرى الأمر على هذا النحو : بعد .... " .

" من فضلك أجيبى عن السؤال . هل قالت إنها تعتقد أنها قد تركت المورفين بالكوخ ؟ " .

" نعم " .

" ولم تكن الممرضة هوبكنز تشعر بالقلق حيال الأمر فـى هذا الوقت ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم ، لم تشعر وقتها بالقلق " .

" لأنها كانت تعتقد أنها تركـت القنينـة فـى الكـوخ ، ولهذا لم تكن تشعر بالانزعاج " .

" لم تتخيل أن أحدهم قد يأخذ قنينة المورفين " .

" تماما . إن ذاكرتها لم تعد إلى العمل بكفاءة ، إلا بعد وفاة مارى جيرارد بتسمم المورفين " .

قاطعه القاضى قائلاً :

" أظن يا سيد بالمر أنك قد غطيت هذه النقطـة بالفعـل فى استجوابك للشاهدة السابقة " .

" كما تشاء سيدى القاضى " .

ثم قال السيد بالمر مخاطبًا الممرضة أوبريان : " والآن ، فيما يتعلق بسلوك المتهمة تجـاه مـارى جـيرارد ، أحـدث بينهما أى شجار فى وقت ما ؟ " .

" كلا ، لم يحدث " .

" ألم تكن الآنسة إلينور لطيفة دوماً مع تلك الفتاة ؟ " .

" نعم ، لكن نظرتها للفتاة كانت تثير الريبة " .

" نعم ، نعم . لكننا لا نستطيع الحكم علـى مثـل تلـك الأمور . أنت أيرلندية ، أليس كذلك ؟ " .

" نعم " .

" ومن المعروف أن الأيرلنديين لديهم مخيلـة واسـعة ، أليس كذلك ؟ " .

صاحت الممرضة أوبريان بانفعال :
" كل كلمة قلتها هى الحقيقة " .

٣

وقف السيد آبوت ، البقال ، فوق منصة الشهود ، وقد بدا مرتبكاً ، غير واثق بنفسه (وإن كانت الإثارة قد بدت عليه قليلاً ، لشعوره بأهمية دوره فى القضية) . كانت شهادته قصيرة ، مجرد تذكير بحقيقة أن المتهمة قد اشترت علبتين من عجينة السمك ، وأنها قالت : " هناك الكثير من حالات التسمم الغذائى التى تحدث بسبب عجينة السمك " وأنها كانت تبدو منفعلة وتتصرف بغرابة .

ولم يتم استجواب الشاهد من قبل الادعاء أو الدفاع .

الفصل ٣

المرافعة الاستهلالية للدفاع :

" السادة المحلفون ، أود أن أبين لحضراتكم أنه لا توجد قضية ضد موكلتي من الأساس ، فمن المعروف أن عبء إيجاد الدليل يقع على عاتق هيئة الادعاء ، ولكنهم حتى الآن - وهذا هو رأيي ، وليس لدى شك أنه رأيكم كذلك - لم يثبتوا أى شيء على الإطلاق ! إن الادعاء يدعي أن إلينور كارليل ، بعد أن استولت على المورفين (الذى كان لكل من فى المنزل فرص متساوية فى الوصول إليه ، والذى يدور شك كبير حول وجوده بالمنزل من الأساس) قد قامت باستخدامه فى تسميم مارى جيرارد . وهنا قد اعتمد الادعاء بالكامل على توافر الفرصة ، وقد سعى الادعاء إلى إثبات وجود الدافع للجريمة ، لكنني أؤكد لحضراتكم أنهم لم ينجحوا فى فعل ذلك ؛ لأنه لا يوجد دافع على الإطلاق ! لقد تحدث الادعاء عن خطبة فسخت ، وأنا أتساءل - لو أن فسخ الخطب يؤدى إلى

جرائم قتل ، فلماذا لم نشهد جرائم قتل كل يوم ؟ وأود أن أشير إلى أن هذه الخطبة لم تحدث نتيجة قصة حب ملتهبة ، ولكنها تمت لأسباب عائلية محضة ، لقد تربت الآنسة إلينور والسيد رودريك معًا ؛ ولقد كان أحدهما مقرباً من الآخر دائماً ، وقد نمت علاقتهما وتطورت ، حتى ارتبطا ؛ لكنى أنوى أن اثبت أمامكم أن ارتباطهما ـ فى أحسن وصف له ـ لن يتعدى كونه مجرد ارتباط ودى " .

أخذت إلينور تناجى رودى فى عقلها قائلاً :

(آه يا رودى ، أهذا ما كان بيننا ـ مجرد ارتباط ودى ؟)

أكمل السيد بالمر مرافعته قائلاً:

" علاوة على ذلك ، فإن تلك الخطبة لم ينهها السيد رودريك ويلمان ـ وإنما أنهتها المتهمة الماثلة أمامكم ، وأود أن أوضح لكم أن الخطبة التى تمت بين إلينور كارليل ورودريك ويلمان تمت فقط من أجل إسعاد السيدة ويلمان ، وعندما توفيت السيدة ويلمان ، أدرك الطرفان أن مشاعر كل منهما تجاه الآخر ليست بالقوة التى تجعلهما يقدمان على إتمام روابط الزواج المقدس ، ولكنهما ـ رغم ذلك ـ قد بقيا صديقين مخلصين . علاوة على ذلك ، فإن إلينور كارليل ، التى آلت إليها ثروة عمتها ، وبدافع من طيبة قلبها ، كانت تخطط لتخصيص

مبلغ كبير من المال لمصلحة مارى جيرارد ، الفتاة التى يتهمونها الآن بقتلها ! كم هى تهمة مضحكة للغاية .

" والشيء الوحيد الذى يمتلكه الادعاء ضد إلينور كارليل هو مجرد الظروف التى أحاطت بعملية دس السم .

حيث قال الادعاء مسبقًا ، وقبل الحصول على أى دليل :

" لم يكن بإمكان أى شخص قتل مارى جيرارد سوى إلينور كارليل ، ولهذا كان عليهم أن ينطلقوا بحثًا عن دافع ، لكن - وكما قلت لكم من قبل - لم يستطيعوا إيجاد ذلك الدافع ؛ لأنه ببساطة لا يوجد دافع من الأساس

" والآن ، هل صحيح أنه لم يكن باستطاعة أى شخص قتل مارى جيرارد سوى إلينور كارليل ؟ كلا ، هذا غير صحيح . فهناك احتمال لكون مارى جيرارد قد انتحرت ، وهناك احتمال أن شخصاً آخر قد دس السم داخل الشطائر أثناء توجه إلينور إلى الكوخ الصيفى ، وهناك احتمال ثالث . إن القاعدة القانونية للأدلة الجنائية تشير إلى أنه إذا تم إثبات وجود فرضية بديلة ، محتملة التحقق ومتماشية مع الدافع ، فلابد من تبرئة المتهمة إننى أنوى أن أظهر لكم أنه كان هناك شخص آخر - شخص لم يكن لديه فقط فرصة متساوية لوضع السم لمارى جيرارد ، بل كان لديه دافع أقوى للقيام بذلك ، إننى أنوى أن أظهر أمامكم - وبالدليل القاطع - أنه كان هناك شخص آخر بإمكانه الوصول إلى المورفين ، ولديه دافع

قوى جداً لقتل مارى جيرارد ، وسوف أثبت لكم أن ذلك الشخص كان لديه فرصة متساوية لدس السم إلى القتيلة . إننى أقول لكم أنه لا توجد هيئة محلفين فى العالم كله قد تدين تلك المرأة بتهمة القتل فى الوقت الذى لا يوجد أى دليل ضدها سوى بضع الملابسات المحيطة فقط ، خاصة أنه يمكن إثبات وجود فرصة متساوية لدى شخص آخر ، بل ودافع أقوى لارتكاب الجريمة أيضا . إننى أنوى أن أستدعى شهوداً لكى أثبت بالدليل وجود شهادات زور من جانب الشهود الذين استدعاهم الادعاء ، لكننى أولا سوف استدعى المتهمة إلى منصة الشهود ، حتى تحظى بفرصة عادلة لكى تقص عليكم حكايتها ، ومن أجل أن تروا بأنفسكم كيف أن التهم الموجهة إليها ظالمة ولا أساس لها ".

٢

تلت إلينور القسم ، وكانت تجيب عن أسئلة السيد بالمر بصوت منخفض ، فمال القاضى إلى الأمام ، وطلب منها أن تتحدث بصوت مرتفع ....

كان السيد بالمر يتحدث برقة وتشجيع - طارحاً كل الأسئلة التى تدربت إلينور على الإجابة عنها مسبقًا .

" هل كنت تشعرين بعاطفة تجاه رودريك ويلمان ؟ " .

" كنت أشعر نحوه بعاطفة قوية . لقد كان مثل أخ لى - أو ابن عم . لطالما كنت أعتبره ابن عم لى " .

الخطبة .... المشاعر الجميلة .... من اللطيف أن يتزوج المرء من شخص يعرفه طيلة حياته ...

" لكن لم يكن بينكما ما يمكن وصفه بعلاقة حب ملتهبة ؟ " .

قالت إلينور لنفسها : " ملتهبة ؟ آه يا رودى ...." .

ثم أجابت بصوت مرتفع : " حسناً ، كلا .... لقد كنا نعرف بعضنا تمام المعرفة .... " .

" بعد وفاة السيدة ويلمان ، أكان هناك شعور بالتكلف أو التوتر بينكما ؟ " .

" نعم ، شعرنا بذلك " .

" وما سبب ذلك فى رأيك ؟ " .

" أعتقد أن ذلك كان جزئياً بسبب المال " .

" المال ؟ " .

" نعم . فقد شعر رودريك بعدم الراحة ، فقد ظن أن الناس سيقولون إنه قد تزوجنى من أجل المال ..." .

" إذن فالخطبة لم تفسخ بسبب مارى جيرارد ؟ " .

" لقد لاحظت أن رودريك معجب بها إلى حد ما ، لكننى لم أعتقد أن هناك شيئاً جدياً وراء ذلك الإعجاب ".

" هل كنت ستشعرين بالضيق إذا كان إعجابه بها مسألة جدية ؟ " .

" آوه ، كلا . كنت سأعتقد أنه أمر غير مناسب ، هذا كل ما فى الأمر " .

" الآن يا آنسة إلينور ، هل أخذت قنينة مورفين من حقيبة أدوية المرضة هوبكنز فى يوم الثامن والعشرين من يونيو ؟ " .

" كلا ، لم أفعل ذلك " .

" هل كان بحيازتك ـ فى أى وقت ـ أى نوع من أدوية المورفين ؟ " .

" مطلقا " .

" أكنت تعلمين أن عمتك لم تترك وصية ؟ " .

" كلا ، لقد مثل لى ذلك مفاجأة كبيرة " .

" هل اعتقدت أنها كانت تحاول أن توصل إليك رسالة فى ليلة الثامن والعشرين قبل أن تتوفى ؟ " .

" لقد فهمت أنها لم تترك بنداً فى وصيتها بخصوص ترك بعض المال إلى مارى جيرارد ، وأنها كانت متلهفة على فعل ذلك " .

" ومن أجل تنفيذ رغبتها ، أكنت مستعدة لتخصيص مبلغا من المال لصالح تلك الفتاة ؟ " .

" نعم . لقد أردت تنفيذ رغبات عمتى لورا ، وكنت ممتنة للطيبة واللطف اللذين أظهرتهما مارى تجاه عمتى الراحلة " .

" فى يوم السادس والعشرين من يوليو ، هل أتيت من لندن إلى مادينسفورد وأقمت فى فندق كينج أرمس ؟ " .

" نعم " .

" ماذا كان سبب قدومك إلى القرية ؟ " .

" كنت قد تلقيت عرضاً لشراء المنزل ، وكان الرجل الذى اشتراه قد اشترط تسليم المنزل فى أسرع وقت ممكن ، فاضطررت للحضور لنقل متعلقات عمتى الراحلة تمهيداً لتسليم المنزل " .

" هل ابتعت بعض المشتريات فى طريقك لمنزل هانتربيرى ، يوم السابع والعشرين من يوليو ؟ " .

" نعم ، لقد ظننت أنه سيكون من الأيسر تناول الغداء هناك بدلا من العودة إلى القرية " .

" وهل توجهت بعدها إلى المنزل وقمت بفرز المتعلقات الشخصية الخاصة بعمتك ؟ " .

" نعم ، فعلت ذلك " .

" وبعد القيام بذلك ؟ "

" دخلت حجرة المؤن وأعددت بعض الشطائر ، ثم توجهت إلى الكوخ ودعوت الممرضة هوبكنز ومارى جيرارد للقدوم إلى المنزل " .

" ولماذا فعلت ذلك ؟ " .

" كنت أرغب فى أن أجنبهما السير إلى القرية لتناول الغداء فى هذا الحر الشديد والعودة مجدداً إلى الكوخ " .

" لقد كان ذلك تصرفاً طبيعياً ولطيفاً من جانبك . وهل قبلتا الدعوة ؟ " .

" نعم ، لقد عادتا معى إلى المنزل " .

" أين كانت الشطائر التى أعددتها ؟ " .
" لقد تركتها فوق أحد الأطباق بداخل حجرة المؤن ".
" أكانت نافذة الحجرة مفتوحة ؟ " .
" نعم " .
" أكان باستطاعة أى شخص أن يدخل الحجرة وأنت غائبة ؟ " .
" بالتأكيد " .
" لو أن أحدهم كان يراقبك من الخارج وأنت تعدين الشطائر ، ماذا كان سيدور بخلده ؟ " .
" أعتقد أنه كان سيظن أننى أعد طعام الغداء ".
" لكنه ما كان ليعرف أن هناك من سيأتى ليشاركك طعام الغداء ، أليس كذلك ؟ " .
" كلا . لقد واتتنى فكرة دعوة بعض الأشخاص للغداء فقط عندما رأيت كمية الطعام التى أعددتها " .
" إذن ، فإذا كان أحدهم قد دخل إلى المنزل أثناء غيابك ووضع المورفين داخل إحدى الشطائر ، فمعنى هذا أنه كان يحاول دس السم لك *أنت* ؟ " .
" نعم ، هذا صحيح " .
" ماذا حدث بعد أن وصلتن جميعاً إلى المنزل ؟ " .
" جلسنا بالقاعة الصباحية ، ثم أحضرت الشطائر وقدمتها للمرأتين الأخريين " .
" هل شاركتهما أى نوع من الشراب ؟ " .

لقد شربت بعض الماء . كان هناك عصير على الطاولة ؛ لكن الممرضة هوبكنز ومارى فضلتا أن تشربا الشاى ، وهكذا توجهت الممرضة هوبكنز إلى حجرة المؤن وأعدت الشاى ، ثم أحضرته فوق صينية وقامت مارى بصبه فى الأقداح " .

" هل تناولت بعضًا من الشاى ؟ " .

" كلا " .

" لكن كلاً من مارى جيرارد والممرضة هوبكنز قد تناولت الشاى ، أهذا صحيح ؟ " .

" نعم " .

" ماذا حدث بعد ذلك ؟ " .

" ذهبت الممرضة هوبكنز وأطفأت موقد الغاز " .

" وهل تركتك بصحبة مارى جيرارد ؟ " .

" نعم " .

" ماذا حدث بعدها ؟ " .

" بعد عدة دقائق ، التقطت صينية الشاى وطبق الشطائر وحملتهما إلى حجرة المؤن ، وقد وجدت الممرضة هوبكنز هناك ، فتعاونا فى غسل الأطباق معًا " .

" هل كانت الممرضة هوبكنز تثنى أكمام قميصها حينذاك ؟ " .

" نعم . لقد كانت تغسل الأطباق ، وكنت أقوم بتجفيفها " .

" هل أبديت ملاحظة محددة بخصوص خدش جلدى في رسغها ؟ " .

" سألتها إذا كانت قد جرحت نفسها " .

" وماذا كان ردها ؟ " .

" قالت : لقد غُرست شوكة في رسغي من شجرة مزهرة خارج الكوخ ، وسوف أخرجها لاحقًا " .

" كيف كان سلوكها في ذلك الوقت ؟ "

" أظن أنها كانت تعانى بسبب الجو الحار ، فقد كانت تتصبب عرقاً وكان لوجهها لون غريب " .

" ماذا حدث بعد ذلك ؟ " .

" صعدنا إلى الطابق العلوى ، وعاونتنى فى ترتيب متعلقات عمتي الراحلة " .

" كم كان الوقت عندما هبطتما إلى الطابق السفلى مجددًا ؟ " .

" لابد أن ذلك كان بعد ساعة من صعودنا " .

" وأين كانت ماري جيرارد ؟ " .

" كانت تجلس في القاعة الصباحية ، ولقد وجدناها تتنفس بصعوبة وتعانى من غيبوبة ، فاتصلت بالطبيب بناء على تعليمات الممرضة هوبكنز ، وقد وصل الطبيب قبل وفاة مارى بلحظات " .

شد السيد بالمر قامته بشكل درامي وقال :

" آنسة إلينور ، هل قتلتِ مارى جيرارد ؟ " .

قالت إلينور لنفسها : (هذه هى لحظتك !ارفعى رأسك ، وثبتى عينيك .)

ثم قالت بصوت مرتفع :

" كلا " .

٣

ثم حان الوقت لاستجواب إلينور من قبل السيد صامويل آتنبورى . وقد بدأت ضربات قلبها تتسارع فى جنون ، وظلت نفسها تحدثها بأنها قد صارت الآن تحت رحمة عدوها! لم يعد هناك مزيد من الرقة واللطف ، وانتهت كذلك الأسئلة التي تعرف إجابتها مسبقاً !

لكنه بدأ استجوابه بشكل هادئ للغاية :

" لقد أخبرت المحكمة أنك كنت مخطوبة للسيد رودريك ويلمان ، أليس كذلك ؟ " .

" بلى " .

" وأنك كنت تميلين إليه ؟ " .

" بشكل كبير " .

" لكنى أعتقد أنك كنت تشعرين بحب شديد تجاه السيد رودريك ويلمان وأنك كنت تغارين بشدة من حبه لمارى جيرارد ، أليست هذه هى الحقيقة ؟ " .

قالت إلينور : " كلا " . (لكنها كانت تسأل نفسها إذا كانت " كلا " التى نطقت بها قد بدت مقنعة)

قال السيد صامويل بشراسة :

" لكنى أتحداك أن تنكرى أنك قد خططت ـ بشكل متعمد ـ لإزاحة تلك الفتاة من طريقك ، على أمل أن يعود إليك رودريك ويلمان " .

قالت إلينور : " بالطبع لم أفعل " . (وقد أعجبها أنها قد نطقت تلك الكلمات بازدراء وسأم) .

ثم استمرت الأسئلة ، وبدا الأمر أشبه بالحلم .... مثل حلم سيئ ..... كابوس ....

سؤالاً بعد الآخر .... أسئلة مؤلمة ومفزعة .... بعضها كانت مستعدة له ، وبعضها أخذها على حين غرة ....

ودائما كانت إلينور تحاول تذكر دورها جيداً ، ولم تستسلم مطلقا أو تترك العنان لنفسها لتقول :

" نعم ، كنت أكرهها .... نعم ، كنت أريد موتها .... نعم ، طوال الوقت الذى كنت أُحضّر فيه الشطائر كنت أفكر فى موتها .... " .

لكن كان عليها أن تظل هادئة ، باردة الأعصاب ، وأن تجيب عن الأسئلة باختصار وبأقل درجة ممكنة من الانفعال ....

وتقاوم .....

تقاوم بكل ذرة من كيانها إلى نهاية الاستجواب ....

وأخيراً انتهى الأمر .... وجلس الرجل البشع ذو الأنف المعقوف ، وعاد الصوت اللطيف الهادئ الخاص بالسيد بالمر ، ليطرح مزيدًا من الأسئلة . أسئلة سهلة ولطيفة ، صيغت خصيصًا من أجل محو أية انطباعات سيئة ربما تكون قد تركتها فى نفوس المحلفين أثناء استجواب الادعاء لها ....

ثم عادت إلى قفص الاتهام ، تنظر إلى هيئة المحلفين ، وتتساءل .....

٤

أخذت إلينور تحادث نفسها : رودى . رودى يقف هناك فوق منصة الشهود ، يطرف بعينيه قليلا . رودى ـ يبدو بشكل ما ـ غير حقيقى .

لكن لا شيء يبدو حقيقياً الآن . كل شيء يدور بطريقة شيطانية ، فصار الأسود أبيض ، والأعلى صار هو الأسفل ، والشرق أصبح مكان الغرب ....وأنا لست إلينور كارليل ؛ لقد صار اسمى " المتهمة " ، وسواء أعدمونى أو تركونى ، فلن يعود أى شيء كما كان أبدًا . لو أن هناك شيئا واحدًا ـ مجرد شيء أتمسك به ....

(ربما وجه بيتر لورد ، بكل النمش الذى يملؤه وملامحه التى لا تتغير عن المعتاد ....) .

ترى أين وصل السيد بالمر في استجوابه ؟
سأل السيد بالمر مخاطبا رودى :
" هلا أخبرت المحكمة عن مشاعر الآنسة إلينور كارليل تجاهك ؟ " .
أجاب رودى بصوته الدقيق :
" أستطيع أن أقول إنها كانت متعلقة بى بشكل كبير ، لكنها لم تكن تحبنى بشكل عاطفى " .
" أكنت تعتبر خطبتك إليها مرضية لك ؟ " .
" آوه ، بالطبع . كان لدينا الكثير من الصفات المشتركة " .
" هلا أخبرت المحلفين ، يا سيد رودى ، لماذا فُسخت هذه الخطبة ؟ " .
" حسنا ، بعد وفاة السيدة ويلمان ، صارت الأمور تتباعد بيننا ، وأعتقد أن ذلك كان بمثابة الصدمة لكلينا ، فأنا لم تعجبنى فكرة الزواج من امرأة ثرية وأنا مفلس . فى الواقع ، لقد تم فسخ الخطبة برضا مشترك من الطرفين ، بل إننا كنا نشعر بالارتياح لذلك " .
" والآن ، هلا أخبرت المحكمة بنوع العلاقة التى كانت تربطك بمارى جيرارد ؟ " .
قالت إلينور فى نفسها :
(آه يا رودى المسكين ، لا ريب أنك تكره كل هذا) .
أجاب رودى : " كنت أعتقد أنها فتاة لطيفة " .
" أكنت تحبها ؟ " .

" إلى حد ما " .

" متى كانت آخر مرة رأيتها فيها على قيد الحياة ؟ " .

" دعنى أتذكر . لابد أن ذلك كان فى يوم الخامس أو السادس من يوليو " .

قال السيد بالمر بنبرة صوت ميكانيكية :

" هل رأيتها بعد ذلك ؟ " .

" كلا ، لقد سافرت خارج البلاد ـ إلى مدينة البندقية ومدينة دالماتيا " .

" ومتى عدت إلى انجلترا ؟ " .

" عندما تسلمت برقية ـ دعنى أتذكر ـ فى الأول من أغسطس ، لابد أن ذلك هو التاريخ الصحيح " .

" لكنك كنت فى إنجلترا فى السابع والعشرين من يوليو ، على ما أعتقد " .

" كلا " .

" بالله عليك يا سيد رودريك ، تذكر أنك تحت القسم أليس حقيقيًا أن جواز سفرك يشير إلى أنك قد عدت إلى إنجلترا يوم الخامس والعشرين من يوليو وغادرتها مرة أخرى فى ليلة السابع والعشرين ؟ " .

كانت نبرة صوت السيد بالمر تحمل قدراً من التهديد . عبست إلينور ، وقد عادت إلى الواقع فجأة . لماذا يهدد محامى الدفاع أحد شهوده ؟

كان وجه رودى قد شحب ، وقد ظل صامتًا لدقيقة أو اثنتين ، ثم قال بصعوبة بالغة :

" حسناً ، نعم ، هذا ما حدث " .

" هل ذهبت لرؤية مارى جيرارد فى لندن فـى سـكنها فى يوم الخامس والعشرين من يوليو ؟ " .

" نعم ، فعلت ذلك " .

" هل طلبت منها الزواج منك ؟ " .

" نعـ .... نعم " .

" وماذا كان ردها ؟ "

" لقد رفضت " .

" هل أنت رجل غنى يا سيد رودريك ؟ " .

" كلا " .

" ألست غارقًا حتى أذنيك فى الديون ؟ " .

" وما شأنك بهذا ؟ " .

" ألم تكن تعلم أن الآنسة إلينـور قـد أوصـت لـك بكـل أموالها فى حالة وفاتها ؟ " .

" هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام " .

" هل كنت فـى قريـة مادينـسفورد فـى صباح الـسابع والعشرين من يوليو ؟ " .

" كلا " .

جلس السيد بالمر .

ثم بدأ محامى ممثل الادعاء استجواب رودى قائلاً :

" إنك تقول إنك تعتقد أن المتهمة لم تكن تحبك بشكل كبير " .

" هذا ما قلته " .

" هل أنت رجل شهم يا سيد رودريك ؟ " .

" لست أفهم ماذا تقصد " .

" إذا كانت هناك فتاة تحبك بشدة ، ولم تكن أنت تحبها ، هل تعتبر نفسك ملزماً بأن تتظاهر بحبك لها ؟ " .

" كلا ، بالطبع " .

" ما هو اسم المدرسة التى تلقيت تعليمك فيها ؟ " .

" مدارس إيتون لأبناء النبلاء " .

قال السيد صامويل وهو يبتسم ابتسامة خافتة :

" هذا كل شيء " .

٥

كان الشاهد التالى هو ألفريد جيمس وارجرافس .

" هل تعمل بستانياً متخصصاً فى الزراعة ، وتعيش فى قرية إيمسورس بمقاطعة بيركس ؟ " .

" نعم " .

" هل ذهبت إلى قرية مادينسفورد فى العشرين من أكتوبر وعاينت شجرة مزهرة كانت تنمو خارج الكوخ الصيفى الخاص بمنزل هانتربيرى ؟ " .

" نعم ، فعلت ذلك " .

" هل يمكنك أن تصف تلك الشجرة ؟ " .

" لقد كانت شجرة زهرية من الفصيلة اللبلابية ـ وتسمى زيفيرين دروهين ، وهى تنبت زهوراً قرنفلية ذات عطر طيب ، ولا ينبت فيها أية أشواك " .

" هل من الممكن أن تغرس شوكة فى يد أحدهم بسبب ملامسة شجرة من هذه النوعية ؟ " .

" كلا ، إن ذلك مستحيل تماماً ، فهى شجرة بلا أشواك " .

لم يقم ممثل الادعاء باستجواب الشاهد .

٦

" هل أنت جيمس آرثر ليتلدال ، وتعمل صيدلياً معتمداً لدى صيدليات هينكل آند هال ؟ " .

" نعم ، أنا كذلك " .

" هل تخبر المحكمة ماذا تمثل قصاصة الورق هذه ؟ " .

سلم الحاجب قصاصة الورق إلى الشاهد " .

" إنها جزء من إحدى لصاقات الدواء التى تحمل شعار صيدليتنا " .

" أى نوع من الدواء تمثله تلك اللصاقة ؟ " .

" إنها اللصاقة التى نلصقها على قنينات الأقراص".

" هل يوضح هذا الجزء بشكل محدد أى دواء كانت تلك اللصاقة موضوعة على قنينته ؟ " .

" نعم . أستطيع أن أقول بشكل مؤكد أن تلك اللصاقة كانت موضوعة على قنينة تحتوى على أقراص هيدروكلوريد آبومُورفين ، قيمة كل قرص ١/٢٠ من الجرام " .

" ليست هيدروكلوريد المورفين ؟ " .

" كلا ، لا يمكن أن تكون كذلك " .

" ولماذا ؟ " .

" إن اللصاقات التى توضع على قنينات المورفين يتم كتابة كلمة " مورفين " بالحروف الكبيرة البارزة ، لكن عندما وضعت ذلك الجزء أسفل العدسة المكبّرة وجدت أن الجزء المتبقى من الكلمة مكتوب بالحروف الصغيرة ، وليست الكبيرة البارزة " .

" من فضلك دع المحلفين يتفحصوا ذلك باستخدام العدسة المكبّرة ، هل لديك لصاقتان مختلفتان لكى توضح مقصدك ؟ " .

قام الشاهد بتسليم اللصاقتين إلى الحاجب ، والذى قام بدوره بتسليمهما إلى المحلفين .

أكمل السيد بالمر استجوابه قائلاً :

" تقول إن هذه اللصاقة توضع على قنينات هيدروكلوريد آبومورفين ؟ ما هو هيدروكلوريد آبومورفين بالتحديد ؟ " .

" إنه مركب كيميائى ويعد بديلاً للمورفين ، ويتم إعداده عن طريق تحويل المورفين إلى رغوة من خلال

تسخينه مع حمض هيدروكلوريد مخفف فى أنابيب محكمة الإغلاق ، وبهذه الطريقة يفقد المورفين جزيئًا واحدًا من الماء " .

" وما هى خصائص مركب آبومورفين ؟ " .

قال السيد ليتلدال بهدوء :

" إن آبومورفين هو أقوى وأسرع دواء مسبب للقىء على الإطلاق ، ومفعوله يظهر خلال عدة دقائق " .

" إذن لو أن أحدهم قد تناول جرعة مميتة من المورفين وتم حقنه بجرعة من آبومورفين خلال عدة دقائق ، فما هى النتيجة التى ستحدث ؟ " .

" سوف يحدث القىء على الفور ويتم طرد المورفين من جسم ذلك الشخص " .

" إذن فلو أن هناك شخصين قد تشاركا نفس الشطائر أو شربا نفس الشاى وكان ذلك الطعام أو الشراب يحتوى على جرعة مميتة من المورفين ، وبعد ذلك تم حقن أحدهما بجرعة علاجية من مركب آبومورفين ، فماذا ستكون النتائج فى تلك الحالة ؟ " .

" الشخص الذى تم حقنه بمركب آبومورفين سوف يتقيأ الطعام أو الشراب الذى يحتوى على المورفين " .

" وهل سيعانى ذلك الشخص من أى أعراض مرضية خطيرة ؟ " .

" كلا " .

ضجت قاعة المحكمة بصيحات إثـارة مفاجئـة ، وأمـر القاضى جميع من فى القاعة بالصمت .

٧

" هل أنت إميليا مارى سيدلى ، وتقيمين فى المنزل رقم ١٧ بشارع تشارلز ستريت ، بوناما ، أوكلاند ؟ " .

" نعم " .

" هل تعرفين امرأة تدعى السيدة درابر ؟ " .

" نعم ، أعرفها منذ ما يقرب من عشرين عامًا " .

" هل تعرفين اسمها قبل الزواج ؟ " .

" نعم ، لقد حضرت زفافهـا . كـان اسمهـا هـو مـارى رايلى " .

" هل هى من سكان نيوزيلاندا الأصليين ؟ " .

" كلا ، لقد أتت من إنجلترا " .

" هل كنت بالمحكمة منذ بداية هذه الجلسات ؟ " .

" نعم " .

" هل رأيت مارى رايلـى هـذه ـ أو الـسيدة درابـر فـى قاعة المحكمة ؟ " .

" نعم " .

" أين رأيتها ؟ " .

" كانت تقف فوق منصة الشهود " .

" تحت أى اسم " .

" جيسى هوبكنز " .

" وهل أنت واثقة أن جيسى هوبكنز هى نفسها المرأة التى تعرفينها باسم مارى رايلى ـ أو السيدة درابر ؟ " .

" بدون شك " .

حدثت حالة بسيطة من الاضطراب فى نهاية قاعة المحكمة .

" متى كانت آخر مرة رأيت فيها مارى درابر ـ حتى اليوم ؟ " .

" منذ خمس سنوات ، لقد عادت إلى إنجلترا " .

قال السيد بالمر وهو يحيى ممثل الادعاء بإيماءة من رأسه :

" يمكنك استجواب الشاهدة " .

نهض السيد صامويل ، وعلى وجهه تعبيرات ارتباك بسيط ، ثم بدأ استجوابه قائلاً :

" أعتقد يا سيدة سيدلى أنك ربما تكونين مخطئة " .

" أنا لست مخطئة " .

" ربما خُدعت من خلال وجود تشابه كبير بين المرأتين " .

" إننى أعرف مارى درابر تمام المعرفة " .

" إن الممرضة هوبكنز هى ممرضة المقاطعة المعتمدة " .

" لقد كانت مارى درابر ممرضة محترفة قبل زواجها " .

" هل تفهمين أنك تتهمين إحدى شهود الادعاء بالشهادة الزور ؟ " .

" أنا أفهم ما أقوله تماماً " .



" إدوارد جون مارشال ، لقد عشت لبعض السنوات فى مدينة أوكلاند ، فى نيوزيلاندا ، والآن أنت تقيم فى ١٤ شارع راين ستريت ، بمدينة ديبتفورد ، أليس كذلك ؟ " .

" هذا صحيح " .

" هل تعرف مارى درابر ؟ " .

" لقد عرفتها لسنوات أثناء إقامتى فى نيوزلندا " .

" هل رأيتها اليوم فى قاعة المحكمة ؟ " .

" نعم ، لقد كانت تطلق على نفسها اسم جيسى هوبكنز ؛ لكنها هى مارى درابر دون شك " .

رفع القاضى رأسه ، وتحدث فى صوت واضح ومسموع قائلا :

" ترى المحكمة ضرورة استدعاء جيسى هوبكنز للشهادة مجدداً " .

سادت المحكمة أصوات همهمات مسموعة .

قال الحاجب :

" سيدى القاضى ، لقد غادرت جيسى هوبكنز قاعة المحكمة منذ عدة دقائق " .

.

٩

" هيركيول بوارو " .

صعد هيركيول منصة الشهود ، وأدلى بالقسم ، وأخذ يلوى شاربه ، ثم انتظر وقد أمال رأسه جهة اليمين قليلاً ، ثم أدلى باسمه وعنوانه ومهنته .

" سيد بوارو ، هل تعرف هذا المستند ؟ " .

" بالتأكيد " .

" كيف وصل هذا المستند إلى حيازتك من الأساس ؟ " .

" لقد تم إعطاؤه لى بواسطة الممرضة هوبكنز ـ ممرضة المقاطعة " .

قال السيد بالمر :

" بعد إذن عدالة المحكمة ، سوف أقرأ هذا المستند بصوت مرتفع ، وبعدها يمكن تسليمه إلى المحلفين " .

الفصل ٤

المرافعة الختامية للدفاع :

" السادة المحلفون ، إن المسئولية الآن تقع على عاتقكم ، والأمر متروك لكم لكي تقرروا إذا كنتم ستحكمون ببراءة إلينور كارليل . وإذا كنتم ـ بعد سماعكم للأدلة وشهادة الشهود ـ مقتنعين بأن إلينور كارليل قد دست السم لماري جيرارد ، فإنها أيضا مسئوليتكم في أن تعلنوا أنها مذنبة .

" لكن إذا بدا لكم أن هناك أدلة متساوية ، بل ربما أدلة أقوى بكثير ضد شخص آخر ، إذن فإن واجبكم هو أن تطلقوا سراح المتهمة دون تأجيل .

" ولعلكم لاحظتم الآن أن حقائق هذه القضية تختلف كثيراً عن الوجه الذي بدت عليه عند بدء المحاكمة .

" وبالأمس ، وبعد الأدلة الخطيرة التي قدمها السيد هيركيول بوارو ، استدعيت شهوداً آخرين ليؤكدوا ـ بما لا يترك مجالاً للشك ـ أن الفتاة المدعوة ماري جيرارد هي

ابنة غير شرعية للسيدة لورا ويلمان ، وبناء على ذلك - كما سيوضح لكم سيادة القاضي دون شك - أن الشخص الأقرب صلة للسيدة لورا ويلمان ليس ابنة أخيها ، ولكن ابنتها غير الشرعية ماري جيرارد ، وعليه فإنه عند وفاة السيدة ويلمان ، تئول ثروتها إلى ابنتها غير الشرعية ماري جيرارد . وهذا الأمر أيها السادة هو لب القضية التي بين أيدينا . لقد ورثت ماري جيرارد ما يقرب من مائتي ألف جنيه ، لكنها لم تكن تعي تلك الحقيقة ، وكذلك لم تكن تعي الهوية الحقيقية للممرضة هوبكنز . ولعلكم - أيها السادة - تعتقدون أن ماري رايلي ، أو السيدة درابر ، كان لديها سبب قانوني في تغيير اسمها إلى هوبكنز . لكن لو أن ذلك كان حقيقيًا ، فلماذا لم تتقدم للمحكمة بذلك السبب ؟

" لكن ما نعرفه كحقائق لا تقبل الجدال هو الآتي : لقد قامت ماري جيرارد - بناء على نصيحة الممرضة هوبكنز - بكتابة وصية تركت فيها كل ما تملك إلى ماري رايلي ، شقيقة آليزا رايلي نحن نعرف أن الممرضة هوبكنز - من خلال مهنتها الطبية - كان لديها الإمكانية لحيازة المورفين والآبومورفين وكانت تعلم خصائص كل منهما جيداً . علاوة على ذلك ، لقد تأكد لنا أن الممرضة هوبكنز كانت تكذب عندما قالت إن معصمها قد غُرست به شوكة من شجرة مزهرة لا تحوي أي أشواك ، فلماذا كذبت ؟ لأنها أرادت أن تبرر وجود جرح صغير في معصمها تسببت

فيها المحقنة التي استخدمتها لحقن نفسها بمركب آبومورفين ، وتذكروا كذلك أن المتهمة قد قالت إن الممرضة هوبكنز ـ عندما انضمت إليها بحجرة المؤن ـ كانت تبدو مريضة ، وأن وجهها كانت تبدو عليه إمارات الإعياء ـ وهو أمر مفهوم إذ كانت تتقيأ بعنف منذ دقائق .

" وسوف أشير إلى نقطة أخرى : لو أن السيدة ويلمان قد عاشت لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى ، لكانت قد تركت وصية ؛ وكانت ـ على الأرجح ـ ستترك مبلغاً مناسباً من المال إلى ماري جيرارد ، لكنها ما كانت لتترك لها كل ثروتها ، خاصة أن السيدة ويلمان كانت مقتنعة أن ابنتها ـ التي لم تعترف بها ـ ستكون أكثر سعادة إذا عاشت حياتها دون أن تعرف حقيقة نسبها المشين .

" إن الأمر ليس متروكا للدفاع لكي يشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر ، وكل ما على الدفاع فعله هو إظهار أن ذلك الشخص الآخر كانت لديه فرص متساوية لارتكاب الجريمة ودافع أقوى بكثير من الدافع الذي صاغته هيئة الادعاء ضد المتهمة .

" وإذا نظرنا إلى الأمور من هذا المنظور الجديد ، فإنني أشير إلى أن القضية المرفوعة ضد إلينور كارليل لا أساس لها من الصحة ...." .

٢

الكلمة الختامية للقاضي بيدينجفيليد :

" السادة المحلفون .... يجب أن يكون لديكم قناعة تامة أن تلك الشابة قامت - بشكل متعمد - بدس جرعة مميتة من المورفين إلى ماري جيرارد يوم السابع والعشرين من يوليو . إذا لم تكونوا مقتنعين بذلك تمامًا ، فعليكم الحكم ببراءة المتهمة .

" لقد صرح الادعاء بأن الشخص الوحيد الذي كانت لديه الفرصة والإمكانية لدس المورفين إلى ماري جيرارد هو إلينور كارليل ، ولقد حاول الدفاع إثبات أنه كانت هناك فرضيات بديلة ، فهناك افتراض أن ماري جيرارد قد انتحرت ، لكنه افتراض ليس له من الأدلة ما يعززه ، اللهم إلا قيام ماري جيرارد بكتابة وصيتها قبل ذلك بوقت قصير ، ولقد افترض الدفاع أيضا أن المورفين قد تم وضعه داخل الشطائر بواسطة شخص تسلل إلى حجرة المؤن أثناء وجود إلينور كارليل في الكوخ الصيفي ، وفى هذه الحالة يكون السم قد تم دسه من أجل قتل إلينور كارليل ، وأن مقتل ماري جيرارد كان مجرد مصادفة مؤسفة ، أما الافتراض الثالث الذي صاغه الدفاع فهو أن شخصاً آخر كانت لديه فرصة متساوية لدس المورفين ، وفي تلك الحالة يكون المورفين قد تم وضعه في الشاي وليس

الشطائر . ومن أجل تعزيز هذا الافتراض ، فقد استدعى الدفاع الكيميائي المتخصص ليتلدال ، الذي شهد بأن الجزء المقطوع من لصاقة الدواء ، والذي وُجد داخل حجرة المؤن هو جزء من لصاقة لقنينة دواء تحتوي على أقراص هيدروكلوريد آبومورفين ـ وهو مقيئ شديد الفعالية ، ولقد قدم لكم نموذجين من لصاقتين مختلفتين لكلا الدواءين . وفي رأيي الشخصي ، فإنه قد وقع إهمال جسيم من قبل رجال الشرطة يكمن في عدم قيامهم بفحص قصاصة الورق بشكل أدق وقفزهم إلى استنتاجات متعجلة بأن تلك القصاصة كانت جزءا من لصاقة قنينة مورفين .

" ولقد قالت الشاهدة جيسي هوبكنز إن شوكة قد غُرست فى معصمها من شجرة مزهرة موجودة خارج الكوخ الصيفي ، وقد قام البستاني المتخصص وارجراف بفحص تلك الشجرة ، وتأكد أنها تخلو من أية أشواك . ولهذا عليكم أن تقرروا ما الذي سبّب ذلك الجرح فى معصم الممرضة هوبكنز ، ولماذا كان عليها أن تكذب بشأن تلك المسألة ....

" إذا كان الادعاء قد استطاع إقناعكم بأن المتهمة وحدها ـ وليس أحدا آخر ـ هي من ارتكب الجريمة ، فعليكم أن تحكموا بإدانتها .

" إذا كانت الفرضية البديلة التي اقترحها الدفاع ممكنة ومتماشية مع الأدلة المتوافرة ، فعليكم أن تبرئوا ساحة المتهمة .

" إنني أطلب منكم أن تتخذوا قراركم بشجاعة وحكمة وأن تعتمدوا فقط على الأدلة التي تم إثباتها أمامكم " .

٣

جُلبت إلينور إلى قاعة المحكمة مجدداً .

واتخذ المحلفون أماكنهم .

وقال القاضي : " أيها السادة المحلفون ، هل توصلتم إلى قرار ؟ " .

" نعم ، سيدي القاضي " .

" انظروا إلى المتهمة الموجودة بقفص الاتهام ، وأعلنوا ما إذا كنتم تجدونها مذنبة أم غير مذنبة " .

" غير مذنبة ....."

الفصل ٥

كانوا قد أخرجوها من الباب الجانبى لقاعة المحكمة .

كانت إلينور واعية بتلك الوجوه التى كانت ترحب بها .... رودى .....المحقق ذو الشارب الضخم .....

لكنها استدارت لتحدث بيتر لورد .

" أريد أن أذهب بعيدًا عن هنا " .

والآن صارت تجلس بجانبه ، فى سيارة دايملر لطيفة ، تنطلق بأقصى سرعتها إلى خارج لندن .

لم يتحدث إليها بيتر لورد بشىء ، وكانت إلينور تجلس فى صمت مريح .

وكل دقيقة تأخذها بعيداً عن الماضى .

إلى حياة جديدة ....

هذا هو ما تريده ....

حياة جديدة .

قالت إلينور فجأة :

" أريد أن أذهب إلى مكان هادئ .... مكان خالٍ من الوجوه المعروفة ..... " .

قال بيتر لورد بهدوء :

" لقد تم ترتيب كل ذلك ، سوف تذهبين إلى منتجع علاجى ... مكان هادئ ، به الكثير من الحدائق الغنّاء ، ولن يزعجك أحد ـ أو يصل إليك " .

قالت إلينور وهى تتنهد :

" نعم ـ هذا هو ما أريده " .

ظنت إلينور أن كون بيتر لورد طبيبًا هو ما جعله يتفهم مشاعرها . لقد كان يعلم ما تعانيه ـ ولم يحاول أن يزعجها ، من الرائع أن تكون هنا معه ، وأن ينطلقا معًا بعيدًا عن كل هذا ، بعيدًا عن لندن .... إلى مكان آمن ...

كانت تريد أن تنسى .... تنسى كل شيء .... لم يعد أى مما فات حقيقياً الآن . لقد ذهب كل شىء ، اختفى ، انتهت من التعامل معه ـ الحياة الماضية والمشاعر القديمة . لقد صارت مخلوقاً جديداً ، غريباً ، عاجزاً ، بسيطاً ، وخالياً من التجارب .... مخلوقاً يبدأ حياته من جديد ـ بخوف شديد واستغراب أشد ....

لكنها كانت تشعر بالراحة لكونها بصحبة بيتر لورد ..

لقد تركا حدود لندن الآن ، وانطلقت السيارة بهما بين الضواحى .

قالت إلينور أخيرًا :

" لقد كان كل ذلك بفضلك .... " .

" بـل بفـضل هيركيـول بـوارو . إن هـذا الرجـل أشـبه بالسحرة ! " .

لكن إلينور هزت رأسها نفيًا ، وقالت بإصرار :

" بل أنت من فعل كل ذلك . أنت من أحضره وجعلـه يفعل ما فعله " .

ابتسم بيتر وقال :

" لقد جعلته يقوم بذلك فعلاً .... " .

قالت إلينور :

" أكنت تعلم أننى لم أرتكب تلك الجريمة ، أم أنك لم تكن واثقا ؟ " .

قال بيتر ببساطة :

" لم أكن متأكداً تمامًا " .

قالت إلينور :

" لهذا السبب كدت أن أعترف قائلة : " أنـا مذنبـة " فى بدايـة المحكمـة .... لأننـى كنـت أفكـر فـى ارتكـاب الجريمة . لقـد فكـرت فيهـا فـى اليـوم الـذى وقفـت فيـه أضحك خارج نافذة الكوخ " .

قال بيتر :

" نعم ، كنت أعرف ذلك " .

قالت إلينور باندهاش :

" يبـدو الأمـر غريبـاً الآن .... وكأنـه نـوع مـن الاستحواذ . فى ذلـك اليـوم الـذى اشـتريت فيـه عجينـة السمك وبدأت أعد الشطائر ، بدأت أتظاهر أمـام نفـسى ،

وكنت أفكر قائلة : " لقد مزجت السم مع الشطائر ، وعندما تأكله مارى ، سوف تموت ـ وسوف يعود إلىّ رودى "

قال بيتر لورد :

" قد يفيد بعض الناس أن يتظاهروا أمام أنفسهم بأشياء مثل هذه ، وهى عادة ليست سيئة فى الواقع ، حيث إن المرء يخرج تلك المشاعر التى تعتمل بداخله على هيئة تخيلات ، تماما كما يخرج العرق الأملاح الزائدة من الجسم " .

قالت إلينور :

" نعم ، هذا صحيح ؛ لأن تلك الخيالات قد اختفت ـ فجأة ! أقصد الخيالات السوداوية . عندما ذكرت تلك المرأة الشجرة المزهرة المزروعة خارج الكوخ الصيفى ... عادت كل الأمور إلى طبيعتها .... " .

ثم أردفت إلينور برجفة :

" وعندما عدنا إلى القاعة الصباحية ووجدتها ميتة ـ تحتضر على الأقل ـ شعرت كأننى أقول لنفسى : " أهناك فرق كبير بين التفكير فى القتل والقيام به ؟ " .

قال بيتر لورد :

" اختلاف السماء عن الأرض ! " .

" نعم ، لكن أيوجد اختلاف فعلاً ؟ " .

" بالطبع هناك اختلاف ! إن التفكير فى القتل لا يُحدِث أى أذى ، لكن الناس لديهم أفكار سخيفة حيال

هذه المسألة ، فهم يعتقدون أن التفكير فى القتل يماثل التخطيط له ـ وهذا غير صحيح . إذا فكرت فى القتل لمدة طويلة ، فإنك سوف تعبرين ظلمة أفكارك فجأة ، وتشعرين حينها أن تلك الأفكار لم تكن سوى محض سخافة ! " .

صاحت إلينور :

" آوه ، يا لك من شخص مريح .... " .

قال بيتر لورد بشكل غير مفهوم :

" كلا على الإطلاق . إنه مجرد تفكير سليم " .

قالت إلينور وقد ترقرق الدمع فى عينيها فجأة :

" ما بين الحين والآخر ـ وأنا فى قاعة المحكمة ـ كنت أنظر إليك . ولقد أعطانى ذلك شجاعة ، حيث إنك كنت تبدو .... *عادياً للغاية* " .

ثم ضحكت وقالت : " عذرًا ، كان ذلك وقاحة منى " .

قال بيتر :

" أنا أفهم ما تعنيه . عندما يكون المرء فى وسط كابوس مزعج ، فإن رؤية شيء عادى تمثل له الأمل الوحيد . على أى حال ، فالأشياء العادية هى الأفضل ـ هكذا كنت أومن دائما " .

وللمرة الأولى منذ ركبت إلينور السيارة ، التفتت ونظرت إلى وجه بيتر .

لم يكن منظر وجهه يؤلمها مثلما اعتاد وجه رودى أن يؤلمها ؛ ولم يعط وجه بيتر مزيجاً حاداً من الألم والمتعة كما كان وجه رودى يفعل ، وإنما جعلها تشعر بالدفء والراحة .

قالت إلينور فى نفسها :

" كم أن وجهه لطيف .... لطيف ومرح – ومريح كذلك .... " .

وأكملت السيارة رحلتها .

وصلت السيارة أخيرًا إلى بوابة صغيرة وكان وراءها طريق يمتد حتى يصل إلى منزل أبيض يقع على جانب تلة صغيرة " .

قال بيتر لورد :

" ستكونين بأمان هنا ، ولن يزعجك أحد " .

وبشكل غريزى ، وضعت إلينور يدها فوق ذراعه .

وقالت :

" سوف .... سوف تأتى لزيارتى ؟ " .

" بالطبع " .

" كثيراً ؟ "

قال بيتر لورد :

" كلما أحببت أن ترينى " .

قالت :

" تعال لزيارتى - *كثيراً من فضلك* ... " .

الفصل ٦

قال هيركيول بوارو :

" أرأيت يا صديقى كيف أن الأكاذيب التى يقولها الناس تكون مفيدة مثل الحقائق تمامًا ؟ " .

قال بيتر لورد :

" هل كذب الجميع عليك ؟ " .

أومأ بوارو برأسه موافقاً وقال :

" آه ، نعم ! لسبب أو لآخر ، أظنك تفهم ما أعنى . إن الشخص الوحيد الذى كانت الحقيقة بالنسبة له أمراً إجبارياً ، والذى كان حساساً وكثير الشكوك بشأن تلك الحقيقة هو الذى حيرنى كثيرًا ! " .

تمتم بيتر لورد :

" إلينور نفسها ! " .

" تماماً ، لقد كانت الأدلة تشير إليها على أنها مرتكبة الجريمة ، لكنها ، وبكامل إرادتها، لم تفعل أى شىء لتدفع عن نفسها تلك الاتهامات . وحيث إنها

كانت تتهم نفسها بالرغبة فى قتل مارى - وليس الفعل نفسه - فإنها كانت على وشك أن تتخلى عن خوض ذلك القتال المرير والشرس ، وأن تعترف فى المحكمة أنها مذنبة بارتكاب جريمة لم ترتكبها على الإطلاق " .

أطلق بيتر لورد تنهيدة غاضبة .

وقال : " أمر لا يصدق " .

هز بوارو رأسه وقال :

" على الإطلاق . لقد أدانت إلينور نفسها - لأنها كانت تحكم على نفسها طبقاً لمعيار أعلى بكثير من المعيار الأخلاقى الذى يحكم به معظم البشر على أنفسهم ! " .

قال بيتر لورد بتأمل :

" نعم ، هذه هى طبيعتها " .

أكمل بوارو يقول :

" منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها تحقيقاتى ، كان هناك دائما احتمال قوى أن إلينور كارليل مذنبة فى الجريمة التى تحاكم بشأنها ، لكننى وفيت بالتزامى تجاهك واكتشفت وجود أدلة قوية تدعم اتهام شخص آخر بجريمة القتل " .

" الممرضة هوبكنز ؟ " .

" ليس فى البداية . لقد كان رودريك ويلمان هو أول شخص يجذب انتباهى ، وبالنسبة له ، فقد بدأ الأمر ، مجدداً ، بكذبة . لقد أخبرنى أنه قد غادر إنجلترا فى التاسع من يوليو ، وعاد إليها فى الأول من أغسطس ،

لكن الممرضة هوبكنز كانت قد أخبرتنى ـ دون قصد ـ أن مارى قد رفضت عرض رودريك ويلمان بالزواج مرتين . المرة الأولى فى مادينسفورد ، والثانية عندما قابلته فى لندن ، وحيث إن مارى جيرارد ـ كما أخبرتنى أنت ـ كانت قد ذهبت إلى لندن فى العاشر من يوليو ـ اليوم التالى لمغادرة رودريك لإنجلترا ، فمتى تسنى لمارى جيرارد أن تقابل رودريك فى لندن إذن ؟ وهكذا أرسلت صديقى اللص فى مهمة استكشاف ، وعن طريق فحص جواز سفر رودريك ويلمان ، اكتشفت أنه موجود فى إنجلترا فى المدة من الخامس والعشرين وحتى السابع والعشرين من يوليو . ولقد كذب علىّ متعمداً بخصوص هذه المسألة .

" دائماً ما كنت أفكر فى تلك الفترة التى بقيت فيها الشطائر موضوعة فوق طبق بحجرة المؤن ووجود إلينور كارليل فى الكوخ الصيفى ، لكننى أدركت أن إلينور ـ طبقاً لهذه الفرضية ـ ستكون هى الضحية المقصودة ، وليس مارى جيرارد . وظللت أسأل نفسى : أكان لدى رودريك ويلمان أى دافع لقتل إلينور كارليل ؟ نعم ، كان لديه دافع قوى للغاية . لقد تركت إلينور وصية توصى فيها بكل أموالها إليه ؛ ومن خلال بعض التقصى ، اكتشفت أنه كان باستطاعة رودريك ويلمان معرفة هذه المعلومة " .

قال بيتر لورد :

" وكيف اكتشفت أنه برىء ؟ " .

" بسبب كذبة أخرى ـ مجـرد كذبـة صـغيرة وسـخيفة وتنم عن إهمال شديد أيضا ، لقد قالت الممرضة هوبكنز إن شوكة قد غُرست بمعصمها من شجرة مزهرة ، وادعـت أن الشوكة لا تزال بـداخل الجلـد ، ولقـد ذهبـت بنفـسى إلى تلك الشجرة واكتشفت أنها لا تنبت أية أشواك .... فبـدا واضـحاً أن الممرضـة هـوبكنز كانـت تكـذب ـ ولقـد كانـت الكذبة تبدو سخيفة وبلا هدف لدرجـة أنهـا قـد جعلتنـى أركز انتباهى تجاه الممرضة هوبكنز .

" بدأت أتساءل بشأن الممرضـة هـوبكنز . لكنـى حتـى تلك اللحظة كنت أعتبرها شاهدة شديدة المصداقية ، ثابتة على موقفها طيلة الوقت ، لديها تحيز شديد ضـد المتهمـة ينبع بشكل طبيعى من حبها وتعلقها بالفتاة الميتـة . لكـن فى تلك اللحظة ، وبعد وضع هذه الكذبة الصغيرة التافهـة فى بؤرة اهتمامى ، بدأت أتحقق من أمر الممرضـة هـوبكنز وشهادتها بحرص شديد ، ولاحظت شيئاً لم أكـن بالـذكاء الكافى لإدراكه من قبل ، لقد كانت الممرضة هـوبكنز تعلـم شيئًا يخص مارى وكانت تشعر بقلـق شـديد مـن اكتـشاف ذلك الأمر " .

قال بيتر لورد فى تفاجؤ :

" لقد ظننت أن الأمر حدث بشكل عكسى ؟ " .

" ظاهرياً فقط ، لقد أدت الممرضة هوبكنز دور الشخص الذى يحفظ سرا ولا يريد أن يخـبر بـه أداءً مثاليًـا ! لكـن عنـدما فكـرت فـى الأمـر بـتمعن ، أدركـت أن كـل كلمـة

خرجت من لسانها بشأن هـذه المسألة قـد نطقتهـا كانـت تهدف بها إلى كشف ذلك السر . ولقد كانت محادثتى مع الممرضة أوبريان كافية لتأكيد هذا الاعتقـاد . لقـد تلاعبـت الممرضة هوبكنز بالممرضة أوبريان واستغلتها بذكاء شـديد ، دون أن تدرك الأخيرة هذه الحقيقة .

" لقـد بـدا واضـحًا حينهـا أن الممرضـة هـوبكنز لـديها لعبتهـا الخاصـة التـى تريـد أن تلعبهـا . وعنـدما وضـعت الكذبتين موضع المقارنة ـ كذبتها وكذبة رودريـك ويلمـان ـ سألت نفسى : هل يـستطيع أى منهمـا أن يعطـى تفسيراً بريئاً لتلك الكذبة التى قالها ؟

" فى حالة رودريك ، أجبـت علـى الفـور : نعـم . إن رودريك ويلمان شخصية حساسة للغاية ، واعترافه بأنه لم يستطع أن يفى بوعده ويظل خـارج الـبلاد ، وأن مـشاعره قد دفعته إلى العودة ومطـاردة الفتـاة التـى قـد رفـضته مـن قبل ، هو أمر شديد الإيلام لكبريائه المجروحـة ، وحيـث إنه لم يكن هناك أى شك فى وجوده فـى مـسرح الجريمـة أو معرفته بأى شىء يخصها ، فقد اتخذ رودريـك الطريـق الأقل صعوبة وتحاشى تعـريض نفـسه لـلألم (وهـى صـفة تميز بعض الأشخـاص !) وذلك من خلال كتمـان أنـه قـد هرع إلى زيارة لندن والتصريح بأنه قـد عـاد إلى الـبلاد فـى الأول من أغسطس ، بعد أن بلغته أنباء وقوع الجريمة .

" أما بخصوص الممرضة هـوبكنز ، أكـان هنـاك تفـسير برىء لتلك الكذبة التى قالتها ؟ كلمـا فكـرت فـى الأمـر ،

بدت المسألة غير اعتيادية بالنسبة لى . لماذا تضطر الممرضة هوبكنز للكذب لمجرد وجود أثر جرح فى معصمها ؟ وما هى الأهمية التى يمثلها ذلك الأثر ؟

" بدأت أسأل نفسى هذه الأسئلة . من كان يمتلك قنينة المورفين التى سُرقت ؟ الممرضة هوبكنز . من كان باستطاعته حقن السيدة ويلمان بجرعة مورفين ؟ الممرضة هوبكنز . حسنًا ، لكن لماذا تلفت الانتباه إلى فقد قنينة المورفين ؟ كانت هناك إجابة واحدة عن هذا السؤال فى حالة كون الممرضة هوبكنز هى مرتكبة الجريمة : لأن الجريمة الأخرى - جريمة قتل مارى جيرارد - قد تم التخطيط لها بالفعل ، وقد تم اختيار كبش فداء لإلقاء التهمة عليه ، لكن لابد من إظهار أن *ذلك الشخص كانت لديه الفرصة للحصول على المورفين* .

" ثم بدت أمور أخرى تتماشى مع هذه الفرضية . الخطاب الذى تلقته إلينور كارليل من مجهول . لقد كان الهدف منه خلق جو من العداء بين مارى و إلينور . كانت الفكرة المأمولة هى أن تحضر إلينور إلى هانتربيرى وتعترض على تأثير مارى جيرارد على السيدة ويلمان . كان وقوع السيد رودريك ويلمان فى حب مارى جيرارد مسألة غير متوقعة - لكن الممرضة هوبكنز سرعان ما استفادت منها . فلقد كانت تلك المسألة تمثل الدافع الذى سيكفى لإلقاء التهمة على إلينور كارليل .

" لكن ما هو السبب وراء ارتكاب هاتين الجريمتين ؟ ما هو الدافع الذى يجعل الممرضة هوبكنز ترغب فى قتل مارى جيرارد ؟ بدأت حينها أرى ضوء الأمل ـ رغم أنه كان ضوءاً معتماً حتى تلك اللحظة . لقد كان للممرضة هوبكنز تأثير قوى على مارى ، وقد استغلت ذلك التأثير فى دفع الفتاة إلى كتابة وصيتها ، لكن الوصية لم تكن لتفيد الممرضة هوبكنز ، وإنما كانت لصالح خالة مارى التى كانت تعيش فى نيوزيلاندا . وحينها تذكرت كلمة عابرة قالها لى أحد أهالى القرية ، وهى أن تلك الخالة كانت تعمل ممرضة فى أحد المستشفيات .

" حينها لم يعد الضوء شديد الإعتام . لقد بدأ هيكل الجريمة وتصميمها يتضح أمام عينى . كانت الخطوة التالية سهلة للغاية . قمت بزيارة الممرضة هوبكنز مجدداً ، وقد لعب كل منا دوره ببراعة فى تلك المسرحية الهزلية . وفى النهاية سمحت لنفسها بأن تخبرنى بما كانت تريد أن تتحدث عنه طيلة الوقت ! لكن ربما تكون قد أفشت الخبر قبل الموعد المناسب الذى كانت قد حددته من قبل ! لكن الفرصة كانت جيدة وما كانت لتغامر بإضاعتها . وعلى أى حال ، كان عليها أن تكشف الحقيقة فى وقت ما . وهكذا ، وبنفور مزيف ، قدمت لى الخطاب . وحينها يا صديقى ، لم أعد أعتمد على مجرد حدس ـ *لقد صرت أعلم الحقيقة لقد كشف الخطاب أمرها* " .

قال بيتر لورد بعبوس :

" كيف هذا ؟ " .

" فكر قليلاً يا صديقي ! لقد كان العنوان الذى كتب فوق المظروف كالآتى : " إلى مارى ، يُرسل إليها بعد وفاتى " لكن محتوى الخطاب كان يدل بوضوح على أن مارى جيرارد يجب ألا تعرف الحقيقة ، وكذلك فإن كلمة " يُرسل " ـ وليس " يُسلم " ـ التى كتبت على المظروف وضحت كل شيء . لم تكن مارى جيرارد هى من كُتب لها هذا الخطاب ، ولكن مارى أخرى . لقد كتبت آليزا رايلى هذا الخطاب إلى أختها ، مارى رايلى ، التى تعيش فى نيوزيلاندا لكى تخبرها فيه بالحقيقة .

" إن المرضة هوبكنز لم تعثر على الخطاب فى الكوخ ، بعد وفاة مارى جيرارد ، وإنما كان الخطاب بحوزتها لسنوات طوال . لقد تسلمت الخطاب فى نيوزيلاندا ، حيثما أُرسل إليها بعد وفاة أختها " .

سكت بوارو للحظة ثم أردف:

" وما أن رأيت الحقيقة بعين عقلى ، فإن المتبقى كان أمراً سهلاً . إن سرعة السفر بالطائرات قد جعلت بالإمكان استدعاء بعض الشهود ـ ممن كانوا يعرفون مارى درابر فى نيوزيلاندا ـ إلى قاعة المحكمة " .

قال بيتر لورد :

" وماذا لو أنك كنت مخطئًا وكانت مارى درابر والمرضة هوبكنز شخصيتين مختلفتين تمامًا ؟ " .

قال بوارو ببرود :

" أنا لا أخطئ أبدًا " .

ضحك بيتر لورد .

وأكمل بوارو حديثه قائلاً :

" يا صديقى ، لقد صرنا الآن نعلم أشياء عن مارى رايلى أو السيدة درابر . لم يستطع رجال الشرطة فى نيوزيلاندا الحصول على إثباتات قوية تكفى لإدانتها ، لكنهم كانوا يراقبونها لبعض الوقت عندما غادرت البلاد فجأة ، كانت إحدى مريضات الممرضة رايلى قد تركت لها جزءًا من ميراثها ، وكانت الطريقة التى توفيت بها تلك المرأة محيرة للأطباء الذين كانوا يتولون رعايتها . علاوة على ذلك ، فقد قام زوج مارى رايلى بعمل بوليصة تأمين على حياته لصالحها ، وبمبلغ كبير من المال ، وقد كانت وفاته فجائية وغير مبررة ، لكن لسوء حظها فقد نسى زوجها أن يرسل شيكاً بمبلغ القسط الأول إلى شركة التأمين ، رغم أنه كتبه ووقعه . وهناك قضايا أخرى ربما تكون قد ارتكبتها ، ومن الواضح أنها امرأة عديمة الأخلاق والضمير .

" أعتقد أن خطاب أختها الذى تسلمته قد وضع أمام عقلها الداهية فرصة للحصول على المال ، عندما أصبحت نيوزيلاندا مكاناً غير آمن بالنسبة لها ، وحضرت إلى هذه البلاد لتمارس عملها السابق تحت اسم هوبكنز (وهو اسم زميلة لها توفيت بالخارج) كانت قرية مادينسفورد هى محط أنظارها . ربما ظنت أن باستطاعتها ممارسة بعض

الابتزاز ، لكن السيدة ويلمان لم تكن من ذلك النوع الذى يسمح لنفسه بأن يتعرض للابتزاز ، ولذلك فإن المرضة رايلى ، أو هوبكنز ، لم تحاول القيام بشىء من هذا النوع . لابد أن المرضة هوبكنز قد قامت ببعض التحريات واكتشفت أن السيدة ويلمان امرأة شديدة الثراء ، وربما يكون قد وصل إلى سمعها أن السيدة ويلمان لم تترك وصية .

" وهكذا ، وفى تلك الليلة من ليالى شهر يونيو ، وعندما أخبرت المرضة أوبريان زميلتها أن السيدة ويلمان قد أرسلت فى طلب محاميها ، لم تتردد المرضة هوبكنز فى تنفيذ خطتها ، والتى تقتضى أن تموت السيدة ويلمان دون كتابة وصية ، وهكذا يئول الميراث بالكامل إلى ابنتها غير الشرعية . كانت هوبكنز قد عقدت صداقة قوية مع مارى جيرارد وصار لها تأثير قوى على تلك الفتاة . وكان كل ما يجب فعله بعد ذلك هو أن تدفع الفتاة إلى كتابة وصية تترك فيها كل أموالها إلى شقيقة والدتها ؛ ولقد أملت عليها تفاصيل تلك الوصية بدقة شديدة ، حيث إنها لم تذكر العلاقة التى تربط مارى بتلك المرأة ، وإنما كتبت فقط : " إلى مارى رايلى ، شقيقة الراحلة آليزا رايلى " وما إن وقعت مارى على تلك الوصية ، حتى صار مصيرها محتوماً . وكان على المرضة هوبكنز أن تنتظر الفرصة المناسبة فقط . وأظن أنها كانت قد اختارت طريقة ارتكاب الجريمة ، باستخدام المورفين ، حتى تؤمن

لنفسها دليل براءة جيدًا . ربما كانت تخطط للجمع بين إلينور ومارى فى الكوخ الصيفى ، ولكن عندما حضرت إلينور بنفسها ودعتهما إلى تناول الشطائر ، أدركت المرضة هوبكنز أن اللحظة المناسبة قد حضرت ، ولقد كانت الظروف المحيطة بالجريمة تكفى لكى تدان إلينور بجريمة القتل " .

قال بيتر لورد ببطء :

" لو لم تتدخل أنت ، لكانت إلينور قد أدينت بالفعل " .

قال هيركيول بوارو بسرعة :

" كلا ، بل أنت من يستحق أن تشكره إلينور على إنقاذ حياتها " .

" أنا ؟ أنا لم أفعل أى شيء ـ لقد حاولت .... " .

سكت بيتر لورد ولم يكمل ، فابتسم بوارو قليلاً .

وقال : " يا عزيزى ، لقد حاولت بكل جهدك ، أليس كذلك ؟ لقد كنت عديم الصبر لأنه قد بدا لك أننى لن أصل إلى أى شيء . وكنت خائفاً أيضا من أنها قد تكون مذنبة بالفعل . وهكذا ، وبجرأة شديدة ، أخبرتنى ببعض الأكاذيب ! لكنك لم تكن حريصاً جدًا وأنت تفعل ذلك يا صديقى ، ونصيحتى لك هى أن تهتم بعلاج الحمى والسعال وأن تترك حل الجرائم للمتخصصين " .

امتقع وجه بيتر لورد وقال :

" أكنت تعرف .... طوال الوقت ؟ " .

قال بوارو بحدة :

" لقد قدتني إلى بقعة خالية بين الشجيرات ، وعاونتني في العثور على علبة ثقاب ألمانية كنت قد وضعتها هناك بنفسك ! يا له من تصرف ساذج ! " .

جفل بيتر لورد .

وقال متأوهًا : " لقد زدت الطين بلة " .

أكمل بوارو يقول :

" لقد تحدثت إلى البستاني ووجهته في الحديث حتى قال إنه قد رأى سيارتك على الطريق ؛ وحينها بدا عليك الاندهاش وتظاهرت أنها لم تكن سيارتك ، ثم نظرت إلى بقوة حتى تتأكد أنني قد أدركت أن شخصاً غريباً كان موجودًا في المكان في ذلك الصباح " .

قال بيتر لورد :

" لقد تصرفت كالأحمق " .

" ماذا كنت تفعل في هانتربيرى في ذلك الصباح ؟ " .

احمر وجه بيتر لورد وقال :

" لقد كانت مجرد حماقة .... علمت أن إلينور قد حضرت إلى القرية ، فذهبت إلى المنزل على أمل أن أراها . لم أكن أنوى أن أتحدث إليها . كنت .... كنت أريد أن أراها فقط ، ومن خلال تلك الفتحة بين الشجيرات رأيتها في حجرة المؤن ، تقطع الخبز وتضع الزبد فوقه .." .

" كما كان روميو يتطلع إلى جولييت من فوق الشجرة التى تقع أمام شرفتها ، أكمل يا صديقى " .

" ليس هناك ما يقال . لقد تسللت إلى داخل الشجيرات وظللت أتطلع إليها حتى غادرت الحجرة " .

قال بوارو برقة :

" هل أحببت إلينور كارليل من النظرة الأولى ؟ " .

ساد الصمت طويلاً .

فقال بوارو : " لقد ظننت ذلك " .

ثم قال بيتر لورد :

" حسنا ، أعتقد أنها سوف تعيش مع رودريك ويلمان فى سعادة إلى الأبد " .

قال هيركيول بوارو :

" لا تفترض شيئاً كهذا يا صديقى العزيز ! " .

" ولماذا لا أفعل ؟ سوف تغفر له مسألة تعلقه بمارى جيرارد ، وتدرك أنها كانت مجرد هوس مؤقت " .

قال هيركيول بوارو :

" الأمر أعمق من ذلك .... أحيانا ما تنشأ هوة كبيرة بين الماضى والمستقبل . عندما يقترب المرء كثيرًا من الموت ، ثم يخرج إلى ضوء الأمل مجدداً ـ حينها تبدأ حياة جديدة ... حياة ليس للماضى أمل فى التواجد فيها .... " .

انتظر بوارو لدقيقة ، ثم أردف :

" حياة جديدة .... هذا ما سوف تبدؤه إلينور الآن - وأنت من أعطاها تلك الحياة " .

" كلا " .

" نعم . لقد كان تصميمك وإلحاحك المتعجرف هو الذى أجبرنى على أن أفعل ما تريد ، اعترف الآن ، إنها تدين لك بالامتنان الآن ، أليس كذلك ؟ " .

قال بيتر لورد ببطء :

" نعم ، إنها ممتنة للغاية - الآن .... ولقد طلبت منى أن أزورها - كثيرا " .

" نعم ، إنها تحتاج إليك " .

قال بيتر لورد بعنف :

" ليس كما تحتاج إليه... هو ! " .

هز بوارو رأسه نفيًا وقال :

" هى لم تحتج إلى رودريك ويلمان مطلقًا ، لقد كانت تحبه ، نعم ، كانت تحبه بتعاسة ويأس " .

قال بيتر لورد بحدة وقد تجهم وجهه :

" إنها لن تحبنى بهذه الطريقة أبدًا " .

قال هيركيول بوارو برقة :

" ربما لا ، لكنها تحتاج إليك يا صديقى ؛ لأنها معك فقط سوف تستطيع أن ترى العالم مجدداً " .

لم ينطق بيتر لورد بشىء .

كان صوت هيركيول بوارو رقيقاً للغاية وهو يقول :

" ألا يمكنك أن تتقبل الحقائق ؟ لقد أحببت رودريك ويلمان فى الماضى ـ وماذا فى ذلك ؟ *لكنها سوف تكون سعيدة معك أنت*" .